





في أمور الدين - في التاريخ - في الاقتصاد - في الأدب



محمد قطب

دار الشروق

الطبعـة الأولى
١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م
الطبعـة الثانيـة
١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م



القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

من قضايا

الفكر الإسلامي المعاصر

في أمور الدين - في التاريخ - في الاقتصاد - في الأدب

محمد قطب

من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر

في أمور الدين - في التاريخ - في الاقتصاد - في الأدب



دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾

[سورة سبأ ـ ٤٦]


شباب
النادي الشبابي

مقـدمة

كثيرا ما ينشغل فكرى بقضايا إسلامية أعلم أن الكتابة فيها ليست من اختصاصى، أو أن وقتى وجهدى لا يتسعان للكتابة فيها، ولكنى أراها فى الوقت ذاته ضرورية للصحوة الإسلامية، ولحاضر الأمة ومستقبلها، وأتمنى أن يتجه المختصون إلى دراستها، وتوفيتها حقها من الاهتمام بها، وتجلية غوامضها، وتفصيل البحث فيها . . ثم تمضى سنوات، فأجد بعض إشارات إليها فى بحوث عارضة، وأجد بعضها الآخر لم يشر إليه أحد، مع شعورى الملحّ بأهمية دراستها، وتوجيه النظر إليها . .

وقد أردت فى هذا الكتيب أن أسجل بعض هذه الموضوعات التى تشغل فكرى، ثم أنشرها على القراء، لعلها تجد من بينهم من ذوى الاختصاص والقدرة من يهتم بدراستها، وبسط الكلام فيها، سواء فى الواقع القريب أو فيما يأتى من الأيام، فهى فى ظنى مفتوحة للدراسة على الدوام، ولازمة للأمة فى جميع أطوارها، وليس فى الواقع القريب وحده . .

والذى أردت تسجيله هنا ليس دراسة لأى قضية من القضايا الإسلامية، إنما هو دعوة للدراسة . . دعوة للمختصين أن يتناولوها بالعناية الواجبة، والجهد اللازم، ليخرجوا منها بمواقف واضحة، ورؤية مستبصرة للحاضر والمستقبل .

أستطيع أن أقول إن ما أعرضه هنا هو مجرد التعريف ببعض القضايا التى أراها جديرة بالدراسة، وقد يكون فى كتب لى سابقة إشارات سريعة إلى بعضها . ولكن الذى أرجوه أن تجد حظها من البحث العلمى الهادئ الرصين المفصل . . وحسبى منها أن أكون قد بلغت! اللهم هل بلغت؟!

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] .

محمد قطب

أولا: فى أمـور الـدين

١ - منهج لدرس الدين.

٢ - موقف أوربا من الدين: أسبابه ونتائجه وانعكاساته على واقعنا المعاصر.

٣ - هل تطورت العقيدة خلال التاريخ؟

٤ - مستقبل الدعوة الإسلامية.

(١)

منهج لدرس الدين

فيما مضى من تاريخ هذه الأمة، حين كانت الأمة ملتزمة بالإسلام، سواء الالتزام الحى الصادق، المنبثق من عقيدة حية واعية، وإدراك حقيقى لعظمة هذا الدين، وعظمة الرسالة المنوطة بهذه الأمة، أو الالتزام التقليدى الذى ران على الأمة فى قرونها الأخيرة، حين تحول الإسلام إلى تقاليد تؤدى محافظة على التقاليد أكثر منها وعيا صادقا وعقيدة حية..

نقول: فيما مضى من تاريخ هذه الأمة، كانت مفاهيم هذا الدين وسلوكياته واقعا معاشا فى المجتمع، يعيشه الناس فى واقع حياتهم - واعين قاصدين أو مقلدين - ويتربى عليه الصغار حتى يشبوا، فيصبح جزءا من حياتهم، يؤدونه تلقائيا بفعل التوجيه الدائم فى البيت وفى الشارع وفى كل مناشط المجتمع (ولا يمنع هذا بطبيعة الحال من وجود المتفلتين الذين يخالفون تيار المجتمع بسلوكياتهم المنحرفة، أو المتمردين الذين يخرجون على مفاهيم المجتمع ويناوئونها، فهؤلاء موجودون دائما فى المجتمع بنسب تزيد وتنقص بحسب الظروف والأحوال).

عندئذ كان درس الدين درسا تلقينيا لا يتعلق بالتوجيه التربوى، أو الوجدانى، إنما يتعلق بالنصوص الدينية من الكتاب والسنة، وشرحها، وتفصيلها، وبيان ما يتعلق بها من «أصول الدين» أو «الفقه» أو «أصول الفقه» أو «اللغة» (باعتبارها أداة الفقه)، وكان هذا هو «العلم الدينى» أو «العلم الشرعى» الذى يدرس فى مدارس المسلمين.

وقد كان هذا أمرا مستساغا فى الواقع الذى يعيشه المسلمون فى ذلك التاريخ.

فالجانب التربوى، والوجدانى، والسلوكى، يتولاه المجتمع بطرقه الخاصة، سواء فى التربية المنزلية، أو التقاليد السارية فى المجتمع، المرعية على وجه العموم، والملزمة لأفراد المجتمع (إلا من شذّ منهم)، والتى تطبع الناس بطابعها، فلا تحتاج إلى جهد خاص تقوم به «المدرسة». إنما تتولى المدرسة الجانب التعليمى التلقينى العقلانى، الذى يتعامل مع النصوص كقضايا عقلية، لا وجدانية ولا تربوية ولا سلوكية.. ذلك الجانب الذى لا يستطيع «البيت» ولا «المجتمع» أن يقوم به من تلقاء نفسه، إنما يقوم به العلماء المتخصصون فى هذه الدراسات، يلقنونها لتلاميذهم جيلا بعد جيل، سواء أبدعوا فيها من اجتهاداتهم الخاصة، أو رددوا فيها ما سبقهم إليه غيرهم من العلماء..

وحين جاء الغزو الغربى للعالم الإسلامى كانت الأحوال فى العالم الإسلامى على تلك الصورة التى أشرنا إليها آنفا، لا تفترق عن أحوال الأجيال السابقة عليها إلا فى أمر واحد يعدّ فى السلبيات لا فى الإيجابيات، ذلك أن الدين كله فى الواقع - إلا ما رحِم ربك - كان قد تحول إلى تقاليد خاوية من الروح، تراعى، نعم، ولكن بغير النبض الحىّ الذى يمنحها الحيوية والامتداد والصمود..

إن التقاليد يمكن أن تعيش قرونا متطاولة من الزمان إذا لم تسلط عليها الأعاصير ولا معاول الهدم، بحيث يخيل للرائى أنها متينة وصامدة وقوية وراسخة، ولكنها لا تكون فى الحقيقة كذلك! تكون قد جفت، وفقدت الملاط الحىّ الذى يربط بين لبناتها، ويجعل منها بناء راسخا يصمد للأنواء. فإذا جاءت الأعاصير، وسلطت معاول الهدم، فسرعان ما تنهدم تلك التقاليد، التى كانت تبدو صامدة راسخة، والتى عاشت طوال قرون من قبل لا ينالها التغيير!

وحين جاء الغزو الغربى جاء ومعه الأعاصير، وحمل معه كل معاول الهدم يسلطها على ما بقى فى حياة الناس من آثار هذا الدين يحاول محوها محوا من الوجود[1].

ونال درس الدين بالذت كثير من معاول الهدم، أضيفت إلى ما كان عالقا به من

(١) سنتكلم فى فصل «التاريخ» عن الحرب الصليبية المعاصرة، وموقفها من الإسلام.

عوامل القصور من قبل، فأفقدته قدرته على التأثير فى المجتمع الجديد الذى أنشأه الغزو الصليبى، الذى كان يهجم بكل ضراوة لمحاولة القضاء على الإسلام.

وسنتكلم بعد قليل عن عوامل القصور التى كانت عالقة بدرس الدين - أى بالتعليم الدينى كله - حين نتكلم عن المنهج المقترح لتدريس الدين. ولكنا نفترض - جدلا - أن درس الدين لم يكن به قصور، وأنه كان قائما بدوره كما ينبغى، ثم لننظر ماذا كان يبقى له من أثر بعد أن يتعرض لما تعرض له بالفعل على أيدى الاستعمار.

وإذا أخذنا التجربة المصرية على سبيل المثال - للأسباب التى ذكرناها فى كتاب «واقعنا المعاصر»[1] - فلننظر ماذا فعل مستشار وزارة المعارف المصرية - المستر «دنلوب» - لإزهاق أنفاس درس الدين، وتحويله جثة هامدة لا حياة فيها[2]!

عمد دنلوب بادئ ذى بدء إلى إقصاء معلم اللغة العربية - الذى هو معلم الدين كذلك - عن مركز الصدارة فى المدرسة - بل فى المجتمع كله - بأن جعل راتب مدرسى المواد الرئيسية كلها: اللغة الانجليزية والجغرافيا والتاريخ والرياضيات والعلوم اثنى عشر جنيها، بينما راتب معلم اللغة العربية أربعة جنيهات!! ولا نحتاج أن نطيل فى شرح الأثر الذى يترتب على هذا الإجراء (الذى لا مبرر له على الإطلاق) فى وضع معلم اللغة العربية فى المجتمع، وما يترتب كذلك من الآثار على المادة التى يدرسها، وهى اللغة العربية ذاتها، فتفقد أهميتها، وصدارتها، ومركزها الثقافى والعلمى المتميز، لتبرز اللغة الإنجليزية - لغة المستعمر - إلى مكان الصدارة والأهمية الثقافية والعلمية، فضلا عن وجاهة حاملها فى المجتمع الجديد بمقدار ما ينزوى معلم اللغة العربية ويتوارى فى طيات الخجل، أو طيات الإهمال!

وإذ كانت الثقافة العربية شديدة الارتباط بالثقافة الدينية منذ نزول الإسلام، وانتشاره فى الأرض، بحكم كون القرآن الكريم قد نزل بلسان عربى مبين، وأن الله قد اختار خاتم أنبيائه - ﷺ - من العرب، فنستطيع أن ندرك مدى تأثير تنحية اللغة

---

(١) قلنا فى ذلك الكتاب إن التجربة المصرية هى أوسع تجربة للغزو الفكرى فى العالم الإسلامى، بحيث تصلح لتفسير كل التجارب الأخرى، التى تكون إما مطابقة لها أو جزءاً منها.

(٢) انظر إن شئت فصل «دور الاستعمار البريطانى» من كتاب «واقعنا المعاصر» ص ٢١٥ - ٣٢٤.

العربية عن مكان الصدارة فى المدرسة وفى المجتمع، على الثقافة الدينية كلها، المكتوبة كلها باللسان العربى!

ولكن دنلوب لم يكتف بهذه الجرعة المسمومة بالنسبة لدرس الدين - الذى يقوم بتدريسه أحد معلمى اللغة العربية الذين فعل بهم دنلوب ما فعل - وإنما خصّ درس الدين بجرعة مضاعفة!

فقد وجّه - بوصفه مستشار وزارة المعارف - بأن يعطى درس الدين لأسنّ مدرسى اللغة العربية وأشدهم هرما بدعوى إراحته من تصحيح الدفاتر، التى ينوء بحملها مدرس اللغة العربية، ثم وجه بأن تكون حصة الدين فى نهاية اليوم الدراسى بدعوى تخصيص وقت الصباح للمواد «الرئيسية»! وأن تحذف حصة الدين بكاملها فى الجدول المختصر الذى يطبق فى أواخر العام، والذى تحذف فيه «المواد الإضافية» (الرسم والأشغال اليدوية والألعاب الرياضية) بدعوى التخفيف على التلاميذ عند بداية الحر!

وحين يدخل الرجل المسنّ، الذى يسعل ويتفل، ويمثل الفناء والعجز والشيخوخة، حين يدخل على التلاميذ فى نهاية اليوم المدرسى، وهم نائمون أو شبه نائمين، وقد استولى عليهم الملل والضجر، وهم يتطلعون إلى دق الجرس لينفلتوا إلى الطريق عائدين للبيوت . . ثم يدخل إليهم لا ليبعث نشاطهم أو يشوّقهم بقصة أو حركة، وإنما ليلقى عليهم نصوصا غالبا ما تكون فوق مداركهم، ثم يقول لهم: «احفظ يا ولد»! . .

حين يكون هذا هو درس الدين، فما حصيلته فى نفوس الذين يتلقونه؟ وما تأثيره فى حياتهم؟!

ثم . . حين يحذف فى نهاية العام مع «المواد الإضافية!» فكم يبقى له من الاحترام فى نفوسهم؟!

إنه - على أقصى تقدير - مادة دراسية تحفظ من أجل الاختبار، ولا أثر لها فى الوجدان، ولا أثر لها فى واقع السلوك[1]!

---

(١) فى المدارس التى أنشأها دنلوب فى مصر الإسلامية كانت درجة اختبار الدين لا ترصد فى نهاية العام ولا تدخل فى مجموع الدرجات!

ولكى نعلم أن هذا كله مقصود - لأمر يراد - نعقد مقارنة سريعة بين درس الدين الإسلامى - فى وضعه الذى وضعه فيه دَنلوب - ودرس الدين المسيحى فى مدارس التبشير، التى تأذن دولة الاستعمار بفتحها، ويدخل فيها كثير من أبناء المسلمين من أجل إتقان «اللغة الأجنبية» الذى أصبح هو عنوان الوجاهة فى المجتمع الجديد الذى أنشأه الاستعمار، وهو كذلك أوسع أبواب الارتزاق!

حصة الدين فى تلك المدارس هى الحصة الأولى! حيث يكون التلاميذ فى مستهل نشاطهم، ونفوسهم متفتحة لاستقبال اليوم الجديد. ولا يعطى الدرس فى الفصول الدراسية، وإنما فى كنيسة المدرسة[1]، حيث تعطى الجو الوجدانى المناسب لدرس الدين، ويقوم بالتدريس أحب المدرسين والمدرسات إلى قلوب التلاميذ، وأصبحهم وجها، وأوفرهم نشاطا، حيث يعطى الدرس على أيديهم إيحاء البشر والنشاط والفرحة، ولا يكون الدرس نصوصا للحفظ، وإنما هو أناشيد جماعية وقيام وقعود، وقصص وأمثال!

ما أبعد الفرق.. وما أبعد التأثير!

وذهب دنلوب.. ولكن سمومه لم تذهب! بل انتشرت فى كثير من البلاد التى دنسها الاستعمار.[2]..

ثم لقد فرّخت العلمانيين الذين نراهم اليوم يهاجمون الإسلام كأنه عدو، ويجتهدون فى تشويه صورته فى نفوس الناس! ويعتبرون ذلك «حربا مقدسة» عليهم أن يخوضوها ضد الإسلام!

❊ ❊ ❊

يعانى درس الدين فى وضعه الحالى فى أكثر مناهجنا ألوانا متعددة من القصور، سواء كانت موروثة من مناهجنا القديمة التى كانت تدرس فى القرون الماضية أو كانت دخيلة جاءت مع الاستعمار والغزو الفكرى.

---

(١) حتى فى المدارس التى كانت تزعم أنها علمانية، كانت توجد كنائس يؤدى فيها درس الدين الصباحى!

(٢) اقرأ عن هذه السموم إن شئت فى كتاب «واقعنا المعاصر» ص ٢١٧ - ٢٣٤.

فأما الموروث من المناهج التقليدية فقد أشرنا إشارة عابرة من قبل إلى جانب القصور فيه، حين قلنا إنه كان تناولا عقلانيا تلقينيا لا يتناول الجانب الوجدانى ولا التربوى ولا السلوكى، وقلنا إن هذا كان يمكن أن يكون مستساغا حين كان البيت والشارع والمجتمع بمناشطه المختلفة يقوم بالدور الوجدانى والتربوى والسلوكى، فاقتصرت المدرسة على تناول النصوص تناولا عقلانيا فحسب. ولكن لا يفوتنا هنا أن نقول إن تناول أمور العقيدة بالذات على هذا النحو، الذى يحولها إلى قضايا ذهنية بحتة، كان مسئولا بصفة أساسية عن تحول الجماهير إلى الصوفية تبحث بين أحضانها عن النداوة الوجدانية الروحية التى افتقدتها فى التعليم المدرسى.

ولكن نضيف هنا أن الأوضاع فى الآونة الأخيرة قد تغيرت من ناحيتين اثنتين على الأقل: الناحية الأولى أن البيت والشارع والمجتمع بصفة عامة - بتأثير الاستعمار والغزو الفكرى والعدوى العالمية - لم يعد ملتزما التزاما صحيحا بالإسلام - إلا ما رحم ربك - فلم يعد يقوم بتغطية الجانب الوجدانى والتربوى والسلوكى الذى كان يقوم به فى الماضى، فصارت المدرسة هى التى تحمل العبء الأكبر فى هذا الأمر. والناحية الثانية أن تطور «المؤسسات» فى المجتمعات الحديثة جعل المدرسة هى التى تحمل العبء الأكبر فى العملية التعليمية والتربوية حتى لو كان المجتمع والبيت قائمين بها من جانبهما كما يحدث فى الغرب، فكيف إذا كانا - فى مجتمعاتنا الشرقية - لا يقدمان شيئا يذكر فى هذا المجال؟!

فحين تقتصر المدرسة فى مجتمعاتنا على التناول الذهنى للعقيدة، والتناول العقلانى التلقينى للنصوص الدينية، دون الجانب التربوى والوجدانى والسلوكى، يتبدى القصور واضحا، ويعجز درس الدين عن أداء مهمة حقيقية فى تكوين شخصية الدارس وتوجيهه فى الحياة.

وأما من ناحية الغزو الأجنبى فقد تحول درس الدين فى مناهجنا إلى رقعة فى ثوب علمانى! فمناهجنا - فى جميع العلوم - إن هى إلا ترجمة (جيدة أو رديئة) للمناهج الغربية. ومعلوم أن الغرب الذى نترجم عنه مناهجنا فى الوقت الحاضر يعيش الآن فترة علمانية جاحدة نافرة من الدين، لأسباب معينة صاحبت الحياة

الأوروبية[١]، ومن أجل ذلك لا يذكر اسم الله قط فى مناهجه العلمية، إنما يذكر «الطبيعة» بدلا منه، وينسب إليها الخلق والإنشاء والتطوير، كما يقدم الظواهر الكونية كأنها موجودة بذاتها على النحو الذى هى عليه دون خالق أوجدها وسيّرها على هذا النحو، أو أن «قوانين الطبيعة» هى التى تتحكم فيها وليس «السنن الربانية»، ويقدم «الإنسان» وما يتعلق به من العلوم الاجتماعية كأن الإنسان هو المنشئ المريد، الفعال لما يريد، الذى يدير قدره بنفسه، ولا يتوقف شىء فى حياته على شىء خارج كيانه إلا البيئة المادية، أما قدر الله فلا، وأما سنن الله فى الحياة البشرية فلا، وأنه يعيش حياته الدنيا وحدها، ولا بعث ولا نشور ولا حساب[٢].

وفى هذا الجو الجاحد الجافى يتلقى الدارس علومه كلها . . إلا درس الدين!

درس الدين وحده هو الذى يذكر فيه اسم الله، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وسننه وتدبيره، وهيمنته وقدرته، وناره وجنته . .

هل يستطيع درس عابر - طائر! - أن يحدث أثرا حقيقيا فى هذا الجو الجاحد الجافى، الذى يصور الحياة كلها كأنها غير ذات صلة بالخالق المصور المدبر الكبير المتعال؟!

أم إن وجود هذا الدرس العابر - الطائر - فى هذا الجو أحرى أن يفقده أثره، خاصة إذا كان مجرد تناول ذهنى للنصوص الدينية، بغير روح حقيقية تغذى الوجدان أو توجه السلوك؟!

* * *

إذا كان هذا حال درس الدين فى مناهجنا الحالية فى كثير من بلادنا، فلنسأل أنفسنا سؤالا صريحا: هل نحن جادون فى تدريس الدين، راغبون حقيقة فى أن يكون له تأثير فى تنشئة أبنائنا وبناتنا؟ أم نحن نضعه فى مناهجنا «تسديد خانة» دون

---

(١) سنتكلم عن موقف أوربا من الدين فى فصل تال بعنوان «موقف أوربا من الدين: أسبابه ونتائجه وانعكاساته على واقعنا المعاصر».

(٢) اقرأ إن شئت فى هذا المجال كتاب «حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية».

هدف حقيقى من ورائه؟ أم نحن فى دخيلة أنفسنا ـ أو بتأثير ضغوط خارجية علينا ـ نريد أن نحجّمه ونلغى تأثيره من حياتنا[1]؟!

إنه لابد لنا أن نكون صرحاء مع أنفسنا، لنتخذ القرار على هدى وبصيرة ووعى وتصميم . .

فأما إن كنا جادين، فلابد من تغيير جذرى فى مناهج الدين، سواء لطلابنا الصغار فى المدارس، أو فى المعاهد المتخصصة للدراسة الشرعية، التى تخرج المتخصصين فى علوم الدين.

* * *

فأما الصغار فلا ينبغى أن يكون درس الدين عندهم مجرد نصوص للحفظ عن ظهر قلب، إنما ينبغى أن يكون مع النصوص قصص وأناشيد وتمثيليات بسيطة يمكنهم أداؤها سواء فى حجرة الدراسة أو على مسرح المدرسة، تظهر الجانب السلوكى من الإسلام فى مشاهد حية مؤثرة، وتنمى الوجدان الدينى من خلال المشهد المرئى، لا بالوعظ الشفوى وحده. على أن يكون هذا كله من صلب الدرس الدينى، وليس شيئا على هامشه يؤدّى أو لا يؤدّى حسب ضيق الوقت أو سعته، أو ضيق المكان أو سعته!

وغنى عن البيان أن هذا الأمر يحتاج إلى إعداد خاص لمدرس الدين، فلا يكون مجرد طالب متخصص فى العلوم الشرعية ـ وهى الزاد الرئيسى لمدرس الدين بطبيعة الحال ـ إنما يكون إلى جانب ذلك قد درس علوما تربوية ونفسية على مناهج إسلامية[2]، ويكون من بين ما درسه ما يسمى «الطرق الخاصة للتدريس» بعد أن تكون قد عدلت بالنسبة لتدريس الدين، بحيث تشمل جميع المناشط التى تحبب الطفل فى درس الدين، وتجعله يتعلق به ويتأثر بمحتوياته ويحرص عليها فى

---

(١) لاشك عندى أن بعض البلاد العربية والإسلامية كانت ـ وما تزال ـ جادة فى أمر تدريس الدين، مخلصة فى تنشئة أبنائها على هدى الإسلام، وإلى هؤلاء بالذات أوجه كلامى بادئ ذى بدء لتتم الفائدة، ويتحقق ما يصبون إليه على أكمل وجه.

(٢) فى كتاب «حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية» بعض التفصيل بالنسبة للعلوم التربوية والنفسية على المنهج الإسلامى.

سلوكه؛ كما ينبغى أن يكون فى ذاته مربيا وداعية لا مجرد مدرس يمتهن مهنة التدريس! فقد يصلح المدرس الممتهن لتدريس أية مادة إلا مادة الدين! فهذه تحتاج إلى إنسان - رجل أو امرأة - تربى على الإيمان، راغب فى بث الإيمان فى نفوس من يتلقون عنه درس الدين.

وأما الكبار - فى المستوى الإعدادى والثانوى - فقد نمت مداركهم واتسعت عقولهم، ومع ذلك فلا ينبغى أن يكون درس الدين بالنسبة لهم هو «الأحكام» وحدها، سواء أحكام العبادات أو أحكام المعاملات.

إن درس التوحيد - مثلا - حين يسير على المنهج القرآنى، لا يقتصر على بيان أحكام التوحيد وبيان أقسام الشرك.

فالقرآن يوجه النظر إلى آيات الله فى الكون، ومجالى القدرة الربانية فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والمطر النازل من السماء، والأرض المشققة التى تتلقاه فتنبت الزرع المختلف الألوان والأشكال والطعوم.. ثم يقول: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].. فيثير الوجدان أولا إلى عظمة الخلق التى تدل على عظمة الخالق، ثم - إذا تحرك الوجدان، وجاشت النفس بمشاعر التعظيم للخالق العظيم - وجه عقل الإنسان ووجدانه وحسّه جميعا إلى توحيد ذلك الخالق العظيم الذى لا يشاركه أحد فى الخلق ولا فى الملك ولا فى التدبير، فيجىء التوحيد حارا جياشا يملأ مساحته فى النفس، لا قضية ذهنية تشغل الذهن فحسب، ومن ثم يؤثر فى الوجدان والسلوك كما يقوّم الفكر، فتستقيم جميعا على الصراط المستقيم، ويصبح الإيمان كما كان فى حياة السلف الصالح قولا باللسان وعملا فى واقع العيان.. وحين نبين أحكام التوحيد - بعد هذا التمهيد - لا تكون مجرد قضايا تجريدية، أقرب إلى التفكير الفلسفى، إنما تكون مفاهيم حية تشمل الكيان النفسى كله، وتؤدى إلى سلوك مشهود..

وحين يجىء درس الصلاة - مثلا - فليست غايته ولا وسيلته مجرد بيان أحكام الوضوء وأحكام الصلاة، ونواقض الوضوء ومبطلات الصلاة، فهذا - وحده - لا

يحرك وجدانا ولا ينشئ سلوكا، وإن كوّن علما نظريا بتلك الأحكام. . والعلم مطلوب ولا شك، ومن دونه لا يصلح شيء، ولكنه - إن بقى معلومات فى الذهن وحده - فلن يغير شيئا حقيقيا فى حياة الإنسان.

ولنتصور أننا بدأنا الدرس بطريقة مختلفة. . فاستحضرنا عظمة الخالق، وما ينبغى له سبحانه من التعظيم والتوقير والإجلال، والتوجه إليه فى جميع الأحوال بالخوف والرجاء، والرهبة والرغبة، والتطلع إلى مرضاته، والحذر من سخطه، وأنه سبحانه هو الحقيق بذلك وحده، لأنه الخالق المالك المدبر المهيمن العزيز الجبار المتكبر. . ثم قلنا إن الصلاة هى الوقوف الخاشع بين يدى المولى العظيم، إجلالا له، وتوسلا إليه، وتعبيرا عن خضوع العبد لمولاه، وإظهار التبتل بين يديه، والتطلع إلى رضاه. . وإنها اللحظة التى يتصل فيها القلب البشرى بالنور الإلهى، فيستمد منه البصيرة كما يستمد منه التوفيق. . ثم بيّنا بعد ذلك أحكام الوضوء وأحكام الصلاة. . ألا نكون قد كسبنا الحسنيين: العلم والسلوك؟!

وكذلك بقية الدروس. . .

* * *

وينبغى كذلك أن نعقد صلة حية بين الدارس وبين القرآن. .

إن القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته وحفظه. . نعم. . ولكن المطلوب منا إلى جانب التلاوة والحفظ شيء آخر هو التدبر:

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٩].

ولكى نعقد هذه الصلة الحية فلابد من شرح مفصل مبسط لآيات القرآن التى نستشهد بها فى دروس الدين، بطريقة تربطها بما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون، أو مجريات الأحداث (أى السنن الربانية فى الكون المادى والسنن الربانية فى الحياة البشرية)، بحيث تتحول النصوص القرآنية فى حس الدارس من مجرد نصوص

تحفظ إلى مرجع يرجع إليه ليدرك ما حوله . . وحين يتعود أن يرجع إليه، يجد النور[1]!

* * *

ولا تنتهى القضية بالنسبة لدرس الدين عند هذه النقطة . .

فلابد من إزالة الجفوة القائمة بين مناهج العلوم الأخرى وبين درس الدين، لكى لا يكون درس الدين - كما أشرنا من قبل - رقعة فى ثوب علمانى!

إن العلم اليوم قد بدأ يخرج - فى بلاد الغرب ذاتها - من الجفوة المصطنعة التى قامت بينه وبين الدين فى أوربا منذ عصر النهضة، وبدأ يعود إلى الدين، وأنف الملاحدة الجفاة راغم، لأن الكشوف العلمية الهائلة التى توصل إليها العلماء فى الوقت الحاضر قد فتحت من «المجاهيل» أكثر مما فتحت من «المعلوم»! ووقف العلماء أمام «أسرار» مذهلة لا يجدون - بعد - سبيلا إلى اقتحامها أو إدراك كنهها، فأقروا بعجزهم، وأقروا بأن كل تفسير للكون لا يدخل فى حسابه وجود خالق مقتدر مريد مدبر هو تفسير «غير علمى» لأنه لا يفسر شيئا من حقائق الوجود!

وبالطبع ليس هذا هو «الإيمان» الحق الذى أوجبه الله على عباده، ولكنه خطوة على الطريق . . فالإيمان يقتضى الطاعة والالتزام فى الاعتقاد والشعائر والتشريع، والقوم بينهم وبين ذلك مدى لا يعلم إلا الله كيف يقطعونه ومتى يقطعونه إن قدر لهم أن يقطعوه!

ولكن المهم فيما نحن بصدده هنا أن الجفوة المصطنعة بين العلم والدين قد بدأت تتراجع فى ذات البلاد التى أوجدتها أول مرة . . فما بالنا نحن؟!

نحن أولى الناس بإزالة هذه الجفوة المصطنعة لأننا أهل الدين الحقيقى المعتبر عند الله:

﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [سورة آل عمران: ١٩].

ونحن أهل التاريخ العلمى المجيد الذى أنار وجه الأرض ذات يوم وكانت أوربا

---

(١) فى كتاب «ركائز الإيمان» محاولة لعقد مثل هذه الصلة مع القرآن.

تعيش فى ظلمات قرونها الوسطى المظلمة، وقد كان أروع ما فى ذلك التاريخ هو الصلة التى لا تنفصم بين الدين والعلم، فمن الدين انبثقت الرغبة فى التعلم، ومن الدين كان الحافز على كشف «المجاهيل» سواء فى أرجاء الأرض أو فى أرجاء الكون تحقيقا لقوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: ٦١]. .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك: ١٥].

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: ١٢، ١٣].

وهو القائل سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

وكان العالم يكون عالما فى الفلك أو فى الطب أو فى الفيزياء أو فى الكيمياء، ويكون فى الوقت ذاته عالما فى العلوم الشرعية، أو آخذا بقسط منها بلا تعارض ولا انفصال، لأنه لا تعارض فى حس المسلم بين العقل والدين، ولا بين عالم الغيب وعالم الشهادة، ولا بين الإيمان بالمسبب الأول لجميع الأشياء والبحث فى الأسباب الظاهرة التى يجرى الله بها أمور الكون وأمور الحياة. .

ومن واجبنا - دينًا - أن نعيد النظر فى مناهجنا كلها لتقويمها على أساس من هذه الصلة - الطبيعية - بين مناهج العلم ومناهج الدين. .

وليس معنى هذا - بحال - أن تنقلب دروسنا كلها إلى مواعظ! فالوعظ - على ضرورته - لا يؤدى مهمته إذا تجاوز المقدار المناسب، بل يؤدى إلى العكس. . إلى السآمة!

يقول الصحابة رضوان الله عليهم: كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة (أى بين الحين والحين) مخافة السآمة!

ونحن - البشر العاديين - إذا قلبنا كلامنا كله وعظا فلن نجنى منه إلا سآمة السامعين!

إنما نقصد - ببساطة - أن ندرس العلوم الكونية على أنها تعريف بآيات الله فى الكون، وندرس العلوم الاجتماعية على أنها تعريف بسنن الله فى الحياة البشرية، وندرس الإنسان ومناشطه المختلفة على أنه مخلوق من مخلوقات الله، متميز فى خلقه، مكرم من عند ربه، مكلف بعمارة الأرض، ومحاسب على تصرفاته فى الدنيا أمام خالقه يوم القيامة. . وكل ذلك فى صياغة علمية رصينة، لا هى سبحات روحية مهومة، ولا هى فى الوقت ذاته جفوة وجفاء للخالق المنعم الكريم.

إن الطبيعة الخالقة التى قال عنها دارون إنها تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق[1]، ثم قال عنها بعد قليل إنها تخبط خبط عشواء[2]! . . هذه الطبيعة وَهْمٌ لا وجود له إلا فى عقول أصحابه، الذين ابتدعوه ليكايدوا به الكنيسة، وليخرجوا من ربقتها بنفى الإله الذى تستعبدهم باسمه، وتحجر على عقولهم وتذل كراماتهم[3] . . إنما الإله الحقيقى هو الله ﴿ الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة طه: ٥٠].

وحين نعرض العلوم الكونية على أنها تعريف بآيات الله فى الكون فلن نغير حقائق العلم، ولن نطمسها، بل سنزيدها وضوحا وجلاء بإلقاء أضواء كاشفة على منشئها، والنهج الذى قدره لها خالقها وما نستطيع أن ندركه من حكم خالقها فى خلقها على هذا النحو.

إن «الواقع» الموجود فى الكون ليس هو الصورة الوحيدة التى يمكن أن يكون عليها - عقلاً - إنما هو الصورة التى أرادها لها خالقها، لحكمة يريدها، سواء أدركنا هذه الحكمة - أو جانبا منها - أو لم ندرك شيئا منها. إنما الحقيقة «العلمية» أنه لا حتمية فى أن يكون الكون على هذه الصورة بالذات، إنما هو اختيار حر من الخالق سبحانه: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [سورة: القصص: ٦٨].

---

(١) Nature creates everything and there is no limit to its creativity.

(٢) Nature works haphazardly.

(٣) انظر بيان ذلك فى الفصل التالى.

وكل كشف نكشفه من أسرار هذا الكون الهائل هو منحة من لدن المنعم الوهاب الذى سخر ما فى السموات وما فى الأرض للإنسان، ليستعين به على عمارة الأرض، ويؤدى حق الشكر للمنعم الوهاب.

ولو أخذنا حقيقة واحدة من حقائق هذا الكون، وهى تهيئة الأرض لسكنى الإنسان، فكم فيها من الآيات للقلب المتفتح، والعقل المستنير؟!

لو كانت الأرض أقرب إلى الشمس من وضعها الحالى لاحترقت الأحياء جميعا وما أمكن أن توجد حياة على الأرض، فضلا عن حياة الإنسان، ولو كانت أبعد من وضعها الحالى لغطى الجليد وجه الأرض وما أمكن أن توجد الحياة ولا الإنسان. ولو كان القمر أقرب إلى الأرض من وضعه الحالى لغطى المد الذى يحدث فى البحار والمحيطات كل اليابسة فى ساعات المد، ولما بقيت حياة على سطح الأرض.

وتركيب الهواء المحيط بالأرض فى غلافها الجوى يحمل كذلك آيات.. ودورة الكربون ما بين الإنسان والحيوان والنبات، التى تكفل الحياة للجميع، وتجدد الأوكسيجين فى الغلاف الجوى بالنسبة المطلوبة على الدوام، كلها آيات..

فكم نخسر حين نقدم هذه الأمور كلها كأنها وجدت من تلقاء نفسها، وهذا كذب علمى، وكم نكسب حين نقدمها مرتبطة بالخالق ـ سبحانه ـ الذى خلقها على هذا النحو لتتحقق إرادته فى خلق الإنسان:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: ٦١].

وخذ حقيقة أخرى من حقائق الكون:

كل الأجسام تتمدد بالحرارة وتنكمش بالبرودة، ماعدا الماء.. فإنه حين تشتد برودته حتى يتجمد يزداد حجمه ومن ثم تقل كثافته فيطفو.

ونحن نقدم هذه الحقيقة العلمية كأنها هى هكذا من تلقاء نفسها، مع مخالفتها الظاهرة لما يسمونه هم «قوانين الطبيعة»، التى يصفونها بأنها حتمية، وغير قابلة للمخالفة ولا التغيير! ومن ثم تبقى هذه الحقيقة فى ذهن المتلقى بغير تفسير.. وقد يعجب لها برهة ثم ينصرف إلى غيرها من حقائق الوجود.

كم تتغير الصورة، وكم يتغير الأثر فى نفس المتلقى حين نقول له إن هناك إرادة ربانية فى جعل الماء على هذه الصورة مخالفا كل الأجسام الأخرى، إذ لو كان الماء يتقلص عند البرودة وتزداد كثافته لهبط الجمد فى البحار والمحيطات التى تتجمد فى الشتاء إلى القاع، ولقتل فى طريقه كل الكائنات الحية التى يصادفها فى الطريق! أما وهو على هذه الصورة التى جبله الله عليها فإنه يطفو على السطح، فيتجمد السطح ويبقى الماء تحته سائلا، وتبقى الكائنات الحية محتفظة بكيانها تحت الجمد.. بإرادة من الله.

وعشرات من هذه الموافقات ومئات، نجدها عند البحث فى أسرار الكون وأسرار الحياة..

كم نخسر حين نقدمها باردة جافية باسم «البحث العلمى»، وكم نكسب حين نقدمها هى ذاتها - بكل الدقة العلمية الواجبة لها - مصحوبة بهذه الحقيقة العليا التى بدأ العلم الحديث ذاته يفىء إليها، وهى أن هناك خالقا مدبرا مريدا هو الذى جعلها على هذه الصورة التى هى عليها..

وكم ينمو الوجدان الدينى عند المتلقى حين نقدم له الحقائق الكونية على هذه الصورة دون أن نحتاج إلى كلمة وعظ واحدة فى الدرس كله، لأنها حقائق تهز الوجدان بذاتها هزا، وتفتح مغاليق القلوب والبصائر، فإن عمدنا بين الحين والحين إلى كلمة وعظ كانت النفوس مهيأة لاستقبالها، مستعدة للتأثر بها تأثرا لا تمحوه الأيام.

إن مراجعة المناهج الدراسية لتنقيتها من الروح العلمانية الجافية المنقولة من الغرب، هى واجب دينى، فى ذات الوقت الذى هى فيه واجب علمى.. سواء بسواء. وعندها لن يكون درس الدين رقعة فى ثوب علمانى كما هو اليوم، إنما سيكون الثوب كله متجانسا بعضه مع بعض:

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٣٨].

* * *

إذا كان هذا بالنسبة لدرس الدين فى مراحل الدراسة الابتدائية والاعدادية والثانوية، فالدراسة الشرعية المتخصصة على المستوى الجامعى والعالى تحتاج منا كذلك إلى كلمات . .

إن علم السلف كله ذخيرة ضرورية لطالب الدراسات الشرعية، ينهل منه بمقدار ما تمكنه استعداداته واجتهاده. ولكنه يحتاج - لكى يعيش عصره الحاضر - إلى بضع إضافات.

إن الشبهات التى كانت تثيرها الفرق القديمة فى مسائل العقيدة لم تعد كلها قائمة اليوم، أو لم تعد كلها قائمة بنفس الحدة التى كانت عليها يوم كانت تشكل فتنة تحتاج من العلماء أن ينفقوا جهدهم فى التصدى لها وكشف انحرافاتها، وفى الوقت ذاته قامت شبهات من نوع آخر، يثيرها العلمانيون اليوم، وأعداء الإسلام، تحتاج للتصدى لها، وبيان انحرافها، لأنها تشكل فتنة للناس فى الوقت الحاضر، منها ما يتعلق بالعقيدة، ومنها ما يتعلق بالشريعة الإسلامية والنظام الإسلامى، السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الفكرى، وتتخذ شكل مذاهب فكرية واجتماعية كلها تناوئ الإسلام فى حرب شرسة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ. فالاكتفاء بدراسة انحرافات الفرق القديمة وحدها، وترديدها، وإحياؤها بالنقاش معها، مع إغفال التيارات المعاصرة التى تعمل ضد الإسلام، وتعمل على فتنة الناس عن دينهم ليس من الحكمة فى شىء.

إنه لا بأس على المتخصص أن يدرس تاريخ الفرق، ومقولاتها، والردود عليها، على ألا تستغرق فكره وجهده، ليتفرغ للمعركة الحاضرة ويبلى فيها البلاء الحسن بتوفيق الله.

إن التتلمذ على الإمام أحمد مثلا أو على ابن تيمية لا يتم تمامه باستذكار القضايا التى خاضها كل منهما وأبلى فيها أروع البلاء، والوقوف عند ذلك، إنما يتم بتطبيق منهجهما على ما جد من قضايا فى وقتنا الحاضر.

إن عظمة ابن تيمية تتمثل - فى أحد جوانبها - فى أنه درس انحرافات عصره دراسة وافية ببصيرة نافذة وعقل متفتح، فاهتدى إلى مكان الخلل فيها، فسلط عليها ما وهبه الله من فكر نير، ففندها، وبين عوارها، وأعطى بدلا منها الفكر الإسلامى

الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، فكانت له ـ بتوفيق الله ـ الغلبة عليها، وإبطال مفعولها..

والتلمذ الصحيح على منهجه يقتضى أن ندرس اليوم المذاهب اللادينية الرائجة، من علمانية واشتراكية وعقلانية وواقعية «وتنويرية»، فنتعرف على محتوياتها، ونهتدى إلى مكامن الخلل فيها، فنسلط عليها الفكر الإسلامى الصحيح المستمد من الكتاب والسنة، فيكتب لنا ـ بتوفيق الله ـ الغلبة عليها، وإبطال مفعولها.

ومن ثم فإن طلبة أصول الدين يلزمهم التوسع فى هذا الجانب، وجعله جزءاً أساسيا من دراساتهم فى مجال العقيدة، حتى إذا خرجوا إلى واقع الحياة لم يكونوا غرباء على عصرهم، وكانوا مسلحين للمعركة التى يخوضونها من أجل العقيدة بأسلحة تناسب المعركة، لا بأسلحة صنعت من أجل معركة أخرى، ليست بالتأكيد هى معركة اليوم، أو ليست ـ على أقل تقدير ـ هى المعركة الرئيسية اليوم. فقد كانت الفرق القديمة ـ مع انحرافاتها ـ تزعم أنها هى التى تمثل الإسلام الصحيح، أما فرق اليوم فإنها تعادى الدين من أساسه، وتهدف إلى اقتلاعه من الجذور..

* * *

وأما طالب الفقه فهو محتاج أن يستوعب القواعد الفقهية والأصولية التى استنبطها علماؤنا الكبار القدامى، ومحتاج كذلك أن يرى كيف استخدموها فى حل المسائل الفقهية التى تناولوها بالدراسة، لا ليحفظها ويقف عندها، ولكن ليكتسب الملكة التى تمكنه من إعمال تلك القواعد فيما جد من أمور.. ولقد جد من الأمور الكثير!

إن طريقة الدراسة فى كثير من معاهدنا فى المشرق والمغرب تخرج حافظا جيداً، إذا سألته فى مسألة من الثوابت، أجاب، وأفاد. فإذا سألته عن متغيرات الحاضر توقف لأنه لم يكتسب الحاسة التى تواجه المستجدات. فإذا سألته عن تصوراته للمستقبل لم تجد عنده تصورا واضحا لما يجرى على الساحة العالمية، ومايتوقع من تأثير على مستقبل العالم الإسلامى، لأن تفكيره مشدود إلى الماضى لا إلى الحاضر أو المستقبل.

وحقيقة أن مشاكل الحاضر عويصة، بسبب تخلف الأمة الإسلامية عن مقتضيات إسلامها من جهة، والحرب الصليبية الصهيونية المشبوبة على الإسلام والمسلمين من جهة أخرى. وحقيقة كذلك أن بوادر المستقبل لم تظهر واضحة بعد، وأنه لا يتوقع من أى دارس للعلم الشرعى أن يفتى فى هذه الأمور بمجرد أنه درس العلوم الدينية، إنما يحتاج الأمر لكبار المفكرين والعلماء المجتهدين ليدلوا بدلوهم فى هذه الأمور.. كل هذا حق. ولكنه لا يصلح عذرا ولا ستارا لقصور الدراسات الشرعية الحالية عن أداء رسالتها، بسبب قيامها - فى الأغلب الأعم - على الحفظ والتلقين، لا على تربية الملكات.

لقد كان العالم فى الماضى يدرب تلاميذه على الخوض فى مشاكل عصره ودراسة أحوال الأمة من حوله، لذلك كان يتخرج على يد العالم علماء، فلا ينقطع الخيط.. وتظل الحياة عامرة بالمجتهدين والمجددين يتسلم بعضهم من بعض ليكمل الشوط. فلما ركدت الحياة الإسلامية بفعل عوامل شتى انقطع الخيط أو كاد.. والآن تحتاج الصحوة إلى العودة للنهج الأول، فتكون دراسة العلوم الشرعية مجالا لاكتساب الحاسة العلمية التى تواجه المشاكل وتخرج منها بحل، فتمتلئ الساحة بعلماء شرعيين مفكرين مجتهدين، يدلون بدلوهم فى قضايا الحاضر والمستقبل، عن علم ودراية ودراسة وتدبر، فلا يتركون الساحة خاوية ليملأها شذاذ الآفاق من العلمانيين وأعداء الإسلام، يصولون فيها ويجولون، ويزعمون لأنفسهم وللناس من حولهم أنهم هم المفكرون، وهم المنظرون، وهم أصحاب الأفق الواسع والرؤية الصائبة، بينما هم نسخ ممسوخة من فكر دخيل، بدأ أصحابه أنفسهم يتحولون عنه، بينما العبيد مازالوا يقلدون!

❊ ❊ ❊

أمور كثيرة يحتاج إليها درس الدين، لكى يعود إلى أداء رسالته الحقيقية فى حياة الناس.. ولن يحدث ذلك بطبيعة الحال دفعة واحدة، وقد يستغرق تمامه بضعة أجيال..

فلنبدأ على الأقل منذ الآن بالتفكير.. فالأمر يحتاج إلى كثير من التفكير..

(٢)

موقف أوربا من الدين

أسبابه ونتائجه، وانعكاساته على واقعنا المعاصر

كتب علماؤنا القدامى ما فيه الكفاية عما وقع من التحريف فى عقائد أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكانت كتاباتهم تواجه قوما يستمسكون بعقائدهم على الرغم مما وقع فيها من تحريف.

ونحن الآن نواجه حالة مختلفة، هى نفور أوربا من دينها، وانسلاخها منه، ومحاربتها إياه. ونحتاج أن ندرس القضية من زوايا أخرى غير التى درسها بها علماؤنا فى الماضى، لنتبين الأسباب التى دعت إلى هذه الحالة من النفور من الدين، والنتائج التى ترتبت عليها.

وما كان الأمر ليعنينا كثيرا لو أنه كان محصورا فى أوربا وحدها، بأسبابه ونتائجه، فأوربا حرة تفعل بدينها ما تشاء، وحسابها على الله يوم القيامة.

ولكن الأمر صار يعنينا بشدة لأننا - فى فترة الاستضعاف الحالية التى نمر بها - قد ابتلينا بمسوخ مشوهة، تنقل ما قالته أوربا فى دينها، فتقوله عن الإسلام، وتدعو - كما دعت أوربا - إلى الانسلاخ من الدين، أو فى القليل تحجيمه حتى يصبح علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا صلة لها بواقع الحياة!

لذلك صار من واجبنا أن نبين للناس - فى دراسة علمية رصينة مؤصلة - الأسباب التى أدت بأوربا إلى النفور من دينها، ومقاومته ومحاربته، وحصره فى أضيق نطاق، لكى نبين لهم أن ما حدث فى أوربا - لظروفها الخاصة - ليس من شأنه أن يحدث مع الإسلام، وأن ما قالته أوربا فى دينها لا يمكن أن يقال عن الإسلام، إلا

إذا كان الأمر - كما يقول المثل الشعبى - «كله عند العرب صابون!!» أى بلا تمييز بين نوع ونوع، وبلا إدراك لما بين نوع ونوع من الفروق!

* * *

لا نحتاج - فى دراستنا المطلوبة - أن نخوض كثيرا فى الانحرافات العقدية التى ذكرها علماؤنا القدامى، من تأليه للمسيح عليه السلام وادعاء بنوته لله . . فقد وفى علماؤنا الحديث فيها، وبخاصة ابن تيمية رحمه الله فى كتابه «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح». إنما نحتاج إلى دراسة جوانب أخرى من الموضوع تتصل بالحالة التى استجدت فى أوربا منذ عصر النهضة، وهى النفور من ذلك الدين، والانسلاخ منه، ومحاربته.

وكثير من هذه الجوانب قد أشار إليها الأوربيون أنفسهم، فيحسن بالباحث أن يرجع إليها، ويستخرج الشواهد من فم أهلها، فتكون أوقع فى الحس، وأصدق فى التعبير. وقد كتب المؤرخون الغربيون عن تاريخ كنيستهم، وهى موضع التركيز فى الدراسة المطلوبة، ما يكفى أى باحث يريد أن يصل إلى الحقيقة التاريخية، ويستنبط منها ما أدت إليه من النتائج فى واقع أوربا المعاصر . .

* * *

لم يكن الانحراف العقدى هو الانحراف الوحيدالذى وقع فى الدين المنزل من عند الله. إنما وقع انحراف آخر لا يقل عنه خطورة، ولا أثرًا فى سير الأحداث فى التاريخ الأوربى، ذلك هو فصل العقيدة عن الشريعة، وتقديم الدين على أنه عقيدة فحسب، أو عقيدة و«نصائح» أخلاقية على أحسن تقدير!

إن كل رسالة سماوية نزلت من عند الله كانت عقيدة وشعيرة وشريعة . . وبصفة خاصة الرسالات الثلاث الأخيرة: اليهودية والنصرانية والإسلام.

وكون التوراة تحمل تشريعات لبنى إسرائيل أمر أوضح من أن يشار إليه، فهو معروف للناس كافة.

وكون المسيح عليه السلام قد أرسل لبنى إسرائيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة: ٤٦] مع تعديلات أنزلها الله بحكمته فى الإنجيل، أمر معروف

كذلك للناس كافة. وعلى ذلك تكون الشريعة الواجبة التطبيق عند النصارى هى شريعة موسى عليه السلام مع التعديلات التى أنزلها الله فى الإنجيل.

أما القرآن وما أنزل الله فيه من الشرائع فغنى عن البيان.

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[1] (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [سورة المائدة: ٤٤ - ٥٠].

وفى هذه الآيات بيان واضح بأن النصارى لهم شرعة (أى شريعة) عليهم أن يطبقوها فى واقع حياتهم. ولكن الظروف التى مرت بها النصرانية فى قرونها الثلاثة الأولى وجزء من القرن الرابع لم تمكن النصارى من تطبيق شريعتهم، فقد كانت فلسطين - مهد الدعوة - جزءا من الإمبراطورية الرومانية خاضعًا لأحكامها، وكان

---

(١) ليس هذا حصرا للشرائع الواردة فى التوراة، إنما هو بيان لواحد منها.

النصارى مستضعفين مطاردين مشردين غير ممكنين فى الأرض، فلم يكن فى وسعهم تطبيق شريعتهم . .

وهناك فرق ولا شك بين عدم إمكان التطبيق، وبين عدم وجود تشريع ملزم بالتطبيق . . فالتشريع كان موجودا سواء فى التوراة أو فى الانجيل، أما التطبيق فكان مرهونا بالظروف.

ولكن نقطة العجب فى التاريخ الكنسى أنه حين مُكِّن للنصرانية بعد اعتناق قسطنطين لها، وفرضه إياها دينا رسميا للإمبراطورية الرومانية، وتزايد سلطان الكنيسة حتى غدت هى التى تنصب الأباطرة وتعزلهم . . لم تَسْعَ الكنيسة إلى تحكيم الشريعة المنزلة، فبقيت نصائح أخلاقية يلتزم بها الأتقياء التزاما صارما، ولكنها لا تتحول إلى أحكام ملزمة فى واقع الحياة.

وأيا كانت الأسباب التى أدت إلى تصرف الكنيسة الأوربية على هذا النحو، فقد ترتبت على هذا التصرف نتائج خطيرة فيما بعد، كان لها أثرها فيما تلا ذلك من النفور من الدين منذ عصر النهضة.

إن الدين الذى يكون عقيدة فحسب - أى صلة روحية بين العبد ومولاه - يتحول حملته ودعاته إلى كهنة، ويصبح هؤلاء - مع تمكن العقيدة من القلوب - وسطاء بين العبد والرب، لهم فى نظر الناس قداسة، ولهم على أرواح الناس نفوذ . .

وقد كان . .

وصار فى النصرانية «رجال دين»، وصار رجال الدين كهنة يلبسون مسوحا خاصة تميزهم عن بقية الناس، وصار لهم على قلوب الناس سلطان . .

والسلطان يغرى بالطغيان . . !

وقد كان!

وبدأ نفوذ رجال الدين يتزايد، ويُخْضع لسلطانه مجالا من مجالات الحياة إثر مجال، حتى صارت مجالات الحياة كلها فى النهاية خاضعة لنفوذ رجال الدين . .

وهنا نقطة لابد من بيانها . ففى الحياة السوية المستقيمة ينبغى أن تكون مجالات

الحياة كلها خاضعة لأمر الله، المتمثل فى دينه المنزل، وليست خاضعة لأشخاص بأعيانهم، إلا فى حدود ما يلتزم هؤلاء الأشخاص أنفسهم بما أنزل الله. يقول سبحانه وتعالى مخاطبا المؤمنين بدينه فى كتابه المنزل:

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [سورة النساء: ٥٩].

وظاهر من نص الآية أن الطاعة المطلقة هى لله والرسول - ﷺ - أى لما أنزل الله. وأن طاعة أولى الأمر مرهونة بطاعتهم هم لله والرسول، بدليل رد الأمر - عند التنازع - لله والرسول وحدهما دون سواهما. وعندئذ يكون خضوع المؤمنين فى حقيقته هو خضوع لما أنزل الله سواء فى العقيدة أو الشعيرة أو الشريعة، وهو خضوع يسرى على الحاكم والمحكوم بالسوية وبلا تفريق.

ولكن الذى جرى بالفعل فى الحياة الأوربية أن «رجال الدين» وعلى رأسهم «قداسة البابا» فرضوا الطاعة لذواتهم - ولأهوائهم - ولم يفرضوها لشريعة الله، فحرموا الختان الذى ألزم الله به عباده، وأباحوا الخمر والخنزير اللذين حرمهما الله! وأطاعهم الناس - لقداستهم، وعظم سلطانهم - فقال الله فيهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة: ٣١].

ويهمنا فى هذا المجال تتبع المجالات التى تطرق إليها نفوذ رجال الدين فاحتواها، لنتتبع بعد ذلك أسباب نفور أوربا من دينها فى نهاية المطاف.

١ - الطغيان الروحى:

كل وساطة بين العبد والرب هى لون من الطغيان الروحى، مفسد للعقيدة، لأن الوسيط يتضخم فى حس العابد حتى يصبح فى النهاية شريكا لله فى العبادة. ولهذا ينص الدين المنزل على إلغاء كل وساطة بين العبد والرب، سواء كانت وساطة الجن أو الملائكة أو الأصنام أو الكهنة أو كائن من كان. ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

فإذا انسدت الطرق بين العبد وربه إلا عن طريق الكاهن . . فلا يصبح نصرانيا - حين يولد - إلا إذا عمده الكاهن ، ولا يموت موتا شرعيا إلا إذا صلى عليه الكاهن ، ولا يستغفر لذنبه إلا بين يدى الكاهن ، ولا يصل إليه غفران الرب إلا عن طريق الكاهن . . إذا حدث ذلك فقد وقع الفساد فى العقيدة من ناحية ، ووقع الطغيان الروحى من ناحية أخرى ، حين يصبح رضا الكاهن هو الوسيلة لرضا الله ، وغضب الكاهن علامة أو - على الأقل - نذيرا بغضب الله !

٢ - الطغيان المالى:

حين صار لرجال الدين هذا النفوذ على قلوب الناس وأرواحهم - باعتبارهم هم الوسطاء بين العباد وربهم - بدأ السلطان يطغيهم فطمعوا فى أموال الناس . ففرضوا عليهم عشور أموالهم تؤدى للكنيسة رغبًا ورهبًا ، لا لتنفق على الفقراء والمساكين ، ولكن ليكتنزها رجال الدين لأنفسهم كما قال عنهم رب العالمين :

﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**[1] **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [سورة التوبة : ٣٤] .

ثم فرضوا الهبات والإتاوات على الأغنياء ، بينما فرضوا على الفقراء العمل سخرةً بغير مقابل فى حقول الكنيسة يوم الأحد من كل أسبوع ، فى الوقت الذى كان يفترض أن يستجموا فيه من العمل الشاق طوال الأسبوع فى حقول الإقطاعيين مقابل لقمة الخبز .

٣ - الطغيان العقلى:

آمن ولا تناقش ! والنقاش هرطقة تخرج الإنسان من الدين ، وتعرضه للحرمان . . وإذا حَرَمَه البابا أو الكاهن فى الأرض ، فقد حُرِم من رحمة الله فى

---

(١) بسلوكهم المنحرف .

السماء! وليس مسموحا للإنسان أن يفكر إلا فى حدود ما تسمح به الكنيسة، وعلى النهج الذى تسمح به. . فإذا تجاوز الحدود، أو غير النهج فالويل له. . ولا يلومن إلا نفسه!

وهنا شبهة يستغلها العلمانيون والتنويريون، ليقولوا إن الدين كله دين (على طريقة: كله عند العرب صابون!).

فكل دين فيه مسلمات لا تخضع للنقاش العقلى، إنما يسلم بها الراسخون فى العلم مادامت منزلة من عند الله:

﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ**[1] **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. .

ولكن أصول العقيدة فى الإسلام مفتوحة لتدبر العقل البشرى ليس فيها «أسرار» يختص بمعرفتها أو تفسيرها أشخاص معينون. بل إن العقل مدعو دعوة صريحة للتفكر والتدبر فيها، حتى تستقر فى نفس الإنسان إلى درجة اليقين الجازم الذى لا قلقلة فيه.

العقيدة هى: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

والعقل مدعو للتفكر فى كلتا الحقيقتين. . فى الأولى بالنظر فى ملكوت السموات والأرض، والنظر فى الآلهة المزعومة من دون الله! وهل لها أى مشاركة فى الخلق أو التدبير أو الضر أو النفع أو الإحياء أو الإماتة أو الرزق أو أى شأن من الشئون؟ وفى الثانية بالنظر فى كلام الله الذى يتلوه النبى - ﷺ -: هل فى طوق أحد من البشر أن يأتى بمثله؟

فإذا فكر الإنسان - ما وسعه التفكير - فى القضية الأولى فاستيقن أنه لا إله إلا الله، وفى الثانية فاستيقن أن محمداً - ﷺ - رسول مرسل من عند الله، لا ينطق عن

---

(١) أى لا يعلم حقيقته إلا الله.

الهوى، إنما ينطق عن وحى يوحى، فلا يحق له بعد ذلك - عقلاً - أن يسلم ببعض ما جاء به محمد - ﷺ - وينكر بعضه بحجة أن عقله لا يستسيغه، بينما العقل لا يملك دليلا قطعيا ينفى به الوحى الربانى، إلا تهيآته الخاصة، وأوهامه - أو أهوائه - الخاصة، وهذه لا تعتبر دليلا فى منطق العقل ذاته!

أما مسلمات الكنيسة فلم تكن كذلك! إنما كانت قضايا تعجز الكنيسة ذاتها عن إثباتها، فتغلفها بالأسرار وتحجر على العقل أن يفكر فيها، تحت طائلة العقاب بالحرمان! كقضية التثليث، وبنوة عيسى عليه السلام لله، وقضية الخطيئة والفداء، وقضية تحول الخبز والخمر فى العشاء الربانى إلى جسم المسيح ودمه، وتجدد الصلة بالمسيح عن طريق تناول الخبز والخمر فى ذلك العشاء.. وكقضية عصمة البابا (فى الكثلكة) وحقه فى تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله (الذى يسمى عندهم حق التحلة) وحقه فى غفران الذنوب[1] ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾؟! [سورة آل عمران: ١٣٥].

وكان الحجر على العقل أن يفكر فى مقولات الكنيسة من أعظم الأسباب التى أدت فيما بعد إلى الثورة على مقولاتها كلها، حتى ما كان منها حقا لا يجوز التمرد عليه ولا الشك فيه، كوجود الله ذاته!

٤ - الطغيان السياسى:

زعم البابا لنفسه حقًا إلهيا مقدسا فى حكم الناس جميعا، حكاما ومحكومين. وأن هذا الحق تلقاه الباباوات عن بطرس، الذى تلقاه بدوره عن الرب (يقصدون عيسى ابن مريم عليه السلام).

أصدر البابا «نقولا الأول» بيانا قال فيه:

«إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها. وإن أساقفة

---

(١) تعطف البابا فأصدر عفوا عن «ديانا» وما ارتكبته فى حياتها الماجنة من خطايا، فأمست مغفورا لها بأمر البابا!!

روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل، ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين، حكاما كانوا أو محكومين»[١].

وهذه هى الحكومة «الثيوقراطية» التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى، ثم نفرت منها ودمرت سلطانها فى عصر النهضة حين فصلت الدين عن الدولة، وخصصت للدين - الذى يمثله البابا - «السلطة الروحية» بينما استقل الأباطرة بالسلطة السياسية بعيدا عن سلطان الدين.

وهنا وقفة ضرورية تبين الخلط الذى يقع فيه العلمانيون وأضرابهم - الذين لا يميزون بين صابون وصابون! والذين يصفون الحكومة الإسلامية بأنها حكومة ثيوقراطية لينفروا الناس منها، حين يذكرون لهم الفظائع التى ارتكبتها الكنيسة أثناء ممارستها الحكم الثيوقراطى فى العصور الوسطى، والتى كان أبشعها محاكم التفتيش التى سنتكلم عنها بعد قليل.

إن المفروض فى الحياة السوية التى أمر الله بإقامتها فى الأرض ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أن يكون «الدين» - أى الشريعة الربانية - هو الحاكم فى حياة الناس:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة الحديد: ٢٥].

ولكن الذى قام فى أوربا فى عصورها الوسطى المظلمة لم يكن حكم «الدين»، فالشريعة الربانية لم تحكم أوربا قط، إنما كان حكم «رجال الدين». وهذا هو الذى وقعت فيه الشناعات والفظائع، بسبب طغيان رجال الدين لا بسبب الدين (الذى لم يمارس فى التشريع قط). إنما جاء اللبس عندهم - الذى نفرهم من الدين وحكمه - من أن رجال الدين هناك ارتكبوا ما ارتكبوا من الفظائع باسم الدين. وحين يكون الإنسان فى وعيه، ويكون عقلانيا وتنويريا فيجب عليه أن يفرق بين الادعاء والحقيقة. فادعاء رجال الدين هناك أنهم يحكمون باسم الدين شىء، وحكم الدين الحقيقى شىء آخر. وفى الواقع الإسلامى كان أعلى حكم عرفته البشرية فى

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٤ ص ٣٥٢ من الترجمة العربية لعبد العزيز جاويد، طبع القاهرة.

تاريخها كله - وهو حكم الخلفاء الراشدين - هو «حكم الدين» أى الحكم الذى طبقت فيه الشريعة الربانية على أعلى مستويات التطبيق التى عرفها البشر فى التاريخ.

وإذا كان المسلمون قد هبطوا عن ذلك المستوى الرفيع فى مسيرتهم التاريخية فالهبوط لم يكن فى جميع المجالات أو جميع الميادين، وظل تطبيق الشريعة فى المجالات التى طبقت فيها - وهى كثيرة - حائلا دون وقوع كثير من المظالم والفظائع التى ارتكبها الحكم الثيوقراطى فى أوربا، الذى كان هو حكم «رجال الدين» وليس حكم الدين. ذلك أنه - بادئ ذى بدء - ليس فى الإسلام كنيسة ولا رجال دين. إنما هناك علماء وفقهاء يجتهدون لبيان الطريقة الصحيحة لتطبيق الشريعة مع ما يجد فى حياة الناس من أمور. ولكنهم لا يمثلون هيئة «إكليريكية»، ولا يتسلمون الحكم بأنفسهم، بل أكثرهم رفض المناصب الرسمية وابتعد عنها تعففا، ونأيا بأنفسهم عن مظنة الوقوع تحت تأثير السلطة الحاكمة. وكان الحكام - الذين لا يمكن وصفهم بأى حال من الأحوال بأنهم «رجال الدين» - يعدلون أو يجورون بمقدار قربهم أو بعدهم من اجتهادات العلماء والفقهاء، الذين لا يزعمون لأنفسهم مع ذلك عصمة ولا وكالة عن الله فى الأرض، وتظل اجتهاداتهم مفتوحة للنقاش، ممن يملك الأدوات الصحيحة للنقاش، ومن ثم اختلفت المذاهب الفقهية دون فزع من الخلاف، ودون محاكم تفتيش للمخالفين!

ما أبعد الشقة بين الحكم الإسلامى الذى تطبق فيه الشريعة، وبين الحكومة الثيوقراطية التى شهدتها أوربا فى عصورها الوسطى المظلمة. وإذا كان الناس فى أوربا - وهم فارون من فظائع الكنيسة ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [سورة المدثر ٥٠، ٥١] - لم يتوقفوا ليميزوا بين الحق والباطل (لأنهم لم يعرفوا الحق ولم يتذوقوه) فمن العار على العلمانيين وأضرابهم أن يقلدوهم فى فرارهم وعدم تمييزهم، ودينهم مختلف عن ذلك الدين، وتاريخهم مختلف عن ذلك التاريخ!

٥ - الطغيان العلمى:

قد يكون هذا - مع محاكم التفتيش التى استخدمت فيه - هو القشة التى قصمت ظهر البعير! فإن الفظاظة الوحشية التى استخدمتها الكنيسة فى معاملة العلماء الذين

قالوا بكروية الأرض، وأنها ليست مركز الكون، كانت من البشاعة بحيث لا يمكن تبريرها تحت أى مبرر[١]، ولا يمكن أن يظل مرتكبوها موضع الاحترام والاتباع، فضلا عن التقديس الذى كان لهم من قبل.. وفى المراجع الأوربية وصف مفصل لتلك الوحشية البشعة فى معاملة العلماء.

لم يكن يتوقع مع هذا الطغيان المتزايد الذى يحيط الحياة الأوربية من كل جانب، أن يظل نفوذ رجال الدين قائمًا فى النفوس إلى الأبد..

فإذا أضفنا إلى ذلك الطغيان فساد أخلاق كثير من رجال الدين، وفضائح الأديرة التى انقلبت مباءة للفواحش، ومهزلة صكوك الغفران، ثم وقوف الكنيسة ضد حركات الإصلاح التى قامت فى وجه الإقطاع، ومساندتها للظلم الواقع على الفلاحين من رجال الإقطاع، ومحاولتها تخديرهم بموعود الجنة ليرضوا بما يقع عليهم من الظلم، على أساس أن من خدم سيدين فى الدنيا خير ممن خدم سيدا واحدًا[٢]..

وإذا أضفنا كذلك أن الدين صار فى ممارسته الواقعية دينا أخرويا لا يحفل بالحياة الدنيا ولا عمارة الأرض.. دينا يحارب العلم، ويحقر الإنسان، ويدعو إلى إهانة الجسد وكبت نشاطه من أجل خلاص الروح، ويدعو إلى الثبات فى كل شىء وينكر التطور فى أى أمر من الأمور[٣]..

إذا أضفنا هذه الأمور كلها إلى الطغيان الفظ الذى مارسه رجال الدين، فقد كان الأمر الوحيد المتوقع أن يثور الناس على هذا الدين، وينفروا منه، ويدعوا إلى التمرد عليه وعلى ممثليه من رجال الدين..

---

(١) سنذكر فى فصل قادم أن جزءا من هذه الفظاظة كان مقصودًا به وقف المد الإسلامى المتوغل فى أوربا مع انتشار العلوم الإسلامية.

(٢) تكلمنا بشىء من التفصيل عن هذه الأمور فى فصل دور الكنيسة من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة». والمطلوب من الدارسين المسلمين التوسع فى ذكرها.

(٣) تكلمنا كذلك بشىء من التفصيل عن هذه النقاط فى كتاب «حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية» والمطلوب دراسات موسعة فى هذا المجال.

ولكن العجب أن الناس لم يثوروا على هذا الظلم كله، بل لم يحسوا أنه ظلام وظلم إلا حين احتكوا بالإسلام!

والكتاب الأوربيون فى عمومهم - إلا القلة النادرة منهم - يكرهون أن يعترفوا بأثر الإسلام فى إخراج أوربا من ظلماتها التى كانت تعيش فيها فى قرونها الوسطى، ولكن القلة منهم التى تخلصت من تعصبها قد قررت بالدليل الذى لا يحتمل الشك أن الإسلام هو الذى أيقظ أوربا من سباتها حين دخل إليها من معابره الثلاثة: الحروب الصليبية، والعلاقات التجارية، والتتلمذ على الثقافة والعلم الإسلامى فى الأندلس، وصقلية الإسلامية، وبلاد المغرب والمشرق.. ورويدا رويدا تطالعنا أبحاث ودراسات يقوم بها كتاب غربيون، تؤكد هذه الحقيقة: حقيقة تأثر أوربا بالحضارة الإسلامية فى بدء نهضتها. وسوف نفرد فصلا من هذا الكتيب للحديث عن هذه القضية بعنوان «التأثير الإسلامى على أوربا فى عصر النهضة» ندعو فيه المؤرخين المسلمين إلى الدراسة الموسعة فى هذه القضية الهامة.

ولكنا هنا نشير إلى بعض النقاط..

إذا كان كتاب غربيون قد أقروا بأن الإسلام هو الذى أخرج أوربا من ظلماتها، فأى عار يلحق بالعلمانيين وأضرابهم ممن يحملون أسماءً إسلامية أن يكونوا أقل إنصافًا لدينهم من بعض الغربيين أنفسهم، فيتبعوا الفريق الذى ينكر أثر الإسلام، ويزعم أن التراث اليونانى هو الأول والأخير، وهو وحده مبعث النور، وأن النهضة الأوربية ما أحدثها إلا رجوع أوربا إلى تراثها اليونانى؟!

وى؟!

أو لم يكن هذا التراث نفسه قد مات فى أوربا ذاتها وعجز عن الاحتفاظ بالحياة لنفسه، فضلا عن أن يكون عاملا فى إحياء غيره؟! فما الذى جعل أوربا تصحو من سباتها وتعود تفتش عن ذلك التراث وتعمل على إحيائه، حتى لو سلمنا جدلا أن ذلك التراث كان هو عماد النهضة الأوربية؟!

أو ليس البحث عن التراث اليونانى قد حدث بعد اليقظة؟! فما الذى بعث اليقظة فى النائمين؟!

إنه ـ ببساطة ـ الاحتكاك بالإسلام، من خلال المعابر الثلاثة التى دخل منها التأثير الإسلامى إلى أوربا.

النقطة الثانية أن المنهج التجريبى فى البحث العلمى ـ الذى هو أساس كل التقدم الحالى فى مجال العلم ـ لم يكن يونانيا بالتأكيد، باعتراف كل الكتاب الغربيين حتى المتعصبين منهم، إنما كان إسلاميا، أو كان ـ فى لغة المتعصبين الذين يكرهون ذكر الإسلام باسمه ـ منهجا ابتدعه «العرب» وتتلمذت عليه أوربا فى نهضتها، ويكفى شهادة على ذلك أن «روجر بيكون» رائد المنهج التجريبى بالنسبة لأوربا كان يقول: «من أراد العلم فليتعلم العربية، فإنها لغة العلم»! وكان هو ذاته تلميذا مخلصا للجهد الإسلامى ـ العربى ـ فى مجال العلوم.

فأى عار يلحق بالعلمانيين وأضرابهم ـ ممن يحملون أسماء إسلامية ـ حين لا يميزون فى تفكيرهم بين الدين الذى كان أهله يحاربون العلم ويحرقون العلماء، وبين الدين الذى يحث على طلب العلم، ويبرز المنهج الصحيح للبحث العلمى؟!

وهذا يصل بنا إلى النقطة الثالثة ـ والأخيرة فى هذا البحث ـ وهى انعكاسات الموقف الأوربى من الدين على واقعنا المعاصر..

كيف وجد عندنا هذا المسخ المشوه الذى لا يُعْملُ عقله فيما بين يديه من الوقائع، وينقل ـ بحماسة ـ أقوال غيره، فيضعها فى غير موضعها، ويشوه بها حقائق التاريخ؟

إن ولع المغلوب بتقليد الغالب أمر معروف.. وقد أشار إليه ابن خلدون فى مقدمته إشارة واضحة. ولكن يبقى السؤال: كيف صارت الأمة الإسلامية فى مقام المغلوب بعد أن كانت فى مقام الغالب، وكانت أوربا ـ فى بدء نهضتها ـ تسعى إلى تقليدها؟!

لا أحد يحمل وزر ذلك إلا الأمة الإسلامية ذاتها، التى فرطت فى دينها، وأهملته، وتقاعست عن تكاليفه، حتى صارت غثاء كغثاء السيل، كما أخبر الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ قبل نيف وأربعة عشر قرنا حين قال: يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله المهابة من

صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وفى مقدمة الغثاء ذلك المسخ المشوه من العلمانيين وأضرابهم، الذين يقولون فى الإسلام ما قالته أوربا فى دينها الذى اضطرت إلى التخلى عنه فى نهاية المطاف.

الأمة فى مجموعها مسئولة عن صيرورتها إلى ذلك الغثاء.. وهى التى أخرجها الله لتكون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ولتكون شاهدا على كل البشرية:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

وحين صارت غثاء كغثاء السيل جاء الأعداء من كل صوب، يتداعون على الأمة (أى يدعو بعضهم بعضا) فنالها من أذاهم ما نالها... وكان أشد ما نالها فقدانها لذاتيتها المتميزة، وانبهام شخصيتها، وضياعها فى التيه، كما ينساق الغثاء مع السيل، لا يملك أمر نفسه، ولا يستطيع حتى أن يقف مكانه، لأنه بلا جذور..

وهكذا صارت الأمة مغلوبة بعد أن كانت غالبة، مقهورة بعد أن كانت هى القاهرة.

ولكنها بدأت الآن تصحو..

وصحيح أنها بدأت تصحو حين اصطدمت بالتفوق الأوربى فى جميع المجالات التى كانت قد تخلفت فيها فى فترة الركود، على نفس الصورة التى صحت فيها أوربا حين احتكت بالعالم الإسلامى، فأدركت مدى تخلفها، ومدى الظلام الذى كانت غارقة فيه دون أن تحس أنه ظلام..

ولكن يبقى فارق أساسى بين الحالتين، لا يجوز أن يخدعنا عنه التشابه الظاهرى بينهما.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

يبقى أن الظلام الذى كانت تعيشه أوربا، والذى نفضته عنها فى نهضتها كان سببه الدين الذى اعتنقته، والرجال الذين حملوا ذلك الدين. أما الظلام الذى كان يعيشه العالم الإسلامى، والذى يحاول الآن أن ينفضه عنه، فقد كان سببه التقصير فى حق الدين، والتقاعس عن أداء تكاليفه، وممارسته تقاليد خاوية من الروح..

هذا الفارق الضخم يشكل مفرق الطريق!

فقد كان العلاج بالنسبة لأوربا أن تنبذ دينها وتنسلخ منه، أو فى القليل تحجم دوره فى حياتها، وتبحث عن بديل آخر تستمد منه عناصر قوتها..

أما العلاج بالنسبة للعالم الإسلامى فهو أن ينبذ التقصير الذى قصره فى حق دينه، وينشط إلى أداء تكاليفه التى تقاعس عنها، ويمارسه روحا حقيقية لا مجرد تقاليد..

وهناك حقيقة تاريخية ينبغى أن نلم بها فى هذا المجال، يكاد يطمرها التعتيم الإعلامى المقصود على الإسلام ودوره فى نهضة أوربا، وهى أن أوربا - كما شهد المؤرخ البريطانى ويلز فى كتاب «معالم تاريخ الإنسانية» - كانت وشيكة أن تدخل فى الإسلام، نتيجة تعرفها عليه من خلال المعابر الثلاثة التى أشرنا إليها آنفا، فقامت الكنيسة تقاوم المد الإسلامى بكل ما تملك من الوسائل، بما فيها محاكم التفتيش، وإحراق العلماء الذين كانوا ينشرون العلم الإسلامى، مما ستعاود الاشارة إليه فى فصل «التأثير الإسلامى».

فلما انسد أمام أوربا طريق الإصلاح الحقيقى، بإبعادها عن الإسلام، وكانت فى الوقت ذاته قد نبذت دينها أو حجمته بحيث لا يتدخل فى أمور الحياة الواقعية: السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفكرية، رجعت أوربا إلى تراثها اليونانى تستمد منه مقومات تسند بها نهضتها.. وذلك قبل أن تبدأ السيطرة اليهودية على الحياة الأوربية منذ الثورة الفرنسية، تلك السيطرة التى تعمقت فى حياة أوربا فى القرن التاسع عشر، ثم بلغت أوجها فى القرن العشرين، فى جميع مجالات الفكر، وجميع مجالات السلوك، شاملة الفكر الرأسمالى والاشتراكى معًا، والانحلال الخلقى، والفوضى الجنسية، وجنون الكرة، وجنون الرقص، وجنون

«الموضة» وجنون السرعة، وكل أنواع الجنون المتفشية فى مجتمعات اليوم.. إلى جانب الخمر والمخدرات والجريمة، وكل أنواع الفساد!

هذا الدرس المتعلق بالأسباب التى أدت بأوربا إلى النفور من الدين، وكونها ناشئة من ظروف أوربية بحتة، وكون الأمر مختلفا تماما بالنسبة للإسلام، وبالنسبة للواقع التاريخى للأمة الإسلامية.. هذا الدرس حرى أن يتعمق مفكرو الصحوة الإسلامية فى دراسته، وبيانه للناس، لإزالة كثير من الغبش الذى يحبط بالأفهام، والذى تغذيه مناهج التعليم التى وضعها الاستعمار فى العالم الإسلامى، ووسائل الإعلام التى لا تفتأ تتسابق فى نقل الفساد الموجود فى إعلام الغرب، وتزيد عليه أحيانا من عندها لتنفى عن نفسها تهمة التخلف، وتلبس آخر أزياء «الحداثة» لعل الغرب القاهر يسمح لها بالوقوف معه ولو فى ذيل قافلته، ويومئ إليها إيماءة الرضا ولو من بعيد.

ولا نحتاج فى هذا الصدد أن نزيف حرفا واحدا من التاريخ، سواء التاريخ الماضى أو التاريخ الحاضر.. إنما ندرسه بالأمانة التى أوجبها الله على المسلم:

﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ** ﴾ [سورة النساء: ١٣٥].

أما الذين انطمست بصيرتهم وبهرهم الضوء الزائف فلا نملك لهم إلا أن ندعو الله لهم أن يخرجهم من ظلمات التيه، ويهديهم إلى سبيل الرشاد..

(٣)

هل تطورت العقيدة خلال التاريخ؟

يعتبر «العالم» الإسكتلندى السير «جيمس فريزر Sir James Frazer» مؤلف كتاب «الغصن الذهبى The Golden Bough» والذى عاش ما بين عامى ١٨٥٤ و١٩٤١م أحد المسئولين الرئيسيين عن فكرة تطور العقيدة خلال التاريخ، وفكرة تقسيم التاريخ البشرى إلى ثلاث مراحل: مرحلة السحر، ومرحلة الدين، ومرحلة العلم، كل مرحلة تلغى ما قبلها: فالدين ألغى السحر، والعلم يلغى الدين!

كان فريزر يبحث فى علم السلالات البشرية Anthropology، ودرس أحوال القبائل المتأخرة فى أفريقيا وآسيا دراسة دقيقة مبنية على المشاهدة والملاحظة، ودون مشاهداته وملاحظاته مشفوعة باستنتاجاته التى خرج منها بهاتين الفكرتين: فكرة تطور العقيدة، وفكرة انتقال البشرية من مرحلة السحر إلى مرحلة التدين إلى مرحلة العلم (وهى المحطة الأخيرة التى تلغى ما قبلها من خرافات!).

ولا شك أن فريزر لم يكن وحده فى هذا الميدان.. ففكرة التطور فى كل شىء كان يحمل لواءها دارون، وفكرة الانتقال من طور إلى طور فى قضية الدين، التى تنتهى بإلغائه، اشترك فيها اليهود الثلاثة ماركس وفرويد ودوركايم، كل بطريقته الخاصة، سواء أخذوا من فريزر ودارون (كما فعل ماركس وفرويد) أو استقلوا بفكر خاص (كما استقل دوركايم بفكرة القطيع البشرى التى سماها «العقل الجمعى[١]»). وكانت هذه الأفكار فى مجموعها (أفكار دارون وفريزر وماركس وفرويد ودوركايم) هى العمد الرئيسية فى الفكر الأوربى خلال النصف الثانى من

---

(١) لم يكن استقلاله كاملا، ففكرة القطيع البشرى مستمدة من التفسير الحيوانى للإنسان، الذى ابتدعه دارون، وتبناه اليهود الثلاثة، كل فى مجاله الخاص.

القرن التاسع عشر والقرن العشرين، حيث ارتفعت موجة التهجم على الدين إلى ذروتها، واشتدت المطالبة بإلغائه من واقع الحياة، أو فى القليل تحجيمه بحيث يصبح - على أكثر تقدير - علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا صلة لها بواقع الحياة.

فأما فكرة تطور العقيدة فتقول إن «العبادة» قد تطورت خلال التاريخ، من عبادة الأب، إلى عبادة الطوطم (وهو حيوان أو طائر تقدسه القبيلة، وتعتقد أن نسبها ينتهى إليه وتحرم ذبحه أو صيده، إلا فى مناسبات - دينية - معينة، يذبح فيها الحيوان أو الطائر، ويشرب دمه ويؤكل لحمه لتجديد الصلة بين أفراد القبيلة ومعبودها)، ثم عبادة قوى الطبيعة من مطر وريح، وبرق ورعد، ثم عبادة الأفلاك من شمس وقمر ونجوم، إلى عبادة الأصنام (التى يعتقد عبّادها أن أرواحا معينة تحل فى داخلها)، إلى الديانات السماوية التى هى فى أصولها ديانات توحيد، تعبد إلها علويا لا تدركه الأبصار.

وأما فكرة الأطوار الثلاثة التى مرت بها البشرية فتقول إن الدين - بأطواره المتعددة - لم يكن أول شىء عاشت به البشرية أو عاشت فى ظله. إنما كان الذى يسيطر على حياة الناس هو السحر، الذى يفترض اختصاص أشخاص معينين بقوى خارقة يستطيعون بها الإحياء والإماتة، والضر والنفع، والإصابة بالأمراض والشفاءمنها، والتأثير فى قوى الطبيعة فترسل الريح أو تنزل المطر أو تفتح السبل أمام الناس أو تغلقها.. ومن ثم يتوجه إليهم الناس بالخوف والرهبة، والتطلع والرجاء ويكون لهم على الناس سلطان كبير..

ثم ينتهى هذا الطور (لسبب ما!) وتبدأ مرحلة التدين، فتتحول الطقوس الخاصة بالسحر إلى طقوس تعبدية تقدم للإله (أو الآلهة المعبودة) وتكون المعبودات على هذا التوالى الذى سبق ذكره: الأب فالطوطم فقوى الطبيعة فالأفلاك فالأصنام، فالإله الذى فى السماء، الذى لا تدركه الأبصار..

وتظل البشرية فى هذا الطور، المتسم بالجهل وبالعجز عن السيطرة على الطبيعة، إلى أن يتقدم العلم فيزيح الجهل، ويتمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة فيزول الباعث على التدين، ويصبح العلم هو الذى يقود الحياة بدلا من الدين.

ولن نناقش فريزر فى مشاهداته، بل نفترض فيها الدقة فى الملاحظة، والصدق فى تسجيل ما شاهد من أحوال القبائل البدائية التى وجدها فى أفريقيا وآسيا. ولكنا سنناقش استنتاجاته، والأدلة التى استخدمها فى الاستنباط، وهى - بطبيعة الحال - ليست فوق مستوى النقد، وليست فوق مستوى الشبهات!

لقد افترض فريزر أن ما يراه من أحوال القبائل البدائية يمثل طورا من أطوار البشرية، عاشته البشرية كلها فى وقت من الأوقات، ثم تحولت عنه المجتمعات التى ارتقت، بينما بقيت المجتمعات البدائية على الحالة البدائية التى كانت عليها البشرية كلها فى وقت من الأوقات. كما افترض - مثل دارون وماركس - أن هناك خطا تطوريا صاعدا أبدا، يكون كل جديد فيه أرقى مما قبله، وكل قديم أقل رقيا مما بعده.

وكلا الفرضين لا يوجد دليل علمى على صحته.

ونجتزئ بواقعين تاريخيين، معلومين مشهورين، يناقضان فرضيات فريزر:

فالمعروف عند الناس جميعا أن إبراهيم عليه السلام كان موحدا، مؤمنا بالله الواحد الذى لا شريك له، داعيا قومه إلى ترك عبادة الأصنام، وعبادة الشمس والقمر والنجوم، وأنه لقى فى سبيل هذه الدعوة ما لاقاه من اضطهاد قومه ومحاولة التخلص منه ومن دعوته.. ثم استقرار هذه الدعوة فى ركن من أركان الأرض، حيث آمن بإبراهيم من آمن، وصاروا موحدين، ومن بينهم ولده إسماعيل عليه السلام.

وفى كتاب الله المنزل ذكر لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يقيمان قواعد الكعبة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

ويسجل التاريخ أن العرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام كانوا

مشركين يعبدون الأصنام ويعبدون الجن والملائكة وغيرهما من مخلوقات الله . وفى الكعبة التى دعا إبراهيم عندها بقوله : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٥]، كان يوجد ثلثمائة وستون صنما تعبد من دون الله!

فلو أن مؤرخا أو أنثروبولوجيا درس ظاهرة عبادة الأصنام فى الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول - ﷺ - فقرر - بمنطق فريزر - أن هذه المنطقة لا يمكن أن تكون قد عرفت التوحيد قبل البعثة النبوية، لأن التوحيد يأتى - فى سلم التطور - بعد عبادة الأصنام ولا يأتى قبله . فهل يكون تقريره هذا «علما» أم اعتسافا بغير دليل؟!

وإذا قرر من جهة أخرى - كما قرر فريزر بالفعل - أن عبادة الأصنام (التى وجد نموذج منها فى الجزيرة العربية قبل البعثة) ظاهرة بشرية لابد أن تمر بها البشرية قبل أن تصل إلى التوحيد، فهل يكون تقريره هذا علما أم اعتسافا بغير دليل؟!

والواقعة التاريخية الأخرى هى قوم لوط وما كانوا عليه من الشذوذ، وقول نبيهم لهم : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٨] .

فلو أن مؤرخا أو أنثروبولوجيا قال - على مذهب فريزر - إن وجود هذه الظاهرة فى قوم لوط معناه أن البشرية كلها قد مرت بهذه الظاهرة فى وقت من الأوقات، وإنها طور من الأطوار التى تمر بها البشرية فى مسيرتها التاريخية . فهل يكون قوله هذا علما أم اعتسافا بغير دليل؟

ولو قال من جهة أخرى إن حدوث هذه الظاهرة فى قوم لوط بعد إذ لم تكن موجودة فيهم هو تطور إلى أعلى، حسب سنة التطور التى تجعل كل جديد أعلى وأرقى من كل قديم، وكل قديم أدنى فى سلم الرقى من كل جديد . فهل يكون لكلامه هذا أى وزن على الإطلاق؟!

إن تعميم الحكم المستمد من حالة معينة على البشرية كلها خطأ علمى لا يستند إلى دليل . وإن القول بأن خط «التطور» صاعد أبدا، وإن البشرية لا تنتكس إلى

حالات انحطاط وتدنٍّ بعد أن تكون قد ارتقت وصعدت، هو الآخر خطأ علمى لا يستند إلى دليل . . والواقع التاريخى هو الحكم ضد هذا القول وذاك . .

إن وجود القبائل التى شاهدها فريزر فى أفريقيا وآسيا على الحالة التى وجدها عليها لا يعطى دليلا قطعيا على أن البشرية الأولى كانت كلها على تلك الصورة فى وقت من الأوقات، فقد تكون الحالات التى رآها انحرافا عن الأصل الذى كانت عليه البشرية، حدث لأى سبب من الأسباب، كما حدث انحراف قوم لوط مع أن أسلافهم كانوا أسوياء.

وهذا يقدح فى مصداقية القضية الكبرى التى ركز عليها فريزر تركيزا كبيرا . . وهى أن الدين كله صناعة بشرية بحتة، وأن ما نسميه «الديانات السماوية» إن هو إلا تطور طرأ على تلك الصناعة البشرية حين وصلت البشرية حدا معينا من الرقى الفكرى . . وأن الدين كله - بجميع أطواره - هو فى نهاية المطاف طور من أطوار البشرية، مرت به فى وقت من الأوقات، ثم أخلى مكانه - إلى غير رجعة - للعلم، الذى هو الوريث الشرعى، المسيطر إلى آخر الزمان!

من أعاجيب فريزر أنه يروى أنه وجد قبائل فى وسط أفريقيا، منعزلة بعضها عن بعض عزلة كاملة، ومنعزلة كلها عن العالم المتحضر بمسافات بعيدة لا تقطعها وسائل الاتصال المتاحة لها، ووجد عندها كلها قصة الطوفان!

وقد كان المنطقى أن ينتهى فريزر من هذه الوقائع إلى مدلولها الطبيعى، وهو أن هذه القبائل المتفرقة المنعزلة تحمل فى ذاكرتها ذكرى هذا الحدث التاريخى الضخم، الذى أراد الله له أن يبقى فى ذاكرة الأجيال المتعاقبة من البشرية ليكون موعظة لها وعبرة، والذى قال الله عنه فى كتابه المنزل: ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** (11) **لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ** ﴾ [سورة الحاقة: ١١، ١٢]. وأن يتخذ من عزلة القبائل بعضها عن بعض دليلا على أنها لم تتلق القصة بعضها من بعض، إنما تلقتها - أو تلقاها أجدادها - من مصدر تاريخى واحد قبل أن تتفرق فى الأرض وينعزل بعضها عن بعض . .

ولكن العجب أنه قال: وهذا يدل على أن أسطورة الطوفان الواردة فى الكتب السماوية، إنما هى امتداد لما عند القبائل البدائية من الأساطير!!

لذلك قلنا إن استنتاجاته ليست فوق مستوى النقد، وإنها كذلك ليست فوق مستوى الشبهات!!

* * *

فلندع فريزر وتمحلاته، ولننظر فى مراجعنا الربانية نبحث فيها عن اليقين..

إن مناهجهم التى تقضى بالشك ابتداء فى المصادر الدينية، وعدم اعتبارها مصدرا لليقين، قد أوجدها عندهم أن كنيستهم قد حجرت على عقولهم أن تفكر، وأنهم لما تمردوا على سلطان الكنيسة، وأعملوا عقولهم، وجدوا أن كثيرا مما كانت الكنيسة توهمهم بأنه كلمة السماء عار عن الصحة، فأضربوا عن الاعتماد عليها مصدرا للحقائق، بل جعلوا المنهج الذى سموه «علميا» يبدأ بنقض مرويات الدين، أو فى القليل التشكيك فى صحتها.

ودينا ليس كذلك..

إنه منذ اللحظة الأولى دين مفتوح للتفكر والتدبر، بل إنه يدعو دعوة صريحة للتفكر والتدبر:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: ٢٩].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٦]...

فالمنطق «العلمى» الصحيح يقتضى أننا إذا استيقنا - بعد التفكر والتدبر - من أن الله هو الإله الحق، وعرفناه بصفاته التى وصف بها نفسه، واستيقنا كذلك أن محمدا - ﷺ - لا ينطق من عند نفسه، إنما يبلغنا ما يتلقاه من عند الله، فليس من المعقول بعد ذلك ولا من المقبول أن نتشكك فيما يأتينا من طريق الوحى، أو نحكّم فيه أهواءنا فنقبل ما يوافق أمزجتنا ونرفض ما سواه، أو نقف فى كل مرة، مع كل خبر وكل جزئية - بعد التسليم اليقينى بالأصل الكبير - فنقول: نتوقف فيه حتى يثبته دليل آخر..

إنما منهجنا - وقد آمنا بالله ورسوله - أن تكون المصادر الربانية فى مقدمة أدلتنا وعلى رأسها، وليقل المتشككون المرتابون ما بدا لهم، إن يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون.

والمصادر الربانية الأكيدة تقول إن آدم أبا البشر كان مؤمنا موحدا، وأن عشرة أجيال من بعده كانت مؤمنة موحدة.. ثم حدث الانحراف والشرك.

بل تقول إن الله قد أخذ الميثاق على بنى آدم وهم فى عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم أن الله هو ربهم:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾[سورة الأعراف: ١٧٢].

ويقول المولى جل وعلا فيما يرويه عنه رسول الله - ﷺ -: «إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين»[١].

ويقول - ﷺ -: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه هما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[٢].

فالقول بأن الإنسان بدأ مشركا ثم اهتدى إلى فكرة الإله الواحد بعد قرون طويلة من حياته على الأرض، قول لا سند له إلا ما شاهده «الأنثروبولوجيون» من مظاهر الشرك فى القبائل التى رأوها، وهو - كما رأينا - دليل لا يعتد به، وقد وجدنا فى واقع التاريخ قوما كانوا موحدين فأشركت ذراريهم من بعدهم، فلا شرك الذرارى ينفى إيمان آبائهم، ولا إيمان آبائهم يحول دون وقوعهم فى الشرك إذا اختاروا الضلالة على الهدى.. وخط البشرية متذبذب أبدا بين الإيمان والشرك. يبعث الله الرسل فيهتدى على أيديهم من فتح الله بصيرته فعرف الحق، ثم تمر أجيال، ويبعد العهد، ويطول الأمد، فينحرف الناس إلى الشرك، فيرسل الله الرسل فيعود من يعود ويضل من يضل، وهكذا إلى أن بعث الله رسوله الخاتم - ﷺ - إلى الناس كافة وأنزل معه الكتاب الذى اكتمل به الدين للبشرية جمعاء:

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه الشيخان.

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [سورة المائدة : ٣].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠٧].

* * *

ثم إن العقيدة لم تتغير ولم تتطور خلال التاريخ : إله واحد، فرد صمد، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [سورة الإخلاص : ٣ ، ٤].

كيف تتطور هذه العقيدة؟ وما الذى يمكن أن يتطور فيها؟

إنما الذى يمكن أن يتطور فعلا هو عقائد الجاهلية . . فهى صناعة بشرية، يصنعها البشر لأنفسهم مخالفين بها العقيدة الربانية التى جاء بها الأنبياء، وآمن بها المؤمنون من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ـ ﷺ ـ إلى آخر الزمان . .

وإذ كانت صناعة بشرية فهى عرضة أن تتغير وتتحور كلما تغيرت أحوال البشر على الأرض بعيدا عن الهدى الربانى، فتكون عبادة للأب، ثم عبادة للطوطم، ثم عبادة لقوى الطبيعية، ثم عبادة للأفلاك، ثم عبادة للأصنام . . ثم ما يكون من ألوان العبادة المنحرفة . .

ولا يعنينا هنا كثيرا أن تكون السلسلة كما وصفها فريزر، أو ماركس أو فرويد أو دوركايم أو لا تكون، فهذه قضية فرعية تهم المتخصصين وحدهم، وإن لم يكن هناك مانع من دراستها للعبرة، وللتعرف على انحرافات النفس البشرية حين تضل . . ولكن دراستها يجب أن تكون تحت عنوان «عقائد الجاهلية» لا تحت عنوان «عقائد البشرية»، فالبشرية لم تكن كلها جاهلية فى وقت من الأوقات، إنما كان هناك دائما مؤمنون يعتنقون الدين الصحيح، قلوا أو كثروا، ولا عبرة بالعدد هنا، إنما العبرة بالخطإ والصواب والحق والباطل . فالخطأ خطأ ولو اتبعه أهل الأرض جميعا، والصواب صواب ولولم يهتد إليه أحد . ولكن الواقع التاريخى يقول إن

الإيمان والشرك تجاوروا فى الأرض فى كل حقبة من حقب التاريخ حسب مشيئة ربانية مسبقة .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [سورة التغابن : ٢] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... ﴾ [سورة هود : ١١٨ ، ١١٩] .

إنما المهم لدينا أن نعرف جيدا أن الذى تغير وتطور خلال التاريخ لم يكن هو «العقيدة» بمعناها الاصطلاحى المعروف ، ولم يكن التوحيد نهاية لسلسلة من العقائد الوثنية ، إنما الذى تغير وتطور هو عقائد الجاهليين ، التى تصوغها أهواء البشر وخرافاتهم وانحرافاتهم وتصوراتهم القاصرة . أما العقيدة الصحيحة - عقيدة التوحيد - فقد وجدت على صورتها الصافية من أول لحظة ، وهى التى يؤمن بها المؤمنون جميعا من أول التاريخ إلى آخر التاريخ بغير تعديل ولا تبديل[(١)] .

﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم : ٣٠] .

❊ ❊ ❊

الدراسة المطلوبة فى هذا المجال هى دراسة تتتبع خط الإيمان منذ بدء البشرية ، وتدرس الأسباب الطارئة التى تجعل الناس ينحرفون عن التوحيد إلى الشرك . وتبين كذلك أن البشرية حتى فى حالات ضلالها لم تنبذ «الدين» ذاته ، إنما كانت تنحرف عن عبادة الله الحق إلى عبادة آلهة أخرى غير الله ، معه أو من دونه . وأن موجة الإلحاد الحالية - بمعنى إنكار وجود إله خالق - هى موجة مصطنعة لا جذور لها ، وأنها لا تلغى دلالة أكثر من أربعين قرنا من التاريخ المدون ، كان «الدين» فيها قائما فى الواقع البشرى ، سواء كان صحيحا أو فاسدا . وأن أسطورة الأطوار الثلاثة التى تمر بها البشرية وتنتهى بإلغاء الدين وسيطرة العلم بدلا منه ، هى كذلك أسطورة لا تستند إلى أساس ، ويكفى لدحضها أن العلماء اليوم يتتابعون على خط الإيمان ،

---

(١) لا نتحدث هنا عن الشرائع فهذه اختلفت من قوم إلى قوم ، ومن زمن إلى زمن ، حتى نزلت الشريعة الكاملة مع الرسالة الخاتمة .

بعد أن أوصلهم العلم ذاته إلى متاهات لا مخرج منها إلا بالعودة إلى الإيمان، وأن هناك موجة عالمية عائدة إلى الدين بعد أن ذاق الناس لذع الضياع والحيرة والقلق والاضطراب حين نبذوا الدين وظنوا أن العلم وحده يمكن أن يحكم الحياة!

ومثل هذه الدراسة حين يقوم بها باحثون متمكنون، ويعطونها حظا من البحث العلمى الرصين، فقد تكون عونا بإذن الله فى إزالة بعض أوهام العلمانيين والعقلانيين الذين يأخذون مفاهيمهم عن الدين من «علماء!» الغرب، من أمثال فريزر وماركس وفرويد ودوركايم، فتردهم إلى الإيمان، أو فى القليل تدعوهم إلى التفكر والتدبر فيما يتعلقون به من الأوهام.

(٤)

مستقبل الدعوة الإسلامية

موضوع يشغل المسلمين كثيرا . . ويشغل أعداءهم كذلك!

بل إن أعداءهم قد يكونون أكثر انشغالا به فى الوقت الحاضر من المسلمين أنفسهم، الذين تعودوا فى فترة الركود والانحسار الحالية أن يعيشوا اللحظة الحاضرة، ولا ينظروا إلى المستقبل، وحتى اللحظة الحاضرة يعيشونها عفويا بغير تدبر سابق ولا نظر فيما يصح بشأنها وما لا يصح!

والأعداء فوق ذلك يخططون . . يخططون لمحاولة القضاء على الإسلام، أو فى القليل تحجيمه بحيث يكون وجوده كلا وجود، ولا تكون له فاعلية حقيقية فى سير الأحداث.

وهذا كله يستوجب من المسلمين أن يفكروا ويدرسوا، ويكون لهم تصور واضح لسير الأحداث.

* * *

المستقبل غيب . . والغيب لله وحده:

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّموات وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

نعم . . ولكن للغيب إرهاصات وتوقعات هى التى يعمل فى نطاقها العقل البشرى، دون أن يتعداها قط إلى اليقين، الذى يبقى دائمًا ملكا لله سبحانه، يؤيد به توقعات البشر أو ينقضها من أساسها . .

ولله كذلك سنن يجريها فى خلقه . . ومن رحمته سبحانه أنه ثبَّت تلك السنن،

ليتعامل الناس على بصيرة مع مقتضياتها، سواء فى الكون المادى أو فى الحياة البشرية، وإن كانت مشيئة الله دائمًا طليقة، فيجرى هذه السنة أوتلك، ويقدر ما يشاء لمن يشاء.

وفى حدود ذلك كله نتحدث عن مستقبل الدعوة الإسلامية.

* * *

لعل الأمور الآن أوضح فى واقعها، وفى تصور أصحابها مما كانت عليه قبل نصف قرن من الزمان حين بدأت الصحوة الإسلامية. فقد زال الغبش - أو ينبغى أن يكون قد زال - عن أمور لم تكن بهذا الوضوح عند بدء الصحوة، سواء بالنسبة للدعاة أنفسهم أو لأعدائهم.

وقد حاول كثيرون أن يعطوا تقويما للحركة الإسلامية: ماذا أنجزت؟ وما الذى عجزت عن إنجازه؟ ومدى مسئوليتها عن العجز فيما عجزت فيه، وأن يعطوا كذلك توقعاتهم بالنسبة لمستقبل الحركة الإسلامية.

والمطلوب الآن، مراجعة أدق للماضى، تلقى أضواء كاشفة على الحاضر بكل أبعاده، وتعطى فى الوقت ذاته تقديراً لتوقعات المستقبل، لا يعتمد على الأمانى ولا الرغبات الذاتية بقدر ما يعتمد على رؤية دقيقة ودراسة للتيارات العالمية، وأدواتها وأساليبها، والمتوقع من تأثيراتها على الإسلام والمسلمين.

* * *

غنى عن البيان أن هناك حربا ضارية مشبوبة ضد الإسلام والمسلمين فى الوقت الحاضر. وهى حرب صليبية صهيونية مهما حاول أهلها أن يخفوا وجهها القبيح تحت مختلف اللافتات والعناوين، ومهما حاول الإعلام العربى، المنقول نقلا حرفيا عن الإعلام الغربى، أن يجارى الغرب فى إخفاء الوجه القبيح لهذه الحرب، والبحث عن تعلات لها غير أسبابها الحقيقية.. وسنتكلم عن مجريات هذه الحرب فى فصل قادم بعنوان «الحروب الصليبية المعاصرة». ولكن حسبنا هنا أن نثبت وجودها ثم نتطرق إلى ما نتوقعه من آثارها فى المستقبل القريب ثم المستقبل البعيد.

فأما فى المستقبل القريب فنتوقع اشتداد الحرب، والاستمرار فى محاولة

استئصال الحركات الإسلامية من جذورها فى الأرض الإسلامية. وأما فى مستقبل قد لا يكون بعيدا فنتوقع اتساعا فى الحركة الإسلامية، وتمكينا لها فى أكثر من مكانٍ فى الأرض، على الرغم من الحرب المشبوبة، أو ربما بسبب تلك الحرب!!

ونحن هنا ـ كما قلنا فى المقدمة ـ لا نقدم دراسة للقضية، إنما نقدم تعريفًا بها، ثم دعوة للكتاب والمفكرين أن يدرسوها دراسة وافية، ثم يطلعوا الناس على نتيجة دراستهم، ليكون هذا معينا للحركة الإسلامية لتدعو على بصيرة، وتتحرك على بصيرة.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة يوسف: ١٠٨]..

* * *

لقد خططت أوربا الصليبية ودبرت للقضاء على الدولة العثمانية طيلة مائتى عام على الأقل، وأفلحت فى النهاية فى القضاء عليها بعد جهاد طويل.. وكان فى تفكيرهم ـ وتقديرهم ـ أنهم إذا قضوا على الدولة العثمانية فإنهم يقضون على الإسلام كذلك، بعد إزالة الدولة الحامية، التى هى فى الوقت ذاته عصب التجمع الإسلامى ورايته وممثلته، المحافظة على وحدته، الممسكة فى يدها بالرباط الذى يربط الأجزاء بعضها ببعض، ويربطها جميعا برباط الإسلام.

وبالفعل أحدث انهيار الدولة العثمانية زلزالا هائلا فى العالم الإسلامى، وسارعت معاول الهدم تستغل الزلزال لتكمل التدمير..

ولكن الصليبية فوجئت بالصحوة الإسلامية ردًا على الجهد الجاهد الذى بذلته فى القضاء على الدولة العثمانية، فجن جنونها، وأقبلت تضرب ضربات حادة مجنونة تحاول بها القضاء على الصحوة، التى جاءتهم على غير انتظار.

وفى هذه الحرب كان عنصر آخر يعمل لحسابه الخاص، ولكنه يعمل فى تحالف كامل مع الصليبية، ذلك هو الصهيونية العالمية، التى اشتركت اشتراكا جوهريا فى القضاء على الدولة العثمانية بهدف الاستيلاء على فلسطين، وهذه أيضًا جن جنونها من الصحوة الإسلامية، فاشتركت ـ بكل قوتها ـ فى توجيه الضربات الحادة

المجنونة التى تهدف للقضاء على الصحوة، واستخدمت براعتها الشيطانية فى مجال الإعلام لإثارة حرب عالمية ضد الإسلام.

وهذا هو الحاضر الذى نعيشه فى لحظتنا الراهنة، والذى يلقى ظلاله على المستقبل القريب، بكثافة أكبر، وعتامة أكثر. أى مزيدا من الحرب، ومزيدا من الضربات الحادة المجنونة..

❁ ❁ ❁

إلى متى يتوقع أن يستمر الأمر على هذه الصورة؟!

من الناحية النظرية: حين يكون هناك صراع بين قوتين، أو تيارين متنازعين، فمن المتوقع أن يستمر الصراع حتى يتغلب أحد الخصمين على الآخر، أو ييأس أحد الخصمين من القضاء على الآخر فيضطر إلى معايشته ولو على كره منه.. وإذا طبقنا هذا على الصراع القائم اليوم بين الإسلام وأعدائه فلنا أن نتوقع أنه سوف يطول وسوف يزداد ضراوة على الأقل من الجانب الذى يملك القوة الظاهرة.. أى القوة المادية..

ذلك أن الحركات الإسلامية لم تستطع حتى الآن - بكل وسائلها - أن تزيح النظم الحاكمة المعادية لها فى المنطقة الإسلامية، فضلا عن أن تقف عدوان النظام العالمى عليها، يستوى فى ذلك النظام العالمى القديم أو النظام العالمى الجديد، فلا فارق بالنسبة للإسلام بين النظامين، كلاهما معاد وكلاهما لا يكف عن العدوان، لأنه هو ذاته الصليبية الصهيونية المسيطرة على الأرض اليوم، سواء كانت ذات قطب واحد أو قطبين أو أكثر، فهم قد يتنازعون بينهم على مصالحهم المتعارضة، ولكنهم إزاء الإسلام يدٌ واحدة، وعصبة واحدة، ومصلحة واحدة مشتركة.

من الجانب الآخر فإن أعداء الإسلام - بكل وسائلهم، بما فى ذلك الاضطهاد والقتل والتعذيب والتشريد وتجفيف المنابع - لم يستطيعوا حتى الآن أن يوقفوا المد الإسلامى المتنامى كما كانوا يشتهون، فضلا عن أن يقضوا عليه القضاء المبرم ويقتلوه من جذوره.

ومقتضى ذلك أن يستمر الصراع من الجانبين إلى أن تحدث الغلبة أو اليأس من الغلبة كما أشرنا قبل قليل، ولا هذا ولا ذاك متوقع فى المستقبل القريب!

إذا تصورنا ذلك فلنا أن نتصور كذلك اشتداد الحرب لا مجرد امتدادها، واشتداد ضراوتها ضد الإسلام والحركات الإسلامية، لأنها حرب المحنق المغيظ، لا حرب العاقل الذى يتدبر بعقله نتائج أفعاله.

وسبق أن قلنا إن الحنق والغيظ قد استولى على الغرب الصليبى حين فوجئ بالصحوة الإسلامية فى اللحظة التى كان يمد يده لاقتطاف ثمرة الجهد المضنى الذى بذله طيلة مائتى سنة على الأقل لإزالة الدولة العثمانية، طمعا فى أن إزالتها سوف تقضى على الإسلام ذاته.. فلما فوجئ بالصحوة بدلا من الموت، كان طبيعيا بالنسبة إليه أن يحنق ويغتاظ.

ثم إن الحنق والغيظ حرى أن يزداد حين يبذل الغرب الصليبى ـ ومعه الصهيونية العالمية ـ كل جهودهما للقضاء على الصحوة فتستعصى عليه ـ حتى الآن ـ وتأبى أن تموت.

ولكن من هذه النقطة ذاتها نرى اختلاف المستقبل البعيد عن المستقبل القريب، دون تحديد مدى معين، فكل تحديد هو رجم بالغيب، لا يدعيه إنسان عاقل!

إن الشطط الذى ترتكبه الصليبية الصهيونية سيكون هو ذاته وقوداً لحركة إسلامية لا يستطيع الغرب الصليبى وقفها ولو استعان بكل الأعوان الذين يقومون اليوم بمعاونته فى ممارسة شططه!

إن الانفجارات الكبرى فى التاريخ قد حدثت كلها حين استوى عند الناس الموت والحياة. والصليبية الصهيونية تدفع المسلمين ـ بحماقة ـ إلى النقطة الحرجة التى يستوى فيها الموت والحياة!

حماقة الصرب فى بلاد البوسنة والهرسك، ووقوف العالم الصليبى كله ساكنا يتفرج، ومئات الألوف يبادون إبادة جماعية، ويعذبون ويحرَّقون، ويعتدى على نسائهم، ويقتَّل أطفالهم أمام أعينهم، فى الوقت الذى يمنع عن البوسنويين كل

سلاح لكى لا يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، ولا وقف المجازر التى تحل بهم، واستمرار ذلك لا أياما ولا أسابيع ولا شهورا.. بل سنوات!

وما ارتكب فى كوسوفو من المجرمين ذاتهم، الذين لم يردعهم رادع، والعالم الصليبى فى بلادة وتراخ متعمد يتشاور ويتشاور ولا يصنع شيئا والمجازر على أشدها..

وحماقة إسرائيل فى فلسطين فى القتل الجماعى، وهدم البيوت على أصحابها، وطرد أهلها منها، وتدنيس المقدسات، وأمريكا واقفة تساند الجرائم كلها التى ترتكبها إسرائيل، وتدافع عنها، وتمدها بالمال والسلاح بغير حساب، وتعينها على إنتاج أسلحة الدمار الشامل بينما تشن الغارة على أماكن فى العالم الإسلامى بحجة الاشتباه فى إنتاج مواد يمكن أن تساعد فى إنتاج أسلحة لا توازى فى خطرها عشر معشار ما تملكه إسرائيل..

ووقوف الصليبية الصهيونية مع حماقة الهند فى هدم المساجد الأثرية وإقامة الأوثان بدلا منها، وتقتيل المسلمين فى كشمير، والإغارة على القرى المسلمة وإشعال النار على أهلها أحياء، فإذ فروا من النيران قبضت عليهم بتهمة التخريب وزجت بهم فى السجون لتعذبهم..

وعشرات من الحماقات ومئات، ترتكبها الصليبية الصهيونية يوميا، سواء فيما يسمى «المحافل الدولية» حين تعرض قضية تمس المسلمين، أو فى العمل على تدمير اقتصاديات المسلمين وإذلالهم وسلب أقواتهم وتحويلهم عبيدا خاضعين للغرب..

هذه الحماقات كلها ما نتيجتها؟! ما نتيجتها حين يستوى عند الناس الموت والحياة إلا الانفجار، كما حدثت كل انفجارات التاريخ؟!

فى أوائل الخمسينيات من هذا القرن ألقى المؤرخ البريطانى الشهير «توينبى» محاضرة عن الإسلام بعنوان «الإسلام والمستقبل» قال فيها إن الإسلام اليوم نائم نومة أهل الكهف، ولكن النائم قد يستيقظ إذا وجدت دواعى اليقظة. وقد أثبت الإسلام وجوده فى مناسبتين كبيرتين فى الماضى، الأولى حين اكتسح فى سنوات

قليلة نصف الإمبراطورية الرومانية، والثانية حين صمد للحروب الصليبية وانتصر عليها. واليوم - إذا استمر الغرب فى الضغط على الشعوب البروليتارية[1] - فقد يجد الإسلام الفرصة لتزعم ثورة تلك الشعوب على الضغط الغربى.. قال: وأرجو ألا يحدث ذلك!

نعم! ولكن الذى كان يخشاه توينبى قبل نصف قرن يوشك اليوم أن يحدث بسبب استمرار الغرب فى حماقة الضغط على الشعوب الإسلامية إلى الحد الذى يولد الانفجار.

* * *

هذا من ناحية..

ومن ناحية أخرى فإن الأسباب التى أدت إلى الصحوة ماتزال قائمة، ومن شأنها أن تظل قائمة!

إن الغرب ينظر إلى الصحوة باستغراب - فضلا عن كونها شيئا غير مرغوب بطبيعة الحال! - نظرا للجهد الذى بذلته الصليبية الصهيونية فى القضاء على الدولة الإسلامية، والذى كانت تنتظر من ورائه القضاء على الإسلام بغير رجعة.. فيستغرب الغرب الصليبى كيف أن هذا الجهد الجاهد كله لم يؤت ثمرته المرتقبة، وقامت الصحوة بدلا من الموت الذى كانوا يتوقعونه..

ولئن كان الغرب «السياسى» قد استغرب حدوث الصحوة رغم الجهد الذى بذله، فتلك على أى حال حماقة من حماقاته! أما المفكرون منهم - من بين المستشرقين خاصة - فهم يعلمون!

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦]..

---

(١) كلمة الشعوب البروليتارية تعبير ابتدعه «توينبى» يقصد به الشعوب الفقيرة المغلوبة على أمرها، التى لا تفكر فى الوقت ذاته فى التخلص مما هى فيه من فقر واستضعاف، وهو يقصد ما أصبح يسمى فيما بعد «العالم الثالث».

يقول المستشرق «جب» فى كتابه «وجهة الإسلام ?Whither Islam» : «إن أخطر ما فى هذا الدين أنه ينبعث فجأة دون أن تعرف لماذا انبعث، ولا المكان الذى يمكن أن ينبعث منه»!

ونحن نذكر له الأسباب، وما نظنه غافلا عنها، ولكنه ـ وأضرابه ـ لا يحبون أن يذكروها، أو تذكر على مسامعهم!

إن هذا الدين ينبعث تلقائيا لأسباب كامنة فيه . .

لأنه دين الفطرة .

ولأنه تجربة واقعية عاشتها الأمة وعايشتها قرونا متطاولة .

ولأنه يمثل فى ذاكرة الأمة أزهى عصورها، وأعظم إنجازاتها، وأروع أمجادها .

فإذا غفلت عنه الأمة فترة من عمرها ـ لأسباب ليست كامنة فى الدين ذاته، وإنما هى كامنة فى مسيرة الأمة بهذا الدين ـ فهل يستغرب منها أن تصحح خطاها وتعود إليه؟!

لقد كان المستغرب منها أن تحيد عنه، وهو الذى مكن لها فى الأرض، ورفع ذكرها فى العالمين. أما عودتها إليه فهى العودة إلى النبض الطبيعى الذى عاشت به طوال القرون .

إنما يستغرب الغرب أمر الصحوة ـ بالإضافة إلى حنقه عليها ـ لأنه سَلّطَ على الإسلام كل العوامل التى سُلِّطتْ على الدين فى الغرب فقتلته أو حجمته، فإذا هى لم تقتل الإسلام، بل أخذ ينطلق من جديد!

ولا ينظر الغرب ـ فى غفلته ـ إلى الفارق بين الدينين، وبين التاريخين .

إن أوربا لم تعرف قط دين الله المنزل على حقيقته، بينما الإسلام هو الدين الذى بقى على حقيقته كما أنزل، لأن الله تكفل بحفظ كتابه، فحُفظَ الدين بحفظ الكتاب .

وتاريخ أوربا مع دينها هو تاريخ قرونها الوسطى المظلمة، بينما تاريخ المسلمين مع دينهم أيام تمسكهم به على الوضع الصحيح هو تاريخ التقدم والحضارة والرفعة والنور .

ولذلك فإن البذور السامة التى سلطها اليهود على نزعة التدين فى أوربا فقتلتها - أو فى القليل حجّمتها[1] - ظلت بالنسبة للأرض الإسلامية نبتة غريبة، تلفظها التربة دائما مهما وضع لها من المخصّبات! ويشكو العلمانيون دائما من قلة من يستمع إليهم، ويقرأ كتبهم - مع كون وسائل الإعلام كلها موضوعة بين أيديهم - بينما الكتاب الإسلامى هو أروج الكتب على الرغم من كل التعتيم الإعلامى المضروب عليه، واللقاء الدينى هو أكثر اللقاءات حضورا على الرغم من كل التشويش والتشهير الموجه إليه!

* * *

ومن ناحية ثالثة فإن الإسلام هو البديل الحضارى للحضارة الغربية الآخذة فى الانهيار.. ومن ثم فهو دين المستقبل..

إن صراع الحضارات لا يعتمد على القوة المادية وحدها، ولا تكون الغلبة فيه للقوة المادية وحدها إلا إذا كان الأطراف المتصارعون مفلسين كلهم بدرجة واحدة فى مجال القيم، فتكون الغلبة عندئذ للقوة الوحيدة التى يختلف وضعهم فيها، وهى القوة المادية، فينتصر من يملكها على من لا يملك شيئا منها، أو يملك منها ما لا غناء فيه. أما حين يختلف أطراف الصراع فى القيم، فيملكها بعضهم ويفتقر إليها بعضهم الآخر، كما هو حال الحضارة الغربية اليوم، فالأرجح أن ينتصر صاحب القيم، ولو كان أقل قوة فى الجانب المادى..

ومن كان فى شك من هذا فليراجع التاريخ..

حين التقى الإسلام بالإمبراطوريتين «العظميين» فى وقته، فارس والروم، فكم كانت قوة المسلمين المادية بالقياس إلى قوة الإمبراطوريتين، سواء فى السلاح وفنون القتال، أو فى التنظيمات الإدارية والسياسية التى تقوم عليها الدولة، أو فى فنون الحضارة المادية من أدوات وآلات وفرش ورياش ومبان وطرق وتيسيرات مادية..؟

ثم.. لمن كانت الغلبة فى الصراع؟!

واليوم يوشك أن يتجدد الصراع.. أو هو قد تجدد بالفعل.. فماذا يتوقع من نتائجه؟

(1) اقرأ إن شئت فصل «دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

هناك فارق بالطبع بين اللقاء الذى حدث فى الماضى واللقاء الذى يحدث اليوم . . ذلك أن الأمة الإسلامية ليست متخلفة فى الجانب المادى وحده، ولكنها متخلفة كذلك فى جانب القيم، وإلى درجة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ! بحيث تبدو إلى جانبها الحضارة الجاهلية التى يملكها الغرب كأنها ذات قيم وذات أخلاق!!

لو تدبرنا الأمر بعيون مفتوحة فالغرب فى الحقيقة لا يملك إلا التقدم العلمى والتكنولوجى، ولكنه صفر اليدين من القيم الروحية والأخلاقية، وإن كان يتقن الحديث عنها بالصورة التى تخيل للمخدوعين أنها حقيقة!

وإلا فما هى القيم التى يملكها الغرب؟

استخدام القوة فى البطش بالضعفاء وإذلال كرامتهم . . هل هذه حضارة؟

استخدام القوة فى استلاب أقوات الضعفاء وإرغامهم على بيع خاماتهم بأبخس الأثمان ثم بيعها لهم بعد تصنيعها بأغلى الأثمان للمحافظة على فقرهم وضعفهم وتبعيتهم . . هل هذه حضارة؟

فرض «السيادة» على الضعفاء بعدم السماح لهم أن يكونوا أنفسهم، أو تكون لهم شخصيتهم المستقلة أو أفكارهم أو عقائدهم باسم «العولمة» أو بأى اسم آخر . . هل هذه حضارة؟

محاربة فريق من البشر باسم التصدى للإرهاب، والسماح لفريق آخر أن يمارس أبشع أنواع الإرهاب دون تصدٍّ ولا ردعٍ ولا حتى استنكار . . بل بتأييد صريح وترحيب . . هل هذه حضارة؟

استغلال القوة فى صنع كل نوع من أنواع السلاح الذى يحدث الدمار الشامل، ومنع الضعفاء من أن يكون عندهم ما يدافعون به عن أنفسهم إذا وقع عليهم العدوان . . هل هذه حضارة؟

إعطاء الحق لدول بعينها أن تعترض - بحق الفيتو - على أى إدانة تلحق بها حين ترتكب جريمة من الجرائم التى تحرّمها على غيرها، وإعطاؤها الحق فى الوقت ذاته أن تدين من تشاء وتعاقب من تشاء . . هل هذه حضارة؟

ما الفرق إذن بين هذه «الحضارة» وبين ما يجرى فى عالم الوحوش: القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق؟!

ومن جانب آخر..

هذا الانحلال الخلقى المسفّ، الذى لا مثيل له فى إباحة كل أنواع الفواحش، سوية وشاذة، والتعالن بها، حتى إن زعيم الدولة التى تزعم أن من حقها أن تقود العالم كله، يسف فى علاقاته الماجنة، ثم يقوم فريق من شعبه بالدفاع عنه، بأن هذه حياته الخاصة وهو حرّ فيها!.. هل هذه حضارة؟!

هذه الأمراض النفسية والعصبية والقلق والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة.. هل هذه حضارة؟!

هذا الإعلام الساقط الذى يتفنن فى تزيين الفاحشة وإشاعتها بين الناس.. هل هذه حضارة؟!

تتفيه اهتمامات الناس، بحيث تنصرف اهتماماتهم إلى سفاسف الأمور وتعرض عن معاليها.. هل هذه حضارة؟!

كلا والله! ما هذه حضارة! وإن كثيرا من أنواع الحيوان ليتعفف عن كثير مما يمارسه أولئك «المتحضرون» من اللهو والمجون والإسفاف البالغ أقصى الحدود!

تلك هى القيم الروحية والأخلاقية التى يملكها الغرب..

حقا إنه يملك إيجابيات كثيرة، هى التى أعطته السيادة فى الوقت الحاضر، ولكنها ـ حسب السنن الربانية ـ لا تعيش طويلا بغير قيم روحية وأخلاقية، ومصيرها الدمار:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥].

* * *

البديل الحضارى الذى يملك القيم هو الإسلام..

الإسلام هو الذى يدفع إلى التقدم العلمى والتكنولوجى دون أن يفقد الإنسان إنسانيته، أو يفسد فطرته، أو يسوقه إلى الطغيان والاستكبار فى الأرض، لأنه يأخذ الإنسان كله بعنصريه فى آن معا: قبضة الطين ونفخة الروح، ويحدوه إلى بذل نشاطه بعنصريه معا فى آن واحد، فيعمل للدنيا والآخرة معا بلا تعارض ولا افتراق:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [سورة الملك: ١٥].

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [سورة القصص: ٧٧].

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة هود: ١١٢]. .

وبذلك يبنى الحضارة الحقيقية، التى تشمل نشاط الجسد ونشاط الروح، وتشمل العلم والأخلاق، وتشمل اكتساب القوة مع التواضع لله، وتجعل الإنسان يمشى بكل طاقته على الأرض وقلبه مشدود إلى السماء. . فضلا عن كون حضارته مفتوحة للبشر جميعا، لا تعرف التمييز العنصرى، ولا العرقى، ولا القومى ولا التعصب الدينى. . وشاهدها هو التاريخ!

* * *

ولكن الإسلام لا يحكم الأرض اليوم، وحضارته غائبة عن الوجود، لأن جنوده ليس لهم حضور فى الأرض. . ولهذا يحكم الباطل الجاهلى، وينتفش ويستكبر، ويملأ الأرض فساداً فى غياب المنهج الربانى الصحيح.

ولكنا نتحدث عن واقع آخر غير الواقع القائم اليوم. .

نتحدث عن المستقبل! ولا نتحدث عن المستقبل القريب، الذى نتوقع فيه مزيدا من الطغيان الغاشم الذى يحارب الإسلام ويحاول خنق الصحوة الإسلامية.

إنما نتحدث عن المستقبل الذى تستيقظ فيه الأمة، فيتحقق الإسلام مرة أخرى فى واقع الأرض، فيصمد للصراع الوحشى، فييأس المصارعون من قتله، فيتعايشون معه راغمين!

ما الفرق إذن بين هذه «الحضارة» وبين ما يجرى فى عالم الوحوش: القوى يأكل الضعيف، أو يزيحه من الطريق؟!

ومن جانب آخر..

هذا الانحلال الخلقى المسفّ، الذى لا مثيل له فى إباحة كل أنواع الفواحش، سوية وشاذة، والتعالن بها، حتى إن زعيم الدولة التى تزعم أن من حقها أن تقود العالم كله، يسف فى علاقاته الماجنة، ثم يقوم فريق من شعبه بالدفاع عنه، بأن هذه حياته الخاصة وهو حرّ فيها!.. هل هذه حضارة؟!

هذه الأمراض النفسية والعصبية والقلق والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة.. هل هذه حضارة؟!

هذا الإعلام الساقط الذى يتفنن فى تزيين الفاحشة وإشاعتها بين الناس.. هل هذه حضارة؟!

تتفيه اهتمامات الناس، بحيث تنصرف اهتماماتهم إلى سفاسف الأمور وتعرض عن معاليها.. هل هذه حضارة؟!

كلا والله! ما هذه حضارة! وإن كثيرا من أنواع الحيوان ليتعفف عن كثير مما يمارسه أولئك «المتحضرون» من اللهو والمجون والإسفاف البالغ أقصى الحدود!

تلك هى القيم الروحية والأخلاقية التى يملكها الغرب..

حقا إنه يملك إيجابيات كثيرة، هى التى أعطته السيادة فى الوقت الحاضر، ولكنها ـ حسب السنن الربانية ـ لا تعيش طويلا بغير قيم روحية وأخلاقية، ومصيرها الدمار:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥].

* * *

البديل الحضارى الذى يملك القيم هو الإسلام..

هذا المستقبل ليس بعيدا بالدرجة التى تنبهم فيها صورته وتخفى على الرؤية، وإن لم يكن قريبًا بالدرجة التى يحلم بها الحالمون. . ففى الطريق كثير من العقبات. . ولكن المبشرات أقوى من المعوقات.

من المبشرات أن الصحوة ذاتها قد ولدت على إثر الجهد الذى بذلته الصليبية الصهيونية للقضاء على الإسلام. . وهذا يشير إلى اتجاه قدر الله فى هذا الأمر.

ومن المبشرات أن كل ما تبذله الصليبية الصهيونية من الجهد فى الوقت الحاضر للقضاء على الصحوة لم يثمر إلا مزيدا من المد الإسلامى، ومزيدا من الوعى بحقيقة موقف الغرب من الصحوة: موقف صليبى فى حقيقته وإن تستر بكل اسم ليس له! وتسانده الصهيونية العالمية لحسابها الخاص.

ومن المبشرات أن الغرب الصليبى الصهيونى لا يكف عن ارتكاب حماقاته ضد الإسلام والمسلمين! وهذا تدبير ربانى يدفعهم الله إليه، بغفلة منهم، لتكون هذه الحماقات دافعا لمزيد من اليقظة، ومزيد من التجاء الأمة إلى الله، وعودتها إلى الإسلام! ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٥].

وبضربة قدر واحدة تتم ثلاثة أمور فى وقت واحد: يعاقب الله الأمة على تقاعسها عن تكاليف دينها، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الروم: ٤١]. ويستدرج الأعداء لمزيد من الطغيان ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [سورة النحل: ٢٥]. . ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤١].

وفى النهاية. . فى موعد نراه غير بعيد بإذن الله، حين تستكمل الصحوة وعيها، وتأخذ امتدادها، وتقدم النموذج الإسلامى الصحيح، الذى يحقق المنهج الربانى فى عالم الواقع، ويقدمه واقعًا مشهودًا لا أمانى ولا شعارات. . عندئذ يتحقق وعد الله الدائم لهذه الأمة:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [سورة النور: ٥٥].


النادي الشبابي

ثانيًا: في التاريخ

١ـ فترة الخلافة الراشدة.

٢ـ تاريخ الأمة لا تاريخ حكامها فحسب!

٣ـ التأثير الإسلامى على أوربا فى عصر النهضة.

٤ـ الحروب الصليبية المعاصرة.

٥ـ صراع الحضارات.

(١)

فترة الخلافة الراشدة

المكتوب عن فترة الخلافة الراشدة كثير، وجيد. . فالخلافة الراشدة من الروعة والرفعة فى كل اتجاه، بحيث تفرض على المؤرخ والأديب والمفكر والكاتب أن يرفع بصره ليرى القمم الشاهقة، ثم يحنى رأسه إجلالا لتلك العظمة التى تمثلت فى واقع مشهود، لا مثيل له فى تاريخ البشرية كله.

ولكن من خلال كلام العلمانيين الذين يحملون أسماء إسلامية عن الإسلام - المنقول بنصوصه وروحه من كلام المستشرقين الحاقدين على الإسلام، الطاعنين فيه - بدا لى أن هناك إضافة مهمة يمكن أن تضاف إلى ما هو مكتوب بالفعل عن هذه الفترة الرائعة من تاريخ البشرية.

فقد كثر فى كلام هؤلاء وهؤلاء أن الحضارة الإسلامية قد اكتسبت عظمتها مما أخذته من الحضارة الفارسية والحضارة البيزنطية - ومن الأخيرة خاصة - وحين احتكت بالفكر اليونانى الذى هو أصل جميع الأصول فى جميع الاتجاهات كما تزعم أوربا لنفسها، ثم يزعمه لها أتباعها ممن يحملون أسماء إسلامية!

من أجل ذلك أرى أنه يجب التركيز على فترة الخلافة الراشدة من حيث إنها فترة إسلامية خالصة لم تتأثر أى نوع من التأثر بأية ثقافة أجنبية. إنما كان الإسلام كما أنزل فى الكتاب والسنة هو لحمتها وسداها، وهو الباعث على كل عمل قامت به فى أى اتجاه اتجهت إليه.

وليس هذا لنفى تأثر المسلمين فيما بعد بحضارات البلاد المفتوحة وثقافاتها، فإننا لا نحتاج أن نلجأ إلى إخفاء شيء من التاريخ (كما تخفى أوربا تأثرها بالإسلام فى

بدء نهضتها) ولا ليّه لإخفاء دلالته التاريخية، وليست لدينا حساسية فى هذا المجال تجعلنا نخفى الواقع. ولكن لهدفين اثنين:

الهدف الأول: بيان القيم الحضارية التى جاء بها الوحى الربانى، فأنشأت واقعا معاشا بالفعل، وأخرجت ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾، لبيان أنها كافية بذاتها دون حاجة لأية إضافة أجنبية لإنشاء الحضارة النموذجية.

والهدف الثانى: بيان أن ما أخذه المسلمون من فارس ومن بيزنطة - وقد أخذوا الكثير - لم يكن فى أسس الحضارة ولا فى قيمها ولا فى آفاقها الرئيسية، إنما كان فى تنظيماتها الإدارية، وتيسيراتها المادية، وقد كان المسلمون فى حاجة إليها، ولكنهم طوعوها لمفاهيمهم الإسلامية، ولم يجروا هم وراءها ليتأثروا بمفاهيمها وقيمها، كما يريد العلمانيون اليوم أن يفعلوا فى حركة الأخذ الثانية، التى جاءت والمسلمون متخلفون فى دينهم، فجاءت لتمسخ حياة المسلمين لا «لتحديثهم» كما يزعم العلمانيون.

* * *

الإسلام هو الذى أنشأ الأمة المسلمة.. هذه حقيقة يجب أن تكون واضحة راسخة لا يلحقها الغبش من أى اتجاه.

ونعلم أن هذه الحقيقة تغيظ الكثيرين فيحاولون بكل طريق أن يلبّسوها بأباطيل تحرّف الحق عن مواضعه!

فالقوميون العرب - وهم ذاتهم أحد المسوخ التى جاءتنا من تقليد الغرب - يزعمون أن الإسلام هو خلاصة الذات العربية، جسدها محمد - ﷺ - وأخرجها فى صورة دين!!

وهواة التفسير المادى للتاريخ - وهم أيضًا أحد المسوخ التى جاءتنا من الغرب - يحاولون أن ينشئوا تفسيرا ماديا للإسلام، يزعمون فيه أنه ابن أوانه، وأن الظروف المادية والاقتصادية هى التى اقتضته، وهى التى أنشأته، وهى التى كتبت له النجاح!

وهواة الثقافة اليونانية - المسخ الثالث الذى جاءنا من تقليد الغرب - يحاولون أن

يجعلوا الإسلام تفريعة عربية من الثقافة اليونانية، ازدهرت بمقدار ما أخذت من الأصول اليونانية، ثم انتكست وخبت حين ابتعدت عن تلك الأصول!

أما عبيد الحضارة الغربية المعاصرة فهم لا يريدون الدين أصلا لأن أوربا لا تريده، ولا يريدون الإسلام بالذات لأن أوربا لا تريد الإسلام بالذات، وينكرون أمجاده التاريخية لأن أوربا تكره الحديث عن تلك الأمجاد!!

* * *

إن اختيار الله العرب ليكون منهم الرسول الخاتم - ﷺ - وليكونوا حملة هذا الدين إلى البشرية، ليس معناه بحال أن الإسلام دين عربى يحمل خصائص الذات العربية ويجسدها كما زعم دعاة القومية العربية فى وقت من الأوقات. فالإسلام كلمة الله إلى البشرية كافة، يخاطب «الإنسان» من حيث هو إنسان، لا من حيث كونه عربيا أو غير عربى. ولا يتعارض هذا مع كون الإسلام يشتمل على صفات أو معان أو قيم كانت موجودة فى العرب، بوصفها صفات، أو معانى أو قيمًا يرضاها الإسلام ويريد أن تكون من صفات «الإنسان الصالح» الذى يسعى الإسلام لإنشائه، لا لأنها عربية بالذات..

إنما اختار الله العرب ليكونوا حملة الرسالة الخاتمة لصفات فيهم هى أنسب الصفات لحمل الرسالة لا لصياغتها. فالصياغة ربانية بحتة، لا دخل لأحد من البشر فيها عربيا كان أم غير عربى:

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٣٨].

يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

وقد كان العرب وقت نزول الرسالة أصلح الناس لتلقيها، وأصلح الناس لحملها، وأصلح الناس لنشرها فى الأرض. فقد كانوا أقرب الناس إلى الفطرة، لم تفسد فطرتهم الحضارات المادية عن يمين وشمال، ولم تبعث فيهم الترهل النفسى الذى كان قد سرى فى فارس والروم، نتيجة الترف والمتاع الحسى، فأخلدوا إلى الأرض، وكرهوا الارتفاع.

وقد كانت فيهم بداوة وخشونة، وكانت الجاهلية قد غطت على فطرتهم بقشرة صلدة هي التي جعلتهم في بادئ الأمر يصدون عن الحق المنزل ويخاصمونه بشدة:

﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾ [سورة مريم: ٩٧].

فقد كان اللدد في الخصومة من طباعهم الذميمة التي أنشأتها الجاهلية. ولكن الفطرة - تحت هذه القشرة الصلدة - كانت سليمة أو أقرب إلى السلامة، فما إن أذابت الدعوة على يد الرسول - ﷺ - بصفاته التي أودعها الله فيه، والتي قال عنها رب العرش: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [سورة القلم: ٤] وقال فيها ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]. وقال فيها ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨]. . ما إن أذابت الدعوة هذه القشرة الصلدة، حتى تلقت الفطر التي كانت سليمة أو أقرب إلى السلامة هذا الدين بشغف، واشتعلت به وجداناتها، فأضاءت الآفاق. .

وكان في العرب فضائل مما يحبه الإسلام، ولكن الجاهلية كانت قد لوّتها فحولتها عن وجهتها الصحيحة، فأعاد الإسلام صياغتها على وجهها الصحيح.

كان فيهم كرم يحبه الله، ولكن الجاهلية كانت قد جعلته إنفاقا من أجل أن تتحدث به الركبان، فإن لم يكن ركبان فلا إنفاق! فسمى الله ذلك: الإنفاق ﴿ رئاء الناس ﴾ وصحح مساره فجعله إنفاقا لوجه الله. وكان فيهم شجاعة يحبها الله، ولكن الجاهلية كانت قد جعلتها عصبية جاهلية سماها الله ﴿ حمية الجاهلية ﴾، وصحح مسارها فأصبحت جهادا لإعلاء كلمة الله. وكان فيهم أنفة تأبى الضيم وهي صفة صالحة من صفات «الإنسان الصالح» ولكن الجاهلية كانت قد جعلتها عزة شخصية أو قبلية فصارت كبرا، فصحح الإسلام مسارها وجعلها اعتزازاً بالله وبالإسلام. .

وكان فيهم قدرة جميلة على عدم الالتصاق بالأرض، وقدرة على الانخلاع منها حين تقتضي الظروف، وقد بدت قيمة هذه القدرة الجميلة حين اقتضت الظروف الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة، كما بدت في قدرة العرب على

الانتشار فى أرض الله الواسعة لنشر الدعوة، ولو كانوا ملتصقين بالأرض ما تحركوا منها، وما انتشرت الدعوة فى الآفاق . .

وكانت القبلية، التى أذابها الإسلام فيما بعد، أو دعا إلى إذابتها فى الكيان الجديد - كيان الأمة - كانت عنصرا فى صالح الدعوة فى بدايتها، إذ أتاحت للرسول - ﷺ - حماية بنى هاشم له ضد قريش، وإن كانوا فى ذلك الحين مخالفين للرسول - ﷺ - فى دعوته، لا يؤمنون بما يدعوهم إليه، ولكنهم مع ذلك يحمونه بسيوفهم ضد عدوان قريش.

وهكذا يتضح الفرق بين القول بأن العرب كانوا أصلح أمة فى وقتهم لتلقى الدعوة ولحملها ولنشرها فى الأرض، وبين أن يقال إن الإسلام دين عربى، جسَّد الذات والتطلعات العربية، وحولها إلى دين!!

أما هواة التفسير المادى للتاريخ فيكفى لدحض دعواهم أنه لم يقم فى الجزيرة العربية ولا فى الأرض كلها - ولعدة قرون تالية - أى تغيّر مادى أو اقتصادى يكون من نتيجته أن يخرج رجل من الجزيرة العربية - بفعل التطورات المادية والاقتصادية - يدعو لترك عبادة الأوثان، ويزيل القداسة عن الحكام، ويردهم عبيداً لله، يطاعون فيما يطيعون فيه ربهم، ولا يطاعون فى معصية ربهم، ويحرر البشر جميعا من عبادة البشر إلى عبادة الله، ويحرر المرأة مما هو واقع عليها من الظلم، ويحرر العبيد بالعتق والمكاتبة بعد أن يجفف كل منابع الرق إلا رق الحرب - معاملة بالمثل وليس تأصيلا للرق - ويزيل عصبية الجنس واللغة واللون والعرق، ويجعل الناس شركاء فى الخير العام عن طريق الزكاة والتكافل، ويحرر العقل من الخرافة، ويحرر الضمير من الأوهام . . وعلى العكس من كل ما يقوله التفسير المادى للتاريخ فإن التغير العقدى هو الذى أحدث تغيرات مادية واقتصادية واجتماعية لم يحدث مثيل بعضها فى أوربا إلا بعد سبعة قرون من مجىء الإسلام، وبعضها بعد أحد عشر قرنا، وبعضها لم تهتد إليه البشرية قط إلا فى الإسلام!

وأما هواة الثقافة اليونانية فنقول لهم إن أبا بكر رضى الله عنه حين قال: «إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى. أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم»، واضعا بذلك

أعظم قاعدة سياسية اهتدت إليها البشرية، لم يكن قد قرأ الفلسفة اليونانية، ولا اطلع على «ديمقراطية» أثينا وإسبرطة، إنما كان قد قرأ كتاب الله، وتلقى عن رسول الله - ﷺ - . . .

وحين قام عمر - رضى الله عنه - يخطب الناس فيقول: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، فقام له سلمان رضى الله عنه يقول: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة! فلا يغضب عمر، ولا يأمر بحبسه ولا جلده، إنما يسأله: ولم؟ فيقول سلمان: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين! فينادى عمر رضى الله عنه ولده عبد الله بن عمر، فيقول له: نشدتك الله! هذا البرد الذى ائتزرت به أهو بردك؟ فيقول: نعم! هو بردى أعطيته أمير المؤمنين لأنه رجل طوال لا يكفيه برد واحد كما نال بقية المسلمين، فيقول سلمان رضى الله عنه: الآن مر! نسمع ونطع! فيضع كلاهما: السائل والمسئول أعظم القواعد السياسية التى يقوم عليها الحكم العادل: رقابة الأمة على أعمال الحاكم، ورضا الحاكم بمحاسبة الأمة له، لم يكن أحدهما قد قرأ الفلسفة اليونانية ولا سمع عنها، ولا شاهد شيئا من هذا القبيل فى أى مكان فى الأرض يومئذ، إنما كان قد قرأ كتاب الله، وتلقى عن رسول الله - ﷺ - . .

وحين ضرب ابن عمرو بن العاص الشاب القبطى الذى نال جائزة السباق دونه ضربة بالعصا، فشكا أبوه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال عمر لعمرو: يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟! فوضع بذلك أعظم قاعدة فى معاملة البلاد المفتوحة، تلك القاعدة التى لم تفئ إليها البشرية قط فى قديم ولا حديث، لم يكن قد قرأ الفلسفة اليونانية، ولا كتابا مؤلفا عن الحرية، إنما كان قد قرأ كتاب الله، وتلقى عن رسوله - ﷺ - [1]!

وعشرات من المواقف وعشرات، نمرّ عليها كأنها تصرفات فردية من هذا

---

(١) من الأعاجيب أن لويس عوض كتب مرة فى مقال له فى جريدة الأهرام أن المسلمين لم يعرفوا كلمة الحرية ولم ترد على ألسنتهم إلا بعد احتكاكهم بالغرب!! ولا يجهل لويس عوض بطبيعة الحال قولة عمر عن الشاب القبطى، فهى أشهر من أن يجهلها تلميذ فى المرحلة الابتدائية أو المتوسطة فضلا عن كاتب مفكر مثقف كبير!

الصحابى أو ذاك، بينما هى الترجمة الحقيقية للمبادئ التى نزل بها القرآن، وعلمها رسول الله - ﷺ - لأصحابه!

وأما عبيد الغرب الذين يكرهون الإسلام لأن أوربا تكره الإسلام، فإنهم لا يستحقون النقاش!

❊ ❊ ❊

نحتاج أن نبرز هذا الجانب فى دراستنا لفترة الخلافة الراشدة ردا على تخرصات المتخرصين!

إننا كثيرا ما نغفل الدلالة التاريخية - الإسلامية - لهذه التصرفات فى سياسة الحكم، لأننا - كما أشرنا آنفا - ننظر إليها على أنها تصرفات فردية من أفذاذ الصحابة - رضى الله عنهم - لا قواعد ومبادئ جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -. ولأننا - فى الواقع التاريخى - نجد انقطاعا عنها فيما بعد فترة الخلافة الراشدة، فيكبر فى حسنا الظن أنها تصرفات فردية لأفذاذ الصحابة - رضى الله عنهم - ويكبر فى حسنا الوهم أن الغرب هو صاحب هذه المبادئ لأنه جسدها فى واقع مشهود، وقعَّد لها قواعد، وترجمها إلى مؤسسات، وألف فيها مؤلفات!

أما الانقطاع الذى حدث بعد فترة الخلافة الراشدة فهو حقيقة، وإن لم يكن بالسوء الذى أوهمنا به المستشرقون لغاية فى نفوسهم، هى صرف المسلمين عن الاعتزاز بتاريخهم، لأنه من بواعث الصحوة، إذ يحدو المسلم إلى محاولة إعادة ذلك التاريخ فى دنيا الواقع، كما أن هذا الاعتزاز - كما اعترف «ڤون جرونيباوم» المستشرق المعاصر، فى كتابه «الإسلام Islam» من أكبر الحواجز التى تحول دون نجاح عملية «التغريب» التى يسعى الغرب إلى إيجادها بين المسلمين للقضاء على الإسلام!

نعم! إن التاريخ السياسى للمسلمين قد يكون أسوأ ما وقع فيه تقصير المسلمين عن دينهم، ولكنه ليس بالسوء الذى يصفه المستشرقون. فقد وجد الاستبداد السياسى حقا فى تاريخ الأمة، ولكنه لم يملأ كل صفحة التاريخ كما يوهمنا أعداؤنا، ولم يخل هذا التاريخ قط من نجوم لامعة تضىء بإشعاعاتها صفحة التاريخ.

ولكن السؤال الذى يجب أن نسأله ليأخذ الموضوع فى حسنا وضعه الطبيعى هو : من الذى ربى هؤلاء الصحابة الأفذاذ الذين قاموا بهذه التصرفات؟ وعلى أى شىء رباهم؟

إن هؤلاء الأفذاذ هم الثمرة المباشرة للتربية النبوية على هدى كتاب الله . . وإلا فمن أين جاءوا؟ ومن أين جاءت تصرفاتهم؟

فى البيئة العربية القبلية كان شيخ القبيلة يطاع لأنه شيخ القبيلة! ولتكن هناك معايير يرجع إليها الناس فى تشييخ شيخهم، ولكن المهم أنه بمجرد أن يصبح هو شيخ القبيلة فقد وجب على كل أفراد القبيلة أن يطيعوه دون مراجعة ولا نقاش!

وعمر - وهو أمير المؤمنين - هو «شيخ الشيوخ» إن صح التعبير، فبمنطق البيئة لابد أن يطاع إن أحسن أو أساء، فضلا عن كون عمر بالذات كان شخصية مرهوبة، بما أضفى الله عليه من الهيبة وعظم الجسم وارتفاع الصوت . . يروى على بن أبى طالب رضى الله عنه - ابن عم رسول الله - ﷺ - ورابع خلفائه - فيقول: كنا نسير ذات مرة وراء عمر، فعن لعمر أمر فالتفت وراءه، فسقطت قلوبنا فى كعوبنا!!

إذا كان هذا شأن البيئة، وشأن عمر بالذات، فمن أين جاء هذا التصرف الذى حدا بسلمان رضى الله عنه أن يقول له أمام الجميع: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة؟! ومن أين جاء التصرف الذى حدا بعمر رضى الله عنه أن يسكت للمساءلة من جانب أحد الرعية ويرضى بها؟ . . لا حدثا عابرا ولا فلتة، فقد أثر عنه حين أراد أحد الصحابة رضى الله عنهم أن ينهر رجلا كلم عمر بلهجة رآها الصحابى غير لائقة، فقال عمر رضى الله عنه: دعه! فلا خير فيهم إن لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إن لم نسمعها منهم!

أهناك مصدر لهذا التحول عن منطق البيئة ومنطلقاتها إلا الإسلام؟!

* * *

فى التأريخ لهذا الجيل الفريد، جيل الصحابة رضوان الله عليهم، يجب أن نفرق بين أمرين: الأسس والقيم والمبادئ التى كانوا يبنون عليها وينطلقون منها،

والدرجة العالية - المذهلة - من روعة الأداء (أى التطبيق) لهذه الأسس والقيم والمبادئ .

أما الأسس والقيم والمبادئ فهى أسس الإسلام وقيمه ومبادئه ، والإسلام هو مصدرها ، ولا مصدر لها غيره . وأما الدرجة العالية - المذهلة - من روعة الأداء فهى خصوصيات اختص بها أولئك الأفذاذ قد لا تتكرر بصورتها ولا فى كثافتها تلك فى جيل من الأجيال حتى تقوم الساعة ، وإن لم يخل عهد من العهود من نماذج فردية ترتفع إلى تلك الآفاق أو تقترب منها . .

وأمر آخر نجعله فى بالنا ونحن ندرس تاريخ تلك الفترة .

من أين جاءت روعة الأداء؟ أمن داخل الإسلام أم من خارجه؟!

يقول رسول الله - ﷺ - : «إن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه»[1] .

فالمطلوب إذن ، الذى هو من أسس الإسلام وقيمه ومبادئه ، هو اتقاء الشبهات . أما حين يقول الصحابة رضوان الله عليهم : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام ، فهذا تطوع نبيل من عند أنفسهم لم يلزمهم به الله ، ولكنه فى الوقت ذاته ثمرة التربية الإسلامية التى تحبب المؤمن فى التقرب إلى الله ، طمعا فى رضاه . .

ويفرض الإسلام الأخوة والتكافل فى المجتمع الإسلامى بدرجات مختلفة . هذا من أسس الإسلام وقيمه ومبادئه . أما حين يحل ضيف على أحد الصحابة رضوان الله عليهم ، وهو لا يملك إلا تمرات هى كل قوته وقوت عياله ، فيطفئ المصباح ويوحى إلى امرأته أن تتظاهر بتناول الطعام دون المساس به ، ليتوافر كله للضيف ، فهذا تطوع نبيل لم يلزمه الله به ، ولكنه ولا شك ثمرة التربية الإسلامية التى تحبب فى مثل هذا السلوك ، الذى أنزل الله فيه قرآنا يتلى إلى يوم القيامة!

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي

---

(١) أخرجه مسلم .

صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر: ٩]. .

كلا الأمرين يهمنا فى التأريخ لهذه الفترة. . ولكن التركيز على روعة الأداء ينسينا فى كثير من الأحيان روعة الأسس والقيم والمبادئ فى ذاتها، حتى فى مستوى الأداء العادى، بصرف النظر عن التطوع النبيل الذى يتعامل مع المندوبات كأنها واجبات، فيرتفع إلى تلك القمم السامقة التى ارتفع إليها الصحابة رضوان الله عليهم فى روعة الأداء.

نريد فى جولتنا الحاضرة أن نركز على الأسس والقيم والمبادئ، على أساس أنها هى الإسلام، لنحاول أن نربى عليها الجيل - أو الأجيال - التى تعيد تحقيق الإسلام فى واقع الأرض، ونبين للناس - المخدوعين بالغرب - كم هى أصيلة تلك الأسس والقيم والمبادئ فى صلب الدين المنزل من عند الله، فلا يظنوا - بتأثير الخديعة - أنها لم توجد إلا فى الغرب، ولا مصدر لها نستلهمه إلا الغرب!

* * *

هنا نقطة - واقعية - مهمة. .

إننا - أى الأمة الإسلامية فى مسارها التاريخى - غفلنا عن كثير من تلك الأسس والقيم والمبادئ حتى كدنا ننساها تماما فى غربة الإسلام الحالية، التى أخبر عنها رسول الله - ﷺ - حين قال: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ. .»[1]. وإننا حين صرنا نتحدث عنها فى وقتنا الحاضر كنا متأثرين بالغرب، حين احتككنا به، ناقلين عنه، لا عن مصادرنا الإسلامية، التى ظننا أنها خاوية من تلك المعانى، وأنها لم ترد فى خاطر البشرية قبل ورودها فى ذهن الغرب الحديث.

نعم. . وكان هذا خطأ يجب تصحيحه، وغفلة يجب أن نعالجها. .

إن انقطاع المسلمين عنها - جزئيا أو حتى كليا فى مسيرتهم التاريخية - لا يلغى الحقيقة، أنها وجدت بالفعل فى تاريخنا - فى فترة الخلافة الراشدة - وأنها حين وجدت كانت مستمدة من الإسلام، وليس من أى مصدر آخر سوى الإسلام.

---

(١) أخرجه مسلم.

وكوننا انقطعنا - جزئيا أو كليا - عن هذه القيم ، فهذه حقيقة يقع وزرها على الأمة فى مجموعها - كل حسب مكانه فى المجتمع - الأمراء والعلماء أولا ثم عامة الناس . ولكننا الآن بصدد صحوة جديدة تحاول أن تعود إلى الأسس الأصيلة فى هذا الدين ، وتبث فيها الحياة مرة أخرى بعد أن كان قد غشاها الركود والإهمال .

وليس معنى هذا ألا نستفيد من تجارب الغرب فى هذا المجال ، وألا نأخذ منه . .

كلا ! ولا كان هذا منهج الأمة فى مسيرتها التاريخية وقت نشاطها وحيويتها . . ولكن فلنعرف بالضبط ماذا نأخذ ، ولنعرف بالضبط الطريقة الصحيحة للأخذ .

لقد أخذ المسلمون الأوائل أمورا كثيرة من فارس وبيزنطة ، كانوا فى حاجة إليها لبناء دولتهم وتسيير حياتهم وإنضاج تجربتهم الحضارية ، ولكنها كانت محصورة فى مجالات ثلاثة : الأمور العلمية ، والأمور التنظيمية ، وأمور الحضارة المادية ، وطوّعوا ذلك كله لمبادئهم هم ، وأسسهم هم ، وقيمهم هم . . ولم يأخذوا شيئا من الأسس والقيم والمبادئ من فارس أو بيزنطة ، إنما أخذوها من الإسلام . ولذلك كانوا يأخذون وهم رافعو الرءوس ، ويأخذون بعزة الذى ينتقى حوائجه من السوق لا بذلّة المتسول الذى يمد يده للاستجداء !

فى حركة الأخذ الثانية التى نعيشها الآن كنا قد فقدنا ذاتيتنا المستقلة لأننا بعدنا عن ديننا ، فلم نعد ننتقى ما نحتاج إليه ، ولم نعد نتجنب ما لا يجوز لنا أخذه ، بل صرنا نمد أيدينا فى ضعف وفى ذلة ، ونأخذ ما يضعه فى أيدينا «السادة» الذين نستجدى منهم ، وهم يضعون فى أيدينا الغث كله ويحجبون عنا الثمين !

ومهمة الصحوة أن تصحح ذلك الأمر ، وتضع الميزان الصحيح للأمور .

فأما العلوم ، وأما أمور الحياة التنظيمية ، وأما متطلبات الحضارة المادية فلا بأس علينا من أخذها ، مادمنا - فى فترة ركودنا وانغلاقنا - صرنا متخلفين فيها . .

وأما الأسس والقيم والمبادئ فلا يجوز لنا أن نأخذها من غيرنا ، ولا نحن فى حاجة إليها . .

إن الأسس والقيم والمبادئ التى أخرجت ذات يوم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

لايتصور فيها النقص الذى يحتاج إلى تكميل من خارجها، ولا القصور الذى يحتاج إلى إضافة عناصر جديدة عليها . .

إنها المنهج الربانى الذى أنزله الله ليحكم حياة البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والذى تمت به النعمة واكتمل الدين:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

أما الوسائل التطبيقية فتتغير وتتحور وتتطور بحسب ما يجد فى حياة الناس من أمور، وهذه لا بأس من الاستفادة فيها من تجارب الأمم الأخرى فيما يناسبنا من أمورهم، لا فى كل أمورهم.

أما الأسس والقيم والمبادئ فهى الثوابت التى تحكم المتغيرات، وتظل هى ثابتة لا تتغير. . ومصدرها اليوم هو ذات المصدر الذى كان منذ نيف وأربعة عشر قرنا: كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -. وأما صورتها التطبيقية فى أروع أداء لها فقد كانت فى فترة الخلافة الراشدة، التى ينبغى أن نعيد دراستها على هذا الأساس، أساس أنها التطبيق المثالى للإسلام، وليس تصرفات فردية من أفذاذ الصحابة رضوان الله عليهم. ولا يجوز أن تخدعنا بساطة الحياة فى تلك الفترة، وتلقائية التصرفات التى كان يقوم بها الناس، عن روعة ما كان فيها من القيم، التى تعجز البشرية اليوم عن كثير منها، بل تنتكس عنها - فى الغرب خاصة - إلى أدنى الدركات.

ومن الطبيعى فى حياة اليوم المعقدة أن يأخذ التطبيق أشكالا تنظيمية أخرى غير التى جرت بها الحياة فى عهد الخلافة الراشدة، وهذه هى التى نجتهد فى استنباطها، ونستفيد بتجارب الأمم الأخرى فيها، أما الأسس ذاتها، والمبادئ ذاتها، والقيم ذاتها، المتضمنة فى العقيدة التى لا تتغير، والشريعة التى لا تتغير، والأخلاقيات التى لا تتغير، فهذه هى «الدين» الذى قال عنه رسول الله - ﷺ - إن كل تغيير فيه بدعة، وكل بدعة ضلالة . .

ومهمة الصحوة أن تحول ذلك إلى واقع مشهود، ليرى الناس فى عالم الواقع كيف يكون الإسلام حين يطبق اليوم التطبيق الحق، وكيف أنه هو - لا غيره - هو طريق الخلاص.

وكوننا انقطعنا ـ جزئيا أو كليا ـ عن هذه القيم، فهذه حقيقة يقع وزرها على الأمة فى مجموعها ـ كل حسب مكانه فى المجتمع ـ الأمراء والعلماء أولا ثم عامة الناس. ولكننا الآن بصدد صحوة جديدة تحاول أن تعود إلى الأسس الأصيلة فى هذا الدين، وتبث فيها الحياة مرة أخرى بعد أن كان قد غشاها الركود والإهمال.

وليس معنى هذا ألا نستفيد من تجارب الغرب فى هذا المجال، وألا نأخذ منه . .

كلا! ولا كان هذا منهج الأمة فى مسيرتها التاريخية وقت نشاطها وحيويتها . . ولكن فلنعرف بالضبط ماذا نأخذ، ولنعرف بالضبط الطريقة الصحيحة للأخذ.

لقد أخذ المسلمون الأوائل أمورا كثيرة من فارس وبيزنطة، كانوا فى حاجة إليها لبناء دولتهم وتسيير حياتهم وإنضاج تجربتهم الحضارية، ولكنها كانت محصورة فى مجالات ثلاثة: الأمور العلمية، والأمور التنظيمية، وأمور الحضارة المادية، وطوّعوا ذلك كله لمبادئهم هم، وأسسهم هم، وقيمهم هم. . ولم يأخذوا شيئا من الأسس والقيم والمبادئ من فارس أو بيزنطة، إنما أخذوها من الإسلام. ولذلك كانوا يأخذون وهم رافعو الرءوس، ويأخذون بعزة الذى ينتقى حوائجه من السوق لا بذلّة المتسول الذى يمد يده للاستجداء!

فى حركة الأخذ الثانية التى نعيشها الآن كنا قد فقدنا ذاتيتنا المستقلة لأننا بعدنا عن ديننا، فلم نعد ننتقى ما نحتاج إليه، ولم نعد نتجنب ما لا يجوز لنا أخذه، بل صرنا نمد أيدينا فى ضعف وفى ذلة، ونأخذ ما يضعه فى أيدينا «السادة» الذين نستجدى منهم، وهم يضعون فى أيدينا الغث كله ويحجبون عنا الثمين!

ومهمة الصحوة أن تصحح ذلك الأمر، وتضع الميزان الصحيح للأمور.

فأما العلوم، وأما أمور الحياة التنظيمية، وأما متطلبات الحضارة المادية فلا بأس علينا من أخذها، مادمنا ـ فى فترة ركودنا وانغلاقنا ـ صرنا متخلفين فيها . .

وأما الأسس والقيم والمبادئ فلا يجوز لنا أن نأخذها من غيرنا، ولا نحن فى حاجة إليها . .

إن الأسس والقيم والمبادئ التى أخرجت ذات يوم ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

لايتصور فيها النقص الذى يحتاج إلى تكميل من خارجها، ولا القصور الذى يحتاج إلى إضافة عناصر جديدة عليها . .

إنها المنهج الربانى الذى أنزله الله ليحكم حياة البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والذى تمت به النعمة واكتمل الدين :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣].

أما الوسائل التطبيقية فتتغير وتتحور وتتطور بحسب ما يجد فى حياة الناس من أمور، وهذه لا بأس من الاستفادة فيها من تجارب الأمم الأخرى فيما يناسبنا من أمورهم، لا فى كل أمورهم .

أما الأسس والقيم والمبادئ فهى الثوابت التى تحكم المتغيرات، وتظل هى ثابتة لا تتغير . . ومصدرها اليوم هو ذات المصدر الذى كان منذ نيف وأربعة عشر قرنا : كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ . وأما صورتها التطبيقية فى أروع أداء لها فقد كانت فى فترة الخلافة الراشدة، التى ينبغى أن نعيد دراستها على هذا الأساس، أساس أنها التطبيق المثالى للإسلام، وليس تصرفات فردية من أفذاذ الصحابة رضوان الله عليهم . ولا يجوز أن تخدعنا بساطة الحياة فى تلك الفترة، وتلقائية التصرفات التى كان يقوم بها الناس، عن روعة ما كان فيها من القيم، التى تعجز البشرية اليوم عن كثير منها، بل تنتكس عنها ـ فى الغرب خاصة ـ إلى أدنى الدركات .

ومن الطبيعى فى حياة اليوم المعقدة أن يأخذ التطبيق أشكالا تنظيمية أخرى غير التى جرت بها الحياة فى عهد الخلافة الراشدة، وهذه هى التى نجتهد فى استنباطها، ونستفيد بتجارب الأمم الأخرى فيها، أما الأسس ذاتها، والمبادئ ذاتها، والقيم ذاتها، المتضمنة فى العقيدة التى لا تتغير، والشريعة التى لا تتغير، والأخلاقيات التى لا تتغير، فهذه هى «الدين» الذى قال عنه رسول الله ـ ﷺ ـ إن كل تغيير فيه بدعة، وكل بدعة ضلالة . .

ومهمة الصحوة أن تحول ذلك إلى واقع مشهود، ليرى الناس فى عالم الواقع كيف يكون الإسلام حين يطبق اليوم التطبيق الحق، وكيف أنه هو ـ لا غيره ـ هو طريق الخلاص .

(٢)

تاريخ الأمة لا تاريخ حكامها فحسب!

معظم تاريخنا هو تاريخ الحكام ـ وخاصة مؤسسى الدول ـ وما جرى فى عهدهم من أحداث!

وأيا كانت الأسباب التى أدت إلى التركيز على التاريخ السياسى للأمة، فقد آن لنا أن نكتب تاريخ الأمة بأسرها، لا تاريخ حكامها فحسب.

والحق أن مؤرخينا القدامى قد التفتوا إلى شىء من ذلك فى كتب «الطبقات» التى شملت طوائف معينة من الأمة كطبقات «المحدثين» وطبقات «الشعراء» وغيرهم.

ولكن الذى أقصده بهذه الدراسة هو تاريخ «الأمة» فى شتى مجالاتها متشابكة كما هى فى الواقع، لا مقسمة إلى فئات متميزة، ولا معزولة فئاتها بعضها عن بعض كأن كلا منها يعيش وحده، مستقلا عن تيار الحياة العام، غير متأثر به ولا مؤثر فيه.

إن الواقع المعاش لأى أمة هو هذا التيار العام الذى يتخذ الأفراد والجماعات مواقعهم فى داخله (أو فى خارجه أحيانا!) والذى يشكل فى مجموعه الوضع الحضارى للأمة: أى مجموع النشاطات التى تقوم بها الأمة، محكومة بالعقائد والأفكار والتصورات التى تسرى فى كيان الناس، فتحركهم بوعى منهم أو بغير بوعى..

لماذا نريد دراسة التاريخ على هذا النحو، ولا نكتفى بالتاريخ المتمركز حول الحكام وما يجرى فى عهدهم من الأحداث؟

لأكثر من سبب فى الحقيقة..

فالحقيقة أن التأريخ على هذا النحو أقرب تصويرا لواقع الأمة من رصد التاريخ من خلال شخص الحاكم، وما وقع فى عهده من أحداث. فشخص الحاكم مهم بالطبع، ويتوقف على نوع اتجاهاته أمور كثيرة فى سير المجتمع، ولكنه فى الحقيقة لا يصوغ الصورة النهائية وحده، سواء كان صالحا أوطالحا، عادلا أو مستبدا، وإنما تشارك الأمة فى صياغة الصورة سلبا أو إيجابا، من خلال موقفها منه، وموقفها من الأحداث العامة. فتكون الصورة النهائية هى حصيلة الكيانين معا: الحاكم من جهة، والأمة فى مجموعها من جهة أخرى. وهذا هو الدرس المستفاد من قوله تعالى فى قصة فرعون: ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ [سورة الزخرف: ٥٤]. والذى ترتب عليه اشتراك الأمة مع فرعون فى المصير يوم القيامة: ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود** ﴾ [سورة هود: ٩٨][١]..

ولكن الذى يهمنا هنا، بالنسبة لتاريخ الأمة الإسلامية، حين نطالب بالتأريخ للأمة فى مجموعها لا لحكامها فحسب، أن التأريخ على هذا النحو يبرز أثر الإسلام فى حياة الأمة الإسلامية ومسيرتها التاريخية أكثر بكثير مما يبرزه تاريخ الحكام بمفردهم، على كل الأهمية التى يمثلها الحكام فى تاريخ البشرية كله.

إن التاريخ السياسى للأمة الإسلامية هو أقل الجوانب إضاءة وإشراقا فى تاريخهم! ولو أُخذَ وحده كما يفعل مؤرخون كثيرون بحسن نية أو بسوء نية، فإنه يعطى انطباعا خَاطئا بأن الإسلام لم يطبق فى واقع الأرض إلا قليلا، وأنه كان شعارات معلقة فى الفضاء أكثر مما كان واقعا يعيشه الناس.

ويحرص المستشرقون بصفة خاصة - وتلاميذهم من ورائهم - على توكيد هذه الصورة فى نفوس الناس، لتخذيلهم عن محاولة العودة إلى الإسلام، التى تقض مضجعهم قضاً، ويتجمعون لمحاولة القضاء عليها بكل سبيل!

وحين يؤخذ تاريخ الأمة على الاتساع، تتغير الصورة كثيرا، ويبدو التاريخ السياسى للأمة كخط أسود - بدرجات مختلفة من السواد - فى صفحة بيضاء! وشتان بين هذه الصورة وتلك!

---

(١) راجع إن شئت كتاب «دروس من قصة الفرعون فى القرآن الكريم»، فصل «مسئولية الأمة».

إن الإسلام منهج حياة كامل، منبثق من عقيدة، ومرتبط بتلك العقيدة فى كل جزئياته. وفى واقع المسيرة التاريخية للأمة قد تختلف قوة ارتباطها بعقيدتها من مجال إلى مجال، ومن جزئية إلى جزئية. ولكن الارتباط قائم بصفة عامة فى جميع المجالات لا تخطئه عين الباحث المدقق، وإن خفى أحيانا عن الأنظار!

وإن أعظم ما قامت به هذه الأمة هو إيمانها بالله الواحد، ونشرها عقيدة التوحيد فى الآفاق!

وقد أصغرت الجاهلية المعاصرة من قيمة التوحيد، حين جعلت أمر العقيدة أمر مزاج شخصى، من شاء أن يؤمن فليؤمن، ومن شاء أن يكفر فليكفر. والكل سواء!!

والجاهلية المعاصرة التى يحمل اليهود لواءها ذات مصلحة لا تخفى فى إصغار قيمة العقيدة، وتحويلها إلى مزاج شخصى لا تأثير له فى واقع الحياة: السياسى أو الاقتصادى أو الاجتماعى أو الفكرى، لأنهم - منذ القدم - مشغولون بتدمير عقائد «الأمميين» لاستحمارهم كما يقول التلمود، وتسخيرهم لمصالحهم، على أساس المقولة الغليظة الواردة فى التلمود: «الأمميون (أى كل الأمم من غير اليهود) هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار، وكلما نفق منهم حمار ركبنا حمارا آخر!!».

وفى الحديث اعترف اثنان منهم على الأقل - «لنين» و«سارتر» - بأن اليهود يسعون إلى هذا التدمير فى عقائد الأمميين بتقديم العقلانية بديلا من الدين، على أساس أنه طالما كان هناك دين فسيقع تمييز مجحف على اليهود، أما إذا ألغى الدين من حياة الناس فسيتعاملون على أساس «العقل» وعندئذ لا يقع التمييز المجحف على اليهود، لأن عقل اليهودى كعقل غيره من الناس!![1]

ولكن مرجع الناس لا ينبغى أن يكون هو الفكر اليهودى، أو التخطيط اليهودى لاستحمارهم!

---

(١) انظر رسالة لنين «حل المشكلة اليهودية» وكتاب سارتر: «تأملات فى المشكلة اليهودية Reflections sur la question Juive»، الذى ترجم إلى الإنجليزية بعنوان Anti - Semite and Jew (أعداء السامية واليهود).

المرجع هو رب العالمين، والوحى المنزل على رسله، الذى يقول إن أهم شىء فى حياة الإنسان هو عقيدته، التى يتمثل فيها خير الدنيا والآخرة، حين تحكم واقع الناس، وتسيرهم بمقتضى المنهج الربانى.

وقد اجتهدت الجاهلية المعاصرة فى إيجاد بدائل تحكم الحياة الدنيا بدلا من الدين، وأوهمتهم - باستغلال الممارسة الخاطئة للكنيسة الأوربية ومظالمها - أن البدائل المستحدثة خير فى حكمها لأمور الحياة الدنيا من حكم الدين! ولكن بقيت الآخرة، التى لا تملك الجاهلية بديلا منها تقدمه للناس! فنشرت الإلحاد فى الأرض، لتقتلع فكرة الآخرة من قلوب الناس اقتلاعا، وتشغلهم بالحياة الدنيا وحدها، بعد أن أفهمتهم - وأوهمتهم - أن الدين لا مدخل له إلى أمور الحياة الدنيا على الإطلاق!

ونحن - المسلمين - أولى الناس أن ندفع هذا الباطل الذى تبثه الجاهلية المعاصرة وتفسد به الأرض، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١]. أى لولا وجود جند للحق يدفع الله بهم جند الباطل لفسدت الأرض. والمسلمون - فى التاريخ كله ومن جميع الرسالات - هم جند الحق الذين يدفع الله بهم جند الباطل، ويمنع بهم فساد الأرض. والله غنى عن أهل الأرض كلهم صالحهم وفاسدهم، وهو قادر على أن يمنع الفساد بغير جند على الإطلاق، ولكن هكذا اقتضت مشيئته!

﴿ **ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [سورة محمد: ٤].

﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [سورة الانفال: ١٧].

* * *

المسلمون أولى الناس أن يعيدوا للدين قدره وأهميته فى حياة الناس، ولا يجاروا الجاهلية المعاصرة فى إصغار قدر الدين، والنظر إليه على أنه أمر ثانوى هامشى فى حياة الناس، وجوده وعدم وجوده سواء!

والمسلمون كذلك أولى الناس أن يعيدوا للعقيدة الصحيحة قدرها، ويبينوا للناس أن مجرد الاعتقاد بوجود الله، وأنه هو الخالق المدبر المحيى المميت لا ينشئ الإيمان الصحيح الذى يطلبه الله من العباد، فقد كان العرب فى الجاهلية يؤمنون بهذا كله كما سجل القرآن عليهم، ومع ذلك كانوا مشركين لأمور ثلاثة رئيسية كانوا واقعين فيها: أنهم يعتقدون أن هناك آلهة أخرى تشارك الله الألوهية ويستنكرون من الرسول - ﷺ - أن يدعوهم لعبادة الله الواحد!

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص: ٥].

ولأنهم يوجهون لغير الله ألوانا من العبادة لا تجوز لغير الله، ولأنهم يحلون ويحرمون (أى يشرعون) بغير ما أنزل الله!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة النحل: ٣٥].

فالإيمان الذى يعتبره الله إيمانا هو الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى، ورسالة محمد - ﷺ - وتوجيه كل ألون العبادة لله وحده دون شريك، واتباع ما أنزل الله فى التحليل والتحريم، والمنع والإباحة، والتحسين والتقبيح (أى فى التشريع).

ثم إن المؤرخين المسلمين هم أولى الناس أن يسجلوا للأمة الإسلامية هذه القيمة العظمى، التى لا تعلوها قيمة فى الوجود كله، وهى أنها آمنت بالله وحده، وعرفت التوحيد صافيا خالصا ومارسته أطول فترة مارست فيها أمة التوحيد الخالص فى التاريخ كله، وأن هذه من مقومات خيريتها التى قررها الله لها!

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠].

وأن هذا الإيمان كان من أمجاد «الأمة» لا من أمجاد حكامها فحسب، لأنه عمل ذاتى قام به كل فرد - أو غالبية الأفراد على أقل تقدير - بدافع ذاتى، نتيجة التربية التى يقوم بها الآباء للأبناء، ويقوم بها الدعاة والعلماء على مر التاريخ.

ثم يحسب للأمة من أمجادها كذلك حرصها على نشر الدعوة إلى الإيمان الصحيح فى ربوع الأرض، ولفترة طويلة من حياتها بلغت عدة قرون. وهى أمجاد تحسب للحاكم وللأمة معا، ولكن الدور التطوعى للأمة فيه يحتاج إلى إبراز وتسجيل، فإنه لولا هذه الرغبة الذاتية المنبعثة من الإيمان ما كان يستطيع حاكم أن يقوم بنشر الدعوة، ولا الجهاد لإعلاء كلمة الله . .

* * *

ولكن أثر الإسلام فى حياة الأمة لا ينحصر فى هذا الأمر وحده، وإن كان هذا وحده قيمة لا تعلوها قيمة فى الدنيا ولا فى الآخرة بشهادة الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة فصلت: ٣٣].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا . . . ﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

إنما المهم أن هذا الإيمان فى حياة الأمة - فى أجيالها الأولى على الأقل - لم يكن مجرد عقيدة مستسرة فى الوجدان، إنما كان عملا بمقتضى هذه العقيدة فى الواقع المشهود للعيان . . ولنأخذ شهادة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه عند ملك الحبشة نموذجا لأثر العقيدة فى الواقع المشهود:

«أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك فبعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة، والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا،

وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك»[1].

ثم ظلت الأمة أجيالا بعد ذلك تعيش بالإسلام اعتقادا وسلوكا رغم فساد الحكام!

يسجل التاريخ أن هذه الأمة فى مسيرتها التاريخية الطويلة - ودع عنك قرنها الأخير الذى تفلتت فيه من الإسلام جملة، إلا ما رحم ربك - كانت فى مجموعها أقل الأمم وقوعا فى الفاحشة، وأقل الأمم شربا للخمر، وأقلها جرائم، وأقلها تعرضا للأمراض النفسية والعصبية، وأكثرها أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، وأكثرها استقرارا أسريا، وأكثرها وفاء بالعهد، وأكثرها تسامحا مع غيرها من أصحاب الديانات الأخرى، وأكثرها ترابطا وتكافلا على فعل الخير..

بل إنها أول «أمة» فى التاريخ تذوب فيها فوارق الجنس واللون واللغة والعرق لتحقق المعنى الحقيقى للأمة.. إن لم نقل إنها الأمة الوحيدة فى التاريخ! وانظر إلى التجمعات البشرية الكبرى فى التاريخ: الإمبراطورية الرومانية فى القديم، والإمبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر الميلادى وقسم من القرن العشرين، والإمبراطورية الروسية التى كانت تسمى الاتحاد السوفييتى، والولايات المتحدة الأمريكية.. هل استطاع واحد منها أن يلغى فوارق الجنس واللون واللغة والعرق ليكوّن أمة حقيقية متجانسة، يربطها رباط واحد، يشمل الجميع على قدم المساواة، أبيضهم وأسودهم على السواء؟!

ثم انظر وضع بلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى فى المجتمع الإسلامى، وفى أمة الإسلام.. لا فى وقتهم فقط ولكن فى التاريخ الممتد فى ذاكرة الأمة إلى اللحظة الحاضرة فضلا عن المستقبل. يقول عمر رضى الله عنه: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا! (يقصد بلالا رضى الله عنه!).

---

(١) عن «الرحيق المختوم» للمباركفورى، إصدار رابطة العالم الإسلامى، الطبعة الخامسة، مكة المكرمة، ص١٠٨.

عمر، العربى، القرشى، فى الذؤابة من قريش، وأمير المؤمنين، يشير إلى بلال العبد الحبشى فيقول عنه سيدنا بلال! وسلمان - الفارسى - يقول عنه رسول الله - ﷺ -: سلمان منا أهل البيت! وصهيب - الرومى - له مكانته بين الصحابة رضوان الله عليهم.

ثم اتسع العالم الإسلامى فشمل أرضا واسعة، وشعوبا كثيرة، ولغات مختلفة، ولكن الرباط الذى يربطها جميعا ظل قائما. لأنه رباط عقيدة، وليس رباطا سياسيا يتعلق بالدولة وسلطانها، ككل التجمعات الكبرى التى تكونت فى التاريخ. بل إن الرباط السياسى قد تفكك داخل الدولة الإسلامية أكثر من مرة، فكانت هناك دولتان، إحداهما فى المشرق والأخرى فى المغرب، ثم جاء وقت تفككت فيه كلتا الدولتين إلى دويلات.. ولكن «الأمة» لم تتفكك مع تفكك الدولة، لأن رباط العقيدة هو الرباط الحقيقى الذى ربط تلك الشعوب المختلفة بعضها مع بعض. وخذ شاهدا على ذلك - وهو مجرد مثال - رحلة ابن بطوطة من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، وكيف كان إحساسه أنه «مواطن مسلم» يجوب «الوطن الإسلامى» الكبير فيستقبل بالترحاب ويودع بالتكريم، لا يشعر فى أى بقعة منه أنه «غريب» أو «أجنبى» بلغتنا الحديثة! إنما هو رحالة يتجول فى «ديار الإسلام» التى تتسع للمسلمين جميعا بلا تفريق..

هذا المعنى «الحضارى» النادر حققته «الأمة» الإسلامية على أروع صورة، ومع ذلك لا يحظى فى كتابات المؤرخين إلا بإشارات عابرة، وهو من أمجاد الأمة التى يجب أن تسجل وتبرز كظاهرة تاريخية فريدة، كما يجب أن تسجل وتبرز على أنها من عمل «الإسلام» ومن آثاره الواقعية فى حياة الناس.

وهذا المعنى يغيب عن الأذهان ولا شك حين يكون تأريخنا متمركزا حول الحكام، وما جرى فى عهدهم من الأحداث!

* * *

ثم لقد أنشأت هذه «الأمة» حضارة فريدة فى التاريخ، متعددة الجوانب، متعددة الآفاق، أهم ما فيها أنها من عمل «الأمة» فى مجموعها، وأنها أثر من آثار الإسلام

الواقعية فى حياة الناس، تلك الآثار التى تفقد كثيرا من بهائها وروائها حين يتمركز التأريخ حول التاريخ السياسى وما وقع فيه من الأحداث. .

خذ الجانب «الفكرى». .

خذ الجهد المخلص الدقيق الذى بذله علماء الأمة فى خدمة «علوم القرآن» و«علوم الحديث» و«علوم الشريعة» و«علوم اللغة» (باعتبارها أداة الفهم الرئيسية للقرآن والحديث). . إنه جهد لا مثيل له فى تاريخ أية أمة أخرى عاشت من قبل، أو تعيش فى وقتنا الحاضر. وهو فى الوقت ذاته جهد ذاتى لا دافع له إلا خدمة هذا الدين. إنه ليس عمل «لجان حكومية» شكلت لدراسة هذه الموضوعات لقاء أجر أو مكافآت! إنه جهد تطوعى، رجاءَ ثواب الآخرة، وخدمةً للعقيدة التى آمن بها أولئك العلماء فتفانوا فى خدمتها بإخلاص يشبه الأساطير!

وخذ الجانب «العلمى» البحت أى المتصل بالعلوم الكونية من طب وفلك ورياضيات وكيمياء وفيزياء، ودراسة للأرض وأبعادها، وليلها ونهارها، واختلاف مشارقها ومغاربها. . من أين جاء؟ ما الذى بعثه فى تلك الأمة الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب؟

إنه الإسلام!

يقولون إنه الاحتكاك بالأمم الأخرى والثقافات الأخرى التى كانت قائمة فى البلاد المفتوحة. ولا عيب فى ذلك إذا كان الأمر كذلك! ولقد كانت تلك الثقافات ولا شك هى «المادة» التى ابتدأ منها علماء المسلمين وتتلمذوا عليها، إذ كانت حياتهم السابقة قبل الإسلام خواء منها. .

ولكن ما القول فى «المنهج»؟!

إن كل العلم الذى كان لدى اليونان والرومان، والذى تتلمذ عليه علماء المسلمين فى بدء اشتغالهم بالعلوم، كان علما نظريا فلسفيا. . فما الذى وجه المسلمين إلى المنهج التجريبى فى البحث العلمى، الذى هو أساس كل التقدم الحاضر فى مجال العلوم؟

أهو شيء آخر غير الإسلام؟!

وبسرعة تعتبر خاطفة فى تاريخ الشعوب انتقل العلماء المسلمون من التتلمذ على «المادة العلمية» التى كانت لدى اليونان والرومان، إلى تصحيح الأخطاء التى وجدوها فى تلك المادة العلمية، إلى الاستقلال عنها، إلى الأستاذية فى تلك العلوم جميعا، التى تتلمذت عليها أوربا فى بدء نهضتها، على ذات المنهج الذى أخذته عن المسلمين، لأنهم وجدوه هو المنهج العلمى الصحيح.

وهناك لدى المنصفين من كتاب الغرب، ولدى المؤرخين المسلمين كتابات جيدة فى هذا الجانب، ولكنها ماتزال قليلة بالنسبة لحجم الحركة الإسلامية التى قامت فى العالم الإسلامى فى عهد نشاطه وازدهاره، كما ينقصها أحيانا الإشارة إلى أثر الإسلام فيها، وأنه هو الدافع الحقيقى الذى دفع إلى تحقيق تلك الأمجاد.

وخذ جانب «عمارة الأرض»..

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: ٦١].

لقد كان العرب فى تاريخهم القديم أمة جوالة، وفى القرآن الكريم إشارة إلى «رحلة الشتاء والصيف»، ولكن تجوالهم كان محدودا بالحدود القريبة، وكان محصورا فى مجال التجارة، ولم يكن يحدث حوله «حضارة».. فلما أسلموا تغير الوضع، ونشأ من تجوالهم أمر جديد!

نشأ عنه من ناحية نشرُ عقيدة التوحيد فى الآفاق، ومن ناحية أخرى بناء حضارة فريدة فى التاريخ، وَأبرز جوانبها - وأشدها أصالة - أنها تأخذ الإنسان كله: جسده وعقله وروحه، بلا انفصام ولا انفصال بين عناصر تكوينه، وتأخذ الدنيا والآخرة معا فى مسار واحد لا تنفصل فيه إحداهما عن الأخرى ولا تتعارض معها فى مسارها.

وهذا بالذات - الذى هو السمة البارزة لهذه الحضارة - غير منقول ولا مجلوب من أى مكان فى الأرض، لأنه لم يوجد فى الأرض إلا فى الإسلام!

لقد استعار المسلمون أشياء كثيرة من فارس وبيزنطة، ومن البلاد المفتوحة عموما، واستفادوا بها كثيرا فى بناء حضارتهم، ولكنهم - كما أشرنا أكثر من مرة -

طوعوها لقيمهم هم، ومبادئهم هم، المستمدة من الإسلام، ولهذا ظلت هذه الحضارة على أصالتها، تبدع فى كل اتجاه، وتنتج إنتاجا إسلاميا، لا تخطئ العين صبغته الإسلامية.

❊ ❊ ❊

كل هذه الأمور لا تظهر فى صورتها الحقيقية، ولا تأخذ الحيز الذى تستأهله، حين يتمركز تأريخنا حول الحكام وما وقع فى عهدهم من الأحداث، بينما هى التاريخ الحقيقى لهذه الأمة، والتاريخ الحقيقى لتأثير الإسلام فى واقع الناس على مدى قرون من الزمان.

وإذا كان أعداؤنا - إلا القلة النادرة منهم - يتعمدون التعتيم على هذه الجوانب من تاريخ الأمة، حسدا من عند أنفسهم، واستكبارا أن يكون أحد غيرهم له أصالة وتميز.. فواجبنا نحن - وفاءً لديننا، ووفاءً لتاريخنا - أن نبرز هذه الجوانب، ونتوسع فى عرضها لجلاء حقيقتها.

ولا نحتاج أن نهوّل فى حديثنا عن هذه الجوانب لتبدو أضخم من حقيقتها، ولا أن نكذب على التاريخ، كما كان هتلر يأمر واضعى المناهج التعليمية أن يقولوا للطلاب فى درس التاريخ إن ألمانيا لم تهزم قط!! وكما يدرس الإنجليز لأبنائهم سير «الأبطال» الذين أنشئوا قوة البحرية البريطانية، وهم كانوا فى حقيقتهم قراصنة يتصدون للسفن لسلبها ونهبها وقتل من فيها! وكما يزعم الأوربيون جميعا أن دافعهم إلى الاستعمار كان نشر الحضارة الأوربية فى البلاد المتأخرة(!) ولم يكن سلب الأقوات، ولم يكن حربا صليبية جديدة ضد العالم الإسلامى!

كلا! لا نحتاج إلى شىء من ذلك، فالأمجاد الواقعية لا تحتاج إلى تهويل، والحقائق فيها أغنى من أن تحتاج إلى تزيين أو تزييف.

إن هذه الأمة هى أول أمة جعلت التعليم العام هدفا من أهدافها تنفق عليه وترعاه، ليكون تعليما مجانيا لمن أراد أن يتعلم، بل يتعلم وهو مكفول من أموال الأوقاف التى يوقفها الخيرون من الناس لأعمال البر، فيتفرغ للعلم وحده غير مشغول بالبحث عن الرزق حتى يتخرج. وأول أمة جعلت العلاج مجانيا فى

«البيمارستانات» (المستشفيات) التى تنشئها الدولة أو ينشئها المحسنون ويوقفون عليها الأوقاف، وأول أمة أقامت دورا للعجزة للإنفاق عليهم ورعايتهم، ودورا لرعاية الحيوانات الضالة والمريضة، و«سبلا» مجانية لسقاية الناس والدواب. . إلى عشرات من مثل هذه الأمور ومئات!

* * *

ولكن هذه النهضة الهائلة التى استمرت عدة قرون لم يكتب لها الاستمرار على حالها من القوة والازدهار، وأخذت فى الانحدار . .

وهنا كذلك ينبغى علينا فى التأريخ أن نتحدث عن تاريخ الأمة لا تاريخ حكامها فحسب!

الأمة مسئولة عن الانحدار كما كانت هى العنصر الفعال فى الازدهار . . الأمة جميعا، بعلمائها، بفئاتها المختلفة لا بحكامها فحسب.

ويجب علينا أن نتوسع فى شرح الأمراض التى أصابت الأمة فأضعفتها حتى أقعدتها، أمانةً للتاريخ من ناحية، وتبصرة لمن أراد الإصلاح من ناحية أخرى، فإن الطبيب لا يستطيع أن يعالج المريض إذا لم يعرف حقيقة مرضه، ولا الأسباب التي أدت إلى إصابته بالمرض، ولا المدى الزمنى الذى استغرقه المرض معه . .

وأبرز ما يجب أن نبرزه فى الدراسة المطلوبة هو «التخلف العقدى» الذى أصاب الأمة، والذى نجمت عنه كل الأمراض الأخرى التى تشكو منها الأمة اليوم: التخلف العلمى، والتخلف الحضارى، والتخلف الحربى، والتخلف الاقتصادى، والتخلف السياسى، والتخلف الأخلاقى، والتخلف الفكرى . .

الفكر الإرجائى الذى يقول إن الإيمان هو الإقرار والتصديق، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان! والفكر الصوفى السلبى العازف عن عمارة الأرض، والتواكل القاعد الذى لا يتحرك، وفساد عقيدة القضاء والقدر وتحولها من عقيدة دافعة إلى عقيدة مخذلة، والاستبداد السياسى وقعود الأمة عن مقاومته . . . إلخ . . إلخ![1]

---

(١) تحدثت فى كتاب «واقعنا المعاصر» عن هذه الأمراض فى فصلى «خط الانحراف» و«آثار الانحراف» والمطلوب بحوث مفصلة فى الموضوع، لا مجرد إشارات فحسب.

وإبراز هذا الجانب ـ بالأمانة الواجبة ـ لازم لجملة أسباب . .

فهو لازم لبيان أن هذه الأمة انبعثت من العقيدة الربانية الصحيحة . . فهكذا تفعل العقيدة الربانية الصحيحة فى واقع الأرض، حين تؤخذ على حقيقتها، وتمارس على حقيقتها . . وإبراز هذه الحقيقة لازم لنا فى مواجهة الجاهلية المعاصرة التى تصغر من قيمة العقيدة حتى تجعلها مزاجا شخصيا لا أثر له فى واقع الحياة.

ولازم لبيان أنه حين تفسد العقيدة تفسد الحياة، وتتبدل أمور المسلمين من القوة والصحة والتمكين فى الأرض، إلى المرض والضعف وزوال التمكين. وإبراز هذه الحقيقة بالنسبة للأمة الإسلامية لازم فى مواجهة الفتنة التى تحدثها الجاهلية المعاصرة بكونها كافرة جاحدة وممكنة فى الأرض فى الوقت ذاته!

إن السنن الربانية فيها العام الذى يشمل الناس جميعا، كفارا ومؤمنين، والخاص الذى يشمل الكفار وحدهم ولا ينطبق على المسلمين، أو يشمل المسلمين وحدهم ولا ينطبق على الكفار.

والتمكين فى الأرض مع الكفر والجحود سنة خاصة بالكفار وحدهم:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤].

أما المسلمون فلا يمكنهم الله فى الأرض إلا إذا استوفوا شروط الايمان:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور: ٥٥][1].

وأهمية إبراز هذه الحقيقة أنها تحدد طريقة العلاج الصحيح . . .

لابد أولا من تصحيح العقيدة لإصلاح الأمة . . وإلا فلا علاج!

وهناك أمراض تحتاج ولاشك إلى علاج «نوعى» كالتخلف العلمى، والتخلف الحربى، والتخلف الاقتصادى، والتخلف المادى . . ولكن تجربة قرنين من الزمان

---

(١) اقرأ إن شئت «قضية التنوير فى العالم الإسلامى».

فى محاولة علاج هذه الأمراض بالعلاج النوعى وحده دون إصلاح المرض الأصلى وهو التخلف العقدى قد أثبتت فشلها الذريع، وظلت الأمة تنحدر وتنحدر على خطى هذا النوع من العلاج القاصر حتى أوشكت أن تتلاشى. . لولا فضل الله[1].

ثم إن إبراز هذا الجانب لازم لتوكيد مسئولية الأمة - فى مجموعها - عما يمر بها من الأحداث. .

الأمة فى مجموعها وليس الحكام وحدهم!

وأبرز الأمثلة التى توضح هذه الحقيقة قضية السلطان عبد الحميد. .

لقد كان عبد الحميد واعيا تماما لما تخطط له أوربا لتفتيت الدولة العثمانية، ومحاولة القضاء على الإسلام، وواعيا تماما كذلك لدور الصهيونية والماسونية فى عملية التدمير التى يجرى الإعداد لها من أجل استلاب فلسطين من المسلمين وإقامة دولة لليهود على الأرض المقدسة. وكان عاملا بكل ما وسعه من جهد لإحباط تلك المخططات كلها، ساهرا على تتبع الأحداث. . ولكنه كان يعمل وحده! كان يريد أن يرفع الحمل الثقيل وحده، فيثقل بين يديه ويغلبه فى النهاية. . ذلك أن «الأمة» لم تكن على مستوى الأحداث. . كانت تغط فى سبات عميق!

كانت الماسونية قد تغلغلت فى الجيش، بل كان المفتى الذى أفتى بعزل عبدالحميد هو ذاته ماسونيا! وكانت الأفكار القومية تسرى فى أكثر من مكان فى ولايات الدولة المختلفة، ينفخ فيها اليهود والنصارى، وأعوانهم من المسلمين المستغفلين المبهورين ببريق الغرب، المحجوبة أبصارهم عن اللعبة التى يراد منهم أن يلعبوها وهم غافلون!

وأهم من ذلك كله أن الإسلام كان قد تحول عند الناس إلى تقاليد خاوية من الروح الحقيقية الدافعة التى أخرجت هذه الأمة للناس أول مرة، ودفعتها إلى إنشاء تلك الحضارة الفريدة فى التاريخ. .

* * *

---

(١) راجع: «قضية التنوير فى العالم الإسلامى».

وثمت عبرة هامة نخرج بها من التأريخ على هذا النحو . .

إن الجماعات الإسلامية التى تسعى إلى تسلم الحكم ظنا منها أنها تستطيع - من فوق كراسى الحكم - أن تصلح أحوال الأمة، محتاجة إلى التبصر فى هذه القضية المصيرية . .

حقيقة إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عثمان رضى الله عنه . ولكن حين يكون السلطان هو الوازع الأوحد، أو الوازع الرئيسى، لا تصلح أحوال الأمة! ويكون أمرها مرتبطا بالسلطان، إن سقط سقط معه كل شىء! فضلا عن احتياج السلطان حينئذ أن يستخدم القوة لإجبار الناس على الصلاح، والقوة وحدها لا تصلح شيئا فى حياة الناس!

إنه لابد من القرآن أولا، ثم يأتى السلطان ليزع ما لم يزعه القرآن!

لابد من تربية الأمة أولا - أو قطاع منها على الأقل - على حقيقة الإسلام - لكى يستطيع السلطان بعد ذلك - بمعاونة هذا الفريق من الأمة - أن ينشر التربية المطلوبة فى ربوع الأمة، ليصلح أحوالها، لينتشلها من كبوتها، ويضع خطاها على الطريق الصاعد من جديد . .

لابد من العالم والداعية أولا، ولفترة غير قصيرة من الوقت. وحين يؤتى العلم الصحيح بالدين ثماره، وتؤتى الدعوة ثمارها كذلك . . عندئذ يستطيع السلطان أن يصلح أحوال الناس بعد أن يكون قد مهد له القرآن!

لابد من القاعدة الصلبة، التى تستمد صلابتها من الايمان[1]!

---

(١) اقرأ إن شئت كتاب «كيف ندعو الناس».

(٣)

التأثير الإسلامى على أوربا
فى عصر النهضة

هذه الدراسة تحتاج إلى جهد خاص من قبل المؤرخين المسلمين، بسبب التعتيم الإعلامى الذى تفرضه أوربا على تاريخ هذه الفترة، وادعائها أن كل ما أخذته من المسلمين[١] كان هو الفكر اليونانى الذى كانوا هم قد غفلوا عنه فى قرونهم الوسطى المظلمة، فحفظه لهم المسلمون (!) حتى إذا استيقظوا (من ذات أنفسهم) وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، فراحوا يقيمون نهضتهم على جذورهم الخاصة، وقيمهم الخاصة، بعد أن أعادوا التعرف عليها!

كبر ما بعده كبر! وعصبية صليبية فكرية واضحة!

يكرهون أن يقروا بأنهم تأثروا بأى شىء خارج كيانهم، وخارج قارتهم، ويكرهون أن يعترفوا بأن الإسلام بالذات ـ الذى يكرهونه كراهية صليبية ـ كان له أى تأثير فى حياتهم!

ولكن بين الفينة والفينة يظهر إنسان منصف من بينهم يكذب دعاواهم، ويقول الحق، ويظهر المخبوء!

يقول بريفولت فى كتاب «بناء الإنسانية The Making of Humanity» بعد أن يقرر أن المنهج التجريبى فى البحث العلمى ـ الذى قامت على أساسه الحركة العلمية المعاصرة ـ لم تكن له أية جذور فى أوربا، وأن المسلمين هم الذين أنشئوه، ومنهم

---

(١) يكره الأوربيون أن يذكروا الإسلام باسمه، ولا المسلمين بصفتهم، فيقولون «العرب» بدلا من المسلمين!

تعلمته أوربا . . يقول: «ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد أوربا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية»[(١)].

فى هذه الكلمات القلائل تكمن القضية. فعودة أوربا إلى الحياة بعد الغفوة الطويلة التى وقعت فيها لم تكن تلقائية، إنما كانت نتيجة التأثير الإسلامى المتنامى داخل أوربا الذى بلغ قمته - كما يقول المؤرخ البريطانى «ويلز» - فى بدايات القرن السادس عشر.

يقول «ويلز» فى كتاب «معالم تاريخ الإنسانية»: «ولو تهيأ لرجل ذى بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم فى مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنتج أنه لن تمضى إلا بضعة أجيال قليلة، لا يلبث العالم أجمع أن يصبح مغوليا، وربما أصبح إسلاميا»[(٢)].

العالم أجمع، وليس أوربا فحسب. . وأوربا على أى حال جزء من ذلك العالم الذى كان وشيكا أن يدخل كله فى الإسلام.

* * *

دخل التأثير الإسلامى إلى أوربا من ثلاثة معابر رئيسية: الحروب الصليبية، والعلاقات التجارية التى أقامتها جنوة والبندقية أولا، ثم غيرهما من المدن بعد ذلك، والتأثير الثقافى الذى جاء من الأندلس، وصقلية الإسلامية، وجامعات الشمال الإفريقى وجامعات المشرق الإسلامى، التى أرسلت أوربا أبناءها إليها ليتعلموا، فعادوا متأثرين بالإسلام، وبالثقافة الإسلامية والعلوم الإسلامية، فقامت النهضة الأوربية!

يصف أحد رجال الدين النصارى - وهو ألفارو القرطبى - تأثير الإسلام على الشباب النصرانى فى الأندلس فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) فيقول:

---

(١) نقلا عن كتاب تجديد الفكر الدينى تأليف محمد إقبال ترجمة عباس محمود، ص١٤٩ من الترجمة العربية.

(٢) ويلز، معالم تاريخ الإنسانية ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة حـ٣ ص ٩٦٦.

«. . وا أسفاه! إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب، ليسوا على علم بأى أدب ولا أية لغة غير العربية، فهم يقرءون كتب العرب، ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة. وإنهم ليترنمون فى كل مكان بمدح تراث العرب. وإنك لتراهم من الناحية الأخرى يحتجون فى زراية إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفات غير جديرة بالتفاتهم! فواحر قلباه! لقد نسى المسيحيون لغتهم، ولا يكاد يوجد منهم واحد فى الألف قادر على إنشاء رسالة إلى صديق بلاتينية مستقيمة! ولكن إذا استدعى الأمر كتابة بالعربية فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه فى تلك اللغة بأعظم ما يكون من الرشاقة، بل قد يقرضون من الشعر ما يفوق فى صحة نظمه شعر العرب أنفسهم!»[1].

وهى شهادة لا تحتاج إلى تعليق!

ولنا أن نتصور حدوث أمثالها فى بقية أوربا، حين بدأت أوربا ترسل أبناءها ليتعلموا فى مدارس المسلمين.

لقد كان تأثير الإسلام هائلا على أوربا بمقدار ما وجدوا من اختلاف بين واقعهم الذى كانوا يعيشونه، وبين الواقع الإسلامى الذى اكتشفوه حين احتكوا به. وإذا أردنا أن نتصور هذا التأثير على حقيقته فلننظر إلى واقعنا المعاصر، ومدى انبهار المسلمين بالحضارة الغربية حين احتكوا بها عن طريق الاستعمار من جهة، والابتعاث من جهة أخرى، فاكتشفوا الفارق الضخم بين واقعهم الذى كانوا يعيشونه وواقع الغرب. . بل يجب أن نضيف إلى الصورة أن الفارق بين واقع أوربا عندئذ وواقع المسلمين كان أضخم بكثير من الفارق بين واقعنا المعاصر وواقع الغرب. . فقد كان واقعنا سيئا، ومتخلفا فى جميع الجوانب، ولكن كان الناس يضمون جوانحهم على «شىء» يحسبونه هو الإسلام، بينما هو فى حقيقته تقاليد إسلامية خاوية من الروح، أما فى أوربا فلم يكن الناس يضمون جوانحهم على شىء سوى الظلمات!

لقد كان الدين عندهم ـ كما تقدمه الكنيسة ـ دينا أخرويا يصرف الناس عن الحياة

---

(١) ڤون جرونيباوم، حضارة الإسلام، إصدار مشروع الألف كتاب بوزارة التعليم العالى بالقاهرة، ص ٨٠ ـ ٨٢ من الترجمة العربية.

الدنيا وعمارة الأرض، ودينا رهبانيا يرى الخلاص فى احتقار الجسد وعالم الحس، والانصراف عن متاع الأرض من أجل تزكية الروح، والفوز بالملكوت فى الآخرة. . دينا يحقر الإنسان لأنه خاطئ بطبعه، وينظر إلى بذل النشاط فى الأرض على أنه معصية للرب!

وكانت الكنيسة تحجر على العقل البشرى أن يفكر، وتطالب الناس بالتسليم المطلق لما تقول، فخبت مواهب الناس الفكرية، وجمدت الأفكار وتحجرت العقول، وذلك فضلا عن ألوان الطغيان التى كان يمارسها رجال الدين فى كل اتجاه. .

واستنامت أوربا لهذه الأوضاع زمنا ليس بالقصير، تحت القهر الواقع عليها من السلطان السياسى الجائر، والسلطان الدينى الجائر، والظلم الاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى الإقطاع.

فلما احتكت أوربا بالإسلام والمسلمين، اطلعت على عالم يختلف تماما عن عالمها. عالم يموج بالحركة: العلمية والحضارية والصناعية والتجارية والفكرية والأدبية والروحية. عالم لا كنيسة فيه تغل العقل عن التفكير، ولا إقطاع فيه يستعبد البشر. عالم تحكمه شريعة موحدة يتحاكم إليها القوى والضعيف، والغنى والفقير. . عالم متقدم حضاريا، مثقف علميّا، متحرر فكريا ووجدانيا، يتحرك فيه المسلمون من المحيط إلى المحيط بلا حواجز ولا عقبات. .

وكان أول آثار هذا الاحتكاك رغبة أوربا فى ممارسة الحياة فى عالم الواقع بعد قرون من التوجه إلى الآخرة وإهمال الدنيا، ورغبتها فى ممارسة التفكير بعد قرون من الحجر على العقل، ورغبتها فى التعرف على أحوال الدنيا سواء بالسياحة فى الأرض أو طلب العلم أو طلب الرزق، ومما يذكر فى هذا الباب أن كلمة Risk بمعنى المخاطرة مأخوذة من طلب الرزق فى العربية، واقتحام المخاطر فى سبيله! وهى واحدة من حوالى ألف كلمة عربية دخلت فى لغات أوربا نتيجة احتكاكها بالمسلمين!

نستطيع أن نقول باختصار إن الذى بعثه احتكاك أوربا بالإسلام هو «رغبة الحياة»

التى تولدت عنها النهضة الأوربية متأثرة فى كل جوانبها بالإسلام والحضارة الإسلامية.

ففى مجال العقيدة قامت حركات الإصلاح الدينى فى أوربا، التى كان همها الأول إزالة السلطان الطاغى للكنيسة، وإزالة «القداسة» عن البابا والتعامل معه على أنه بشر غير معصوم. وفى هذا المجال نستطيع أن نرصد حركة ليو الثالث محطم التماثيل، ثم حركات كلفن ومارتن لوثر، وغيرها من حركات الإصلاح.

وفى المجال العلمى تبنت أوربا المنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى كان المسلمون يتبعونه، وكان رائدهم فى ذلك روجر بيكون، كما تبنى علماؤهم العلوم الإسلامية، وعلى رأسهم كوبرنيكوس (كوبرنيق) وجاليليو، وظلت كتب العلوم الإسلامية فى الطب والفلك والرياضيات تدرس فى أوربا ـ بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية ـ حتى القرن السابع عشر، وبقيت نظريات ابن الهيثم فى علم الضوء تدرس فى جامعاتهم حتى بداية القرن التاسع عشر.

وفى مجال الفكر السياسى والاجتماعى والتشريعى نجد أنهم نبذوا نظرية الحق الإلهى المقدس، وأخذوا يبحثون عن أسس أخرى للسلطة، كما تأثر القانون المدنى الفرنسى تأثرا واضحا بفقه مالك، كما أزيل الإقطاع الذى كان يجعل أمير الإقطاعية هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها فى آن. واسترد «الإنسان» اعتباره بوصفه قوة إيجابية فاعلة، بعد ما كان مزريا به من أجل خطاياه!

وفى مجال الأدب نجد تأثرات واضحة. فالكوميديا الإلهية لدانتى متأثرة برسالة الغفران للمعرى، وشعر الفروسية متأثر بأخلاقيات الفروسية الإسلامية، وبشعر العذريين العرب. كما تأثر أدب الرحلات فكانت رحلات جليڤر، وروبنسون كروزو صدى لرحلات السندباد..

كما أن الرحلات الاستكشافية الأوربية ما كانت لتقوم لولا الخرائط الإسلامية، والآلات البحرية والفلكية كالاصطرلاب وغيره مما بعث فاسكو داجاما وماجلان وماركو بولو إلى القيام برحلات الاستكشاف حول العالم.

وفى العمارة تأثرت أوربا بنظام الأعمدة والأقواس فى المساجد الإسلامية، كما

الدنيا وعمارة الأرض، ودينا رهبانيا يرى الخلاص فى احتقار الجسد وعالم الحس، والانصراف عن متاع الأرض من أجل تزكية الروح، والفوز بالملكوت فى الآخرة.. دينا يحقر الإنسان لأنه خاطئ بطبعه، وينظر إلى بذل النشاط فى الأرض على أنه معصية للرب!

وكانت الكنيسة تحجر على العقل البشرى أن يفكر، وتطالب الناس بالتسليم المطلق لما تقول، فخبت مواهب الناس الفكرية، وجمدت الأفكار وتحجرت العقول، وذلك فضلا عن ألوان الطغيان التى كان يمارسها رجال الدين فى كل اتجاه..

واستنامت أوربا لهذه الأوضاع زمنا ليس بالقصير، تحت القهر الواقع عليها من السلطان السياسى الجائر، والسلطان الدينى الجائر، والظلم الاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى الإقطاع.

فلما احتكت أوربا بالإسلام والمسلمين، اطلعت على عالم يختلف تماما عن عالمها. عالم يموج بالحركة: العلمية والحضارية والصناعية والتجارية والفكرية والأدبية والروحية. عالم لا كنيسة فيه تغل العقل عن التفكير، ولا إقطاع فيه يستعبد البشر. عالم تحكمه شريعة موحدة يتحاكم إليها القوى والضعيف، والغنى والفقير.. عالم متقدم حضاريا، مثقف علميًا، متحرر فكريا ووجدانيا، يتحرك فيه المسلمون من المحيط إلى المحيط بلا حواجز ولا عقبات..

وكان أول آثار هذا الاحتكاك رغبة أوربا فى ممارسة الحياة فى عالم الواقع بعد قرون من التوجه إلى الآخرة وإهمال الدنيا، ورغبتها فى ممارسة التفكير بعد قرون من الحجر على العقل، ورغبتها فى التعرف على أحوال الدنيا سواء بالسياحة فى الأرض أو طلب العلم أو طلب الرزق، ومما يذكر فى هذا الباب أن كلمة Risk بمعنى المخاطرة مأخوذة من طلب الرزق فى العربية، واقتحام المخاطر فى سبيله! وهى واحدة من حوالى ألف كلمة عربية دخلت فى لغات أوربا نتيجة احتكاكها بالمسلمين!

نستطيع أن نقول باختصار إن الذى بعثه احتكاك أوربا بالإسلام هو «رغبة الحياة»

التى تولدت عنها النهضة الأوربية متأثرة فى كل جوانبها بالإسلام والحضارة الإسلامية.

ففى مجال العقيدة قامت حركات الإصلاح الدينى فى أوربا، التى كان همها الأول إزالة السلطان الطاغى للكنيسة، وإزالة «القداسة» عن البابا والتعامل معه على أنه بشر غير معصوم. وفى هذا المجال نستطيع أن نرصد حركة ليو الثالث محطم التماثيل، ثم حركات كلڤن ومارتن لوثر، وغيرها من حركات الإصلاح.

وفى المجال العلمى تبنت أوربا المنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى كان المسلمون يتبعونه، وكان رائدهم فى ذلك روجر بيكون، كما تبنى علماؤهم العلوم الإسلامية، وعلى رأسهم كوبرنيكوس (كوبرنيق) وجاليليو، وظلت كتب العلوم الإسلامية فى الطب والفلك والرياضيات تدرس فى أوربا - بعد ترجمتها إلى اللغات الأوربية - حتى القرن السابع عشر، وبقيت نظريات ابن الهيثم فى علم الضوء تدرس فى جامعاتهم حتى بداية القرن التاسع عشر.

وفى مجال الفكر السياسى والاجتماعى والتشريعى نجد أنهم نبذوا نظرية الحق الإلهى المقدس، وأخذوا يبحثون عن أسس أخرى للسلطة، كما تأثر القانون المدنى الفرنسى تأثرا واضحا بفقه مالك، كما أزيل الإقطاع الذى كان يجعل أمير الإقطاعية هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها فى آن. واسترد «الإنسان» اعتباره بوصفه قوة إيجابية فاعلة، بعد ما كان مزريا به من أجل خطاياه!

وفى مجال الأدب نجد تأثرات واضحة. فالكوميديا الإلهية لدانتى متأثرة برسالة الغفران للمعرى، وشعر الفروسية متأثر بأخلاقيات الفروسية الإسلامية، وبشعر العذريين العرب. كما تأثر أدب الرحلات فكانت رحلات جليڤر، وروبنسون كروزو صدى لرحلات السندباد..

كما أن الرحلات الاستكشافية الأوربية ما كانت لتقوم لولا الخرائط الإسلامية، والآلات البحرية والفلكية كالاصطرلاب وغيره مما بعث فاسكو داجاما وماجلان وماركو بولو إلى القيام برحلات الاستكشاف حول العالم.

وفى العمارة تأثرت أوربا بنظام الأعمدة والأقواس فى المساجد الإسلامية، كما

نقلت نقوش إسلامية تحوى كتابات عربية إسلامية على أنها زخارف (لا يدركون معناها فى الغالب، ففيها لفظ الجلالة، وفيها عبارات مما وجدوه فى مساجد المسلمين!) وعرفت البيوت الحمامات الخاصة فى داخلها، وحتى القرن السابع عشر لم يكن فى البيوت حمامات!

وهكذا كان التأثير الإسلامى واضحا فى جميع المجالات..

أما العودة إلى الفكر اليونانى، وزعم أوربا أنه هو سبب النهضة فلابد من وقفة لتفنيده..

لقد كان التأثير الإسلامى على أوربا عنيفا، كما نرى من أحوال الغزو الفكرى الغربى فى بلاد المسلمين اليوم أو أشد. وكان الإقبال على تعلم العربية، والتأثر بما هو مكتوب بالعربية بالغ الشدة كما رأينا من كلام ألفارو القرطبى الذى أثبتناه آنفا..

عندئذ جن جنون الكنيسة الأوربية، ووقفت تقاوم المد الإسلامى الزاحف على أوربا، الذى أشار إليه المؤرخ البريطانى «ويلز» واستخدمت فى ذلك وسيلتين كبيرتين، الأولى هى محاكم التفتيش، بكل ما تحمل من وسائل التعذيب البشع التى تصل إلى حد حرق الناس أحياءً بالنار، فضلا عن سمل عيونهم، وصمل آذانهم، وجدع أنوفهم، ونزع أظافرهم، ووضعهم على آلات الشد التى تمزق أجسادهم، وربطهم فى الخيول التى تجرهم فى اتجاهات مختلفة حتى تنفصل أجزاء أجسامهم بعضها عن بعض.. إلى غير ذلك من البشاعات، التى تمارس مع كل من تشك الكنيسة فى تغير ولائه للكنيسة، وكان من بين ذلك العلماء الثلاثة الذين حكم عليهم بالحرق فى النار لأنهم يرددون أفكارا علمية أخذوها من علوم المسلمين كفكرة كروية الأرض[1]، وهم جردانوا برونو، الذى أحرق بالفعل فى النار، وكوبرنيكوس الذى توفى قبل أن ينفذ فيه الحكم، وجاليليو الذى تظاهر بالرجوع عن أفكاره لينجو من الحرق ولكنه على فراش الموت ظل يردد: الأرض كروية! الأرض كروية! حتى مات..

---

(١) كانت فكرة كروية الأرض معلومة عند المسلمين منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وما بعده، وعنهم أخذها علماء أوربا.

أما الوسيلة الثانية التى استخدمتها الكنيسة لوقف المد الإسلامى فكانت تكليف الكنيسة كتابها أن يشوهوا صورة الإسلام، ويتناولوا بالتجريح شخص الرسول ـ ﷺ ـ فسموه «عدو المسيح Anti - Christ» ووصفوه بكل نقيصة: أنه رجل شهوانى سفاح سفاك دماء.. إلخ، وهاجموا القرآن وشككوا فى الوحى ووصموا المسلمين بالوحشية والبربرية (ونسوا وحشية أعمالهم هم فى الحروب الصليبية!) وقاموا بحملة إعلامية واسعة ضد الإسلام والمسلمين، تنفر أوربا فى النهاية من اعتناق هذا الدين..

وقد كان!

وأثرت الوسيلتان معا فى إبعاد أوربا عن الإسلام، وإيجاد عداء دفين بينها وبين الإسلام لا يستند إلى منطق ولا علم ولا واقع، لكنه راكز فى الأعماق!

عندئذ وجدت أوربا نفسها فى طريق مغلق: لا دينها أصبح عندها موضع الثقة فتلجأ إليه، ولا الإسلام الذى تأثرت به فى نهضتها أصبح محببا إلى نفوسهم بعد الحملة الإعلامية المضادة.. فلجئوا إلى التراث الإغريقى مرة أخرى يسندون به نهضتهم و«يؤصلونها» بأصل أوربى عريق!

ولكن حتى هنا ينبغى أن نلحظ أنهم لم يتناولوا الفكر اليونانى مباشرة من منابعه الأصلية، إنما تناولوه مشروحا ومفصلا على يد ابن سينا وابن رشد اللذين حاولا أن يوجدا «فلسفة إسلامية» مبنية على الفكر اليونانى! فاتخذتهما أوربا جسرا يعبرونه للعودة إلى التراث!

وهذا ـ وحده ـ هو الذى يعترفون فيه بأثر الإسلام عليهم، لأنه مشوب بفكرهم، وينكرون كل الحقائق التاريخية الأخرى، وهى بالعشرات!

* * *

ما الذى يعنينا من هذا كله؟!

يعنينا أولا أن نتعرف على جزء شبه مجهول من تاريخنا. وتاريخ كل أمة هو مرآتها، وهو مختزنها الثقافى والوجدانى الذى تعيش به، ومن يفقد تاريخ أمته يصبح كالذى يفقد ذاكرته، يضيع منه حاضره كما يضيع ماضيه.

أما الوسيلة الثانية التى استخدمتها الكنيسة لوقف المد الإسلامى فكانت تكليف الكنيسة كتابها أن يشوهوا صورة الإسلام، ويتناولوا بالتجريح شخص الرسول - ﷺ - فسموه «عدو المسيح Anti - Christ» ووصفوه بكل نقيصة: أنه رجل شهوانى سفاح سفاك دماء.. إلخ، وهاجموا القرآن وشككوا فى الوحى ووصموا المسلمين بالوحشية والبربرية (ونسوا وحشية أعمالهم هم فى الحروب الصليبية!) وقاموا بحملة إعلامية واسعة ضد الإسلام والمسلمين، تنفر أوربا فى النهاية من اعتناق هذا الدين..

وقد كان!

وأثرت الوسيلتان معا فى إبعاد أوربا عن الإسلام، وإيجاد عداء دفين بينها وبين الإسلام لا يستند إلى منطق ولا علم ولا واقع، لكنه راكز فى الأعماق!

عندئذ وجدت أوربا نفسها فى طريق مغلق: لا دينها أصبح عندها موضع الثقة فتلجأ إليه، ولا الإسلام الذى تأثرت به فى نهضتها أصبح محببا إلى نفوسهم بعد الحملة الإعلامية المضادة.. فلجئوا إلى التراث الإغريقى مرة أخرى يسندون به نهضتهم و«يؤصلونها» بأصل أوربى عريق!

ولكن حتى هنا ينبغى أن نلحظ أنهم لم يتناولوا الفكر اليونانى مباشرة من منابعه الأصلية، إنما تناولوه مشروحا ومفصلا على يد ابن سينا وابن رشد اللذين حاولا أن يوجدا «فلسفة إسلامية» مبنية على الفكر اليونانى! فاتخذتهما أوربا جسرا يعبرونه للعودة إلى التراث!

وهذا - وحده - هو الذى يعترفون فيه بأثر الإسلام عليهم، لأنه مشوب بفكرهم، وينكرون كل الحقائق التاريخية الأخرى، وهى بالعشرات!

❊ ❊ ❊

ما الذى يعنينا من هذا كله؟!

يعنينا أولا أن نتعرف على جزء شبه مجهول من تاريخنا. وتاريخ كل أمة هو مرآتها، وهو مختزنها الثقافى والوجدانى الذى تعيش به، ومن يفقد تاريخ أمته يصبح كالذى يفقد ذاكرته، يضيع منه حاضره كما يضيع ماضيه.

ويعنينا ثانيا أن نسترد ثقتنا بديننا الذى يحاول أعداء الإسلام أن يُصْغِرُوا من دوره فى حياة البشرية، ويحصروه فى أضيق الحدود، كأنه حركة محلية قامتَ ثم تلاشت دون أن تترك بصماتها على شىء فى هذا الوجود! بينما هو فى الحقيقة مؤثر عميق التأثير، لا فى الذين اعتنقوه فحسب، بل حتى فى الذين لم يعتنقوه، ووقفوا يحاربونه بكل ما وسعهم من جهد!

ويعنينا ثالثا أن نزيد تعرفا على أوربا ومواقفها العدائية ضد الإسلام. إن عداءها للإسلام قديم، وتشويهها الحقائق حول الإسلام قديم، وحملاتها الإعلامية ضد الإسلام قديمة.. ليست بنت اليوم، ولا هى ناشئة عن أحداث تقع اليوم تسىء إلى الإسلام، أو تستغل للإساءة للإسلام، إنما هى دفينة فى أعماقهم، أخبرنا الله عنها فى كتابه المنزل. قال جل من قائل:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ويعنينا أخيرا أن نقف بحقائقنا ضد أباطيل الآخرين. ومن أعظم هذه الحقائق أن المنهج الربانى هو المنهج الحق، وأنه هو الذى يملك إصلاح أحوال البشر فى الأرض حين تختل. أصلح حياة العرب مرة، وأصلح أحوال أوربا مرة، وهو قمين أن يصلح أحوال البشرية الضالة الحائرة اليوم، إذا وجد من يحمله حملا صحيحا ويقدمه للناس، وأن المسلمين بالذات هم أولى الناس باتباعه، والعودة إليه:

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [سورة البقرة: ١٢٠].

وإن العالم اليوم فى حالة شديدة الشبه بحالة البشرية يوم نزل الإسلام أول مرة، والفارق الوحيد هو التقدم العلمى الهائل الذى أحرزته البشرية خلال تلك القرون، والذى بلغ مدى لم يعرفه التاريخ من قبل.

أما «الإنسان» فهو فى درك من السوء لم يعرفه التاريخ من قبل..

جاء الإسلام والبشرية غارقة فى الضلال العقدى، سواء ضلال الديانات المحرفة عن أصلها السماوى، أو الديانات الوثنية المنتشرة فى الأرض.. والضلال العقدى

اليوم يصل إلى حد الإلحاد المطلق، أى إنكار وجود الخالق أصلا، لأول مرة - بهذا الاتساع - على مدار التاريخ.

وجاء الإسلام والعقول مشبعة بالخرافة، تضللها عن حقيقة الخالق وحقائق الوجود. والخرافة الكبرى التى تسيطر على البشرية اليوم هى الظن بأن العلم يستطيع أن يصل - وحده - إلى الحقائق، ويستطيع - وحده - أن يحل مشاكل البشرية! بينما التقدم العلمى ذاته يفتح أبوابا من «المجهول» أكثر مما يضيف إلى «المعلوم» ويثير من المشاكل الأخلاقية المدمرة (وهو يجافى المنبع الطبيعى للأخلاق وهو الدين) أكثر مما يحل من المشاكل الأخرى، ويكفى من آثاره المدمرة (بسبب مجافاته للدين) ما تبثه الفضائيات من السوء، وما تخرّج وسائل الإعلام من المجرمين الذين مارسوا الإجرام من طفولتهم، اقتداء «بأبطال» الأفلام البوليسية وأفلام الرعب!

وجاء الإسلام والفواحش ترتكب على نطاق واسع فى الأرض، والبشرية اليوم غارقة فى ألوان من الفواحش أقذر بكثير، وأبشع بكثير مما كانت عليه الجاهليات من قبل، والتعالن بالفاحشة اليوم أوقح وأشد.

وجاء الإسلام والظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى هو الأصل فى حياة الناس. والظلم اليوم عملة دولية واسعة النطاق على مستوى العالم. وقد توجد عدالة نسبية للاستخدام الداخلى فقط! أى فى داخل كيانات معينة، أما الظلم الواقع على المستضعفين فى الأرض، وهم غالبية أهل الأرض، فما أبشع أنواعه، وما أبشع ثقله على الذين يسلط عليهم!

وجاء الإسلام والمرأة مهينة محقرة.. ويبدو للوهلة الأولى أن هذا الجانب بالذات قد تقدمت فيه البشرية فوصلت إلى آفاق لم يعرفها التاريخ فى تكريم المرأة.. وقد تقدمت ولا شك فى بعض الجوانب.. أما كونها ألعوبة فى يد الشيطان يلهب بها الشهوات، ويحرق كيانها الذاتى فى بوتقتها فتخرج هى الخاسرة فى النهاية رغم كل «مكاسبها» فأمر واضح لأصحاب العقول وإن جادل فيه الغارقون والغارقات فى مستنقع الشهوات.

وجاء الإسلام والتعصب بكل أنواعه، ومن بينها التمييز العنصرى، والعرقى، والطبقى، هو السائد فى علاقات الناس بعضهم وبعض. واليوم فانظر إلى تعصب

الأرض كلها ضد المسلمين، وتعصب «الرجل الأبيض» الأوربى ضد الشعوب الأخرى، وتعصب كل قومية تجاه الأخرى، وما يترتب على ذلك فى الأرض من القلاقل والحروب.

جاء الإسلام والبشرية على هذا النحو فكان هو البلسم الشافى الذى يعالج انحرافات البشر، ويرد للإنسان - رجلا وامرأة - كرامته التى كرمه الله بها يوم خلقه، ويهديه إلى الصراط المستقيم:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة المائدة: ١٥، ١٦].

ولا منقذ اليوم للبشرية من ظلامها الكريه الذى تعيش فيه إلا الإسلام.. إلا ذلك النور الربانى، الذى فيه هذه الخاصية: خاصية إخراج الناس من الظلمات إلى النور حين يتبعون تعاليمه.

ومعرفة الدور الذى قام به الإسلام ذات مرة فى التاريخ، حين أخرج أوربا من ظلماتها فهداها إلى كثير من النور (وإن لم تعتنقه نتيجة الحقد الصليبى) حرىّ أن يبعث المؤمنين بهذا الدين ليجتهدوا مرة أخرى فى إيصال رسالة الإسلام إلى البشرية (ولو لم تعتنقه نتيجة الحقد الصليبى ذاته!).

إن رسالة الإسلام لم تصل إلى البشرية، وتصلح أحوالها، وترشدها إلى النور، بمقالات فى صحيفة، أو كلمات فى الإذاعة، أو محاضرات إعلامية.. وإنما بتقديم نموذج واقعى لفضائل الإسلام وقيمه ومثله ومبادئه وأخلاقياته.. نموذج رآه الناس رأى العين فتأثروا به.. فصلحت أحوالهم بمقدار ما تأثروا به.

والطريق هو الطريق.. والرسالة هى الرسالة.. والجهد المطلوب هو ذات الجهد المطلوب!

(٤)
الحروب الصليبية المعاصرة

يضحك الغرب على المستغفلين من المسلمين فيقول لهم إنه لا مكان للحروب الدينية اليوم، لأن الغرب قد تخلى عن الدين، فلم يعد الدين منطلقا من منطلقاته، ولا باعثا من بواعثه، إنما «المصالح» السياسية والاقتصادية هى التى تحرك الغرب، وتحدد له أهدافه ومنطلقاته!

وهى كلمة حق يراد بها باطل!

فأما أن أوربا قد تخلت عن دينها، فلم يعد الدين منطلقا من منطلقاتها، ولا باعثا من بواعثها، فهذا حق. وأما أن أوربا قد تخلت عن عصبيتها الصليبية تجاه الإسلام فكذبة ضخمة يكذبها الواقع كله.. لا واقع الأمس الغابر وحده، بل واقع اللحظة التى نعيشها (ونحسبه واقع الغد كذلك). الواقع الذى وقع فى البوسنة والهرسك، والذى وقع فى كوسوفو، ويقع فى فلسطين، ويقع فى أفريقيا وفى آسيا وفى كل مكان فى الأرض!

* * *

يمكن أن نحدد بدء الحروب الصليبية المعاصرة من سقوط آخر دويلة إسلامية فى الأندلس - دويلة غرناطة - عام ١٤٩٢، وتقسيم البابا لأرض الأندلس - التى سماها أرض الكفار (!) - إلى دولتين: أسبانيا والبرتغال، وأمرهما ألا يكتفيا بطرد المسلمين من أوربا، بل يجب عليهما متابعة الحرب ضد الإسلام خارج أوربا!

والمستغفلون من المسلمين - وفى مقدمتهم العلمانيون الذين يحملون أسماء إسلامية - يعتقدون أن هذا حادث عفّى عليه الزمن، ومضى بغير عودة! فنذكرهم -

إن نفعت معهم الذكرى ـ أن أسبانيا (ومعها أوربا) كانت تحتفل عام ١٩٩٢م بمرور خمسمائة عام على طرد المسلمين من الأندلس . هكذا! وبهذا النص! وكان عقد المفاوضات بين العرب واليهود فى مدريد بالذات، فى تلك السنة بالذات، مقصودا به أن يقال للمستغفلين : منذ خمسمائة عام أخذنا منكم الأندلس، واليوم نأخذ منكم الأندلس الثانية : فلسطين!

ومن لم يرد أن يفتح عينيه وأذنيه فلن تملك له من الله شيئا!

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ [سورة الجاثية : ٢٣].

❊ ❊ ❊

استجابت البرتغال أول من استجاب، وقام فاسكو داجاما بأول رحلة «استكشافية!» حول العالم الإسلامى مستعينا بالخرائط الإسلامية وبالبحار المسلم ابن ماجد ليتعرف على المنافذ التى يمكن النفاذ منها إلى الإسلام.

وندرس نحن لأبنائنا أن فاسكو داجاما هو أول من اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح! وهى كذبة هائلة ندسها ـ فى غفلتنا ـ فى عقول أبنائنا، فينشئون على تصديقها!

لقد اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح حقيقةً ولكن لمن؟! لأوربا التى كانت تجهله وقت أن كانت قابعة فى داخل حدودها فى قرونها الوسطى المظلمة! أما المسلمون فقد كانوا يعرفونه قبل ذلك بأربعة قرون على الأقل، وسفنهم تجوب البحار والمحيطات، حاملة تجارة العالم ما بين الصين شرقا إلى أوربا غربا وشمالا، ويعرفون الشواطئ الآسيوية والأفريقية والأوربية ويصفونها فى كتبهم، ويرسمون لها الخرائط، ويعرفون مدها وجزرها وطرق الملاحة فيها!

وفى الوقت ذاته نخفى عن أبنائنا الهدف الصليبى من وراء هذه الرحلة «الاستكشافية» (جهلا منا أو تجاهلا) ونقول لأبنائنا إنها رحلة علمية! بينما صاحبها نفسه هو الذى صرح بهدفها الصليبى حين وصل ـ بمعاونة ابن ماجد إلى أندونيسيا،

التى كانت تسمى يومئذ جزر الهند الشرقية، فقال: الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل، فيختنق ويموت!!

فيختنق ويموت.. هذا هو الهدف من وراء الرحلة «الاستكشافية العلمية» المزعومة!

وكانت الرحلة «الاستكشافية العلمية» الثانية هى رحلة ماجلان!

وتشير كتبهم ذاتها إلى أن ماجلان استأذن البابا فى أن يقود حملة لضم الفلبين تحت راية الصليب، وألح على البابا الذى لم يكن متحمسا للمشروع بسبب ضعف ماجلان عن التصدى للمهمة التى انتدب نفسه لها، وفى الأخير سمح له البابا فذهب بعساكره فاستولى على إحدى الجزر وتجرأ فرفع الصليب فوق أرضها فقتله أهالى الجزيرة دفاعا عن عقيدتهم الإسلامية.

أما نحن فندرس لأبنائنا أن الأهالى «المتبربرين» لم يقدروا القيمة «العلمية» لرحلة ماجلان «الاستكشافية» فقتلوه!

ماذا يقول الإنسان عن هذه الغفلة التى ليس لها حدود؟!

ثم توالت الرحلات «العلمية الاستكشافية» تبحث عن مداخل للاستعمار الصليبى، فيذهبون إلى سلاطين المسلمين «الطيبين» فيقولون لهم: امنحونا قطعة أرض على الساحل نجعلها ميناء لرسو سفننا حين نأتى للاتجار معكم! فيعطونهم! فإذا صار لهم مكان يستقبل السفن جاءوا بسفنهم المحملة بالجنود، فتمركزوا على الساحل، ثم تدفقوا إلى الداخل مع مجارى الأنهار. فاستولوا على البلاد!

يقولون إنها الدوافع الاقتصادية!!

ولا ينكر أحد فى الأرض كلها أن الدافع «الاقتصادى» كان من دوافع تلك الحملات.. أى الرغبة فى سلب أقوات البلاد المفتوحة والاستيلاء عليها بغير وجه حق، فمن قال إن هذا يهون الجريمة أو يقدم لها مبررات؟! وأى خزى تاريخى تحمله أوربا فى عملية نهب المستعمرات بعد قتل أهلها والاستيلاء على أراضيهم عنوة، وقهرهم وإذلالهم واستعبادهم وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟! وأى «حضارة» تلك

إن نفعت معهم الذكرى - أن أسبانيا (ومعها أوربا) كانت تحتفل عام ١٩٩٢م بمرور خمسمائة عام على طرد المسلمين من الأندلس. هكذا! وبهذا النص! وكان عقد المفاوضات بين العرب واليهود في مدريد بالذات، في تلك السنة بالذات، مقصودا به أن يقال للمستغفلين: منذ خمسمائة عام أخذنا منكم الأندلس، واليوم نأخذ منكم الأندلس الثانية: فلسطين!

ومن لم يرد أن يفتح عينيه وأذنيه فلن تملك له من الله شيئا!

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣].

* * *

استجابت البرتغال أول من استجاب، وقام فاسكو داجاما بأول رحلة «استكشافية!» حول العالم الإسلامي مستعينا بالخرائط الإسلامية وبالبحار المسلم ابن ماجد ليتعرف على المنافذ التي يمكن النفاذ منها إلى الإسلام.

وندرس نحن لأبنائنا أن فاسكو داجاما هو أول من اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح! وهي كذبة هائلة ندسها - في غفلتنا - في عقول أبنائنا، فينشئون على تصديقها!

لقد اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح حقيقةً ولكن لمن؟! لأوربا التي كانت تجهله وقت أن كانت قابعة في داخل حدودها في قرونها الوسطى المظلمة! أما المسلمون فقد كانوا يعرفونه قبل ذلك بأربعة قرون على الأقل، وسفنهم تجوب البحار والمحيطات، حاملة تجارة العالم ما بين الصين شرقا إلى أوربا غربا وشمالا، ويعرفون الشواطئ الآسيوية والأفريقية والأوربية ويصفونها في كتبهم، ويرسمون لها الخرائط، ويعرفون مدها وجزرها وطرق الملاحة فيها!

وفي الوقت ذاته نخفي عن أبنائنا الهدف الصليبي من وراء هذه الرحلة «الاستكشافية» (جهلا منا أو تجاهلا) ونقول لأبنائنا إنها رحلة علمية! بينما صاحبها نفسه هو الذي صرح بهدفها الصليبي حين وصل - بمعاونة ابن ماجد إلى أندونيسيا،

التى تبيح لنفسها ذلك ولا تتأثم منه ولا تتحرج؟ أهى حضارة «إنسانية» أم حضارة وحوش الغاب؟!

ولكن الأمر لا يمر بهذه الصورة التى يضحكون بها على السذج الذين يصدقون أكاذيب السادة لأنهم سادة، ولأنهم هم مستعبدون!

فما بال «الدافع الاقتصادى» يلتوى، فيأخذ منعطفا غريبا، فيتجه إلى مناهج التعليم فى البلاد الإسلامية التى فتحها، فيغير المناهج، ويستبدل بها مناهج تخرج أجيالا لا تعرف عن الإسلام إلا الشبهات، وتنفر منه، وتدعو إلى الابتعاد عنه؟!

يا للاقتصاد الماكر!!

قرأت فى كتاب عن الإرساليات التنصيرية عنوانه «Missions and Missionaries» فى الجزء الأول منه - وهو كتاب ممنوع من التداول، وإنما كان قد وقع فى يد صديق لى، وجده فى أحد البيوت فى الصعيد، حين هدمه صاحبه ليبنى مكانه «قصرا» جديدا، فأطلعنى عليه ثم استرده، ثم فقد منه حين اعتقل أيام عبد الناصر، فلما حاولنا تصويره من المتحف البريطانى فى لندن، قيل لنا إنه ممنوع من التداول! - قرأت فيه أنه حين استولى الإنجليز على مصر عام ١٨٨٢م، كان اللورد كرومر هو «المعتمد البريطانى» فى مصر، أى الحاكم الذى بيده السلطة كلها، فضيق كرومر على المنصرين الذين كانوا يعيثون فسادا فى مصر الإسلامية، فشكوه إلى الحكومة البريطانية، فأرسلت إليه الحكومة نص الشكوى ليرد عليها، فجمع المنصرين وقال لهم: كيف يخطر فى بالكم أننى يمكن أن أضيق عليكم؟! ولكنكم تتخذون وسائل حمقاء فتخطفون الأطفال والمسنين فتنصرونهم بالقوة، فتستفزون المسلمين بذلك فيزدادون تمسكا بالإسلام! ولكنى اتفقت مع شاب متخرج من كلية اللاهوت فى لندن، ليأتى إلى مصر، ليضع لمصر مناهج تعليمية ستحقق لكم كل أهدافكم!! ذلكم هو المستر «دنلوب» الشهير!!

يا للاقتصاد الماكر!!

وما بال هذا الاقتصاد الماكر لا يلتوى هذه الالتواءة إلا فى بلاد المسلمين؟ وفى مصر بالذات، بلد الأزهر؟!

يقول أحد المنصرين فى مؤتمر تنصيرى عقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦م :

«أما الذين تعلموا على الطريقة الشرقية فى الأزهر وما يماثله فلم يتكلم أعضاء المؤتمر عنهم إلا بعض اقتراحات ونظريات . من ذلك أن أحد أعضاء المؤتمر أفاض فى وصف ما للجامع الأزهر القديم من النفوذ ، وإقبال الألوف عليه من الشبان المسلمين من كل أقطار العالم . وتساءل عن سر نفوذ هذا الجامع منذ ألف سنة إلى الآن . ثم قال : إن السنين من المسلمين رسخ فى أذهانهم أن تعليم العربية فى الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر من غيره ، والمتخرجون فى الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين ، وباب التعليم مفتوح فى الأزهر لكل مشايخ الدنيا ، خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانًا[1] ، لأن فى استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ أستاذا . ثم تساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر ؟ وعرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية فى الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة ، وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية . . »

وختم كلامه قائلا : «ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل ، لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية»[2] .

أرأيت إلى «الدافع الاقتصادى» كم هو ماكر وخبيث؟!

* * *

ولا ينتهى خبث هذا «الدافع الاقتصادى» عند هذا الحد!

فما باله يلتوى التواءةً أخرى - فى البلاد الإسلامية - فينحى الشريعة ، ويقصيها عن الحكم بين الناس ، ويستبدل بها القوانين التى تبيح الردة ، وتبيح الزنا وتبيح الربا وتبيح الخمر؟! ثم يسلط على الناس من يجهّلهم بدينهم فيقول لهم : لا بأس عليكم من تنحية الشريعة ، فهذا لا يؤثر فى إسلامكم! فما دمتم تصلون وتصومون فأنتم

---

(١) لابد هنا من تذكر العمل «المجيد!» الذى قام به عبد الناصر بالاستيلاء على أوقاف الأزهر وحرمانه منها . . فلحساب من؟!

(٢) عن كتاب «الغارة على العالم الإسلامى» تأليف أ . شاتلييه ، وترجمة محب الدين الخطيب ص ٣٣ .

مسلمون! ثم يسلط عليهم من العوامل ما يحولهم عن صلاتهم وصيامهم، ثم يقول لهم: لا بأس عليكم! فأنتم مسلمون ولو لم تصلوا ولا تصوموا! ما دمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون! وتخرج أجيال من الناس - بتوجيه مناهج التعليم ووسائل الإعلام - يعتبرون أنفسهم مسلمين بقول لا إله إلا الله، وهم ينقضونها بكل عمل من أعمالهم، وفى مقدمتها الرضا بالتحاكم إلى غير شرع الله، واعتبار ذلك أمرا «تطوريًا» لا يتعارض مع الإيمان!!

* * *

ثم إذا كانت الرحلات الاستكشافية الصليبية قد وصفت - فى التاريخ الممسوخ - بأنها كانت «علمية!» فقد قام الغرب الصليبى بعمل «علمى» آخر، هو الاستشراق!

ويا له من جهد «علمى» مهمته الأولى تحريف الكلم عن مواضعه بالنسبة للإسلام، وتشويه صورته بكل الوسائل، والتشكيك فى كل حقائقه، وإثارة الشبهات حول كل جزئية من جزئياته، بما يخرج منه «المسلم» الذى يتعاطاه، بأنه لا هو دين يستحق أن يعتنقه، ولا تاريخه تاريخ يستحق أن يعتز به، ولا نظامه نظام يصلح للحياة فى الوقت الحاضر، ولا حضارته كانت أصيلة، ولا كان له دور فى تاريخ البشرية[1]!!

ولا يخرج الاستشراق فى مجموعه عن كونه أحد الجهود «العلمية!» الكثيرة التى يقوم بها الغرب الصليبى لمحاربة الإسلام، ولكنه جهد متخصص، تقوم به فئة متخصصة، ويستهدف طائفة خاصة من الناس.

يقوم به من جانبهم دارسون متخصصون فى اللغة العربية وعلوم الاستشراق، ويستهدفون به «المثقفين» من المسلمين الذين يرجى منهم بعد أن يلتقطوا «الصنعة» أن يكونوا هم الأبواق التى تنشر سموم الاستشراق على نطاق واسع! ذلك أن المستشرقين - وإن درسوا اللغة العربية ليطلعوا على التراث الإسلامى ليقوموا بالطعن فيه وتشويهه - لا يستطيعون أن يكتبوا بالعربية - وإن زعموا أنهم يحسنون فهمها،

---

(١) هناك بحث منشور بعنوان «المستشرقون والإسلام» فيه تفصيل لهذه القضية، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٤٢٠هـ.

وهو زعم تكتنفه الشكوك فى نماذج ليست بالقليلة - وعندئذ تظل أبحاثهم محدودة التأثير، لأن القارئين باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية[1] من العرب قليلون مهما كثروا. أما إذا تبنى «المثقفون» العرب أفكارهم، وصاروا نسخًا منهم - طبق الأصل أو فى القليل مشابهة للأصل - فهنا يكون التأثير أوسع مدى وأفعل. إذ يقرأ قراء العربية - بلغتهم الأصلية - كتبا ومقالات وبحوثا تطعن فى الإسلام بدعوى التجديد والتحديث والتقدم والتحرر وإعادة النظر فى «النصوص» وإعادة التفسير والتأويل، فيتبلبل منهم من يتبلبل، ويتجندل منهم من يتجندل. . ويتم - بفضل هذا الجهد «العلمى» - تحقيق جانب من الهدف الصليبى الكبير، الذى أعلن عنه «زويمر»[2] فى أحد المؤتمرات التنصيرية (عام ١٩٣٥م) إذ قال - بعد أن يئس من تنصير المسلمين ديانةً - «إن مهمتنا ليست هى تنصير المسلمين! ولكن مهمتنا هى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفى ذلك نجحنا نجاحا باهرا!»[3].

ولكنا إذا عدنا بأعمال المستشرقين إلى أصولها القديمة - كما ينبغى أن نفعل - فسنجد أن بضاعتهم هى ذات البضاعة التى استخدمت أول مرة لصد أوربا عن الإسلام حين كلفت الكنيسة كتابها أن يشوهوا صورة المسلمين لينفروا الأوربيين من الإسلام، فآتت أكلها يومئذ بنجاح، ثم لما ضعف المسلمون وتخلفوا، وطمع فيهم الغرب الصليبى، عاد إلى استخدام البضاعة ذاتها ولكن لفتنة المسلمين عن الإسلام فى هذه المرة، لا لإبعاد الأوربيين عن الإسلام!

ويجمل بنا أن نذكر أن حصيلة التشويه والتحريف التى أمرت بها الكنيسة أول مرة كانت على نوعين: نوع «شعبى» يقصد به عامة الناس، ونوع عليه مسحة زائفة من «البحث العلمى» يقصد به المثقفون من الناس، وأن النوعين معًا قد استخدما فى الجولة الثانية، فاستخدم النوع الشعبى على يد المنصرين ليفتنوا به من استطاعوا من العوام، وهو أقرب إلى «التهريج» منه إلى الكلام المعقول، واستخدم النوع الثانى

---

(١) تلك هى اللغات الأساسية فى أبحاث المستشرقين، وإن كان إلى جانبها كتابات بلغات أخرى كالإيطالية والأسبانية والروسية وغيرها.

(٢) منصر شهير عاش فى المنطقة أوائل القرن العشرين وكان له نشاط ملحوظ فى التنصير.

(٣) اقرأ عن هذا المؤتمر فى كتاب الاستاذ محمد محمود الصواف: «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام» طبع دار الاعتصام بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ص ٢١٨.

مسلمون! ثم يسلط عليهم من العوامل ما يحولهم عن صلاتهم وصيامهم، ثم يقول لهم: لا بأس عليكم! فأنتم مسلمون ولو لم تصلوا ولا تصوموا! ما دمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون! وتخرج أجيال من الناس - بتوجيه مناهج التعليم ووسائل الإعلام - يعتبرون أنفسهم مسلمين بقول لا إله إلا الله، وهم ينقضونها بكل عمل من أعمالهم، وفى مقدمتها الرضا بالتحاكم إلى غير شرع الله، واعتبار ذلك أمرا «تطوريًا» لايتعارض مع الإيمان!!

* * *

ثم إذا كانت الرحلات الاستكشافية الصليبية قد وصفت - فى التاريخ الممسوخ - بأنها كانت «علمية!» فقد قام الغرب الصليبى بعمل «علمى» آخر، هو الاستشراق!

ويا له من جهد «علمى» مهمته الأولى تحريف الكلم عن مواضعه بالنسبة للإسلام، وتشويه صورته بكل الوسائل، والتشكيك فى كل حقائقه، وإثارة الشبهات حول كل جزئية من جزئياته، بما يخرج منه «المسلم» الذى يتعاطاه، بأنه لا هو دين يستحق أن يعتنقه، ولا تاريخه تاريخ يستحق أن يعتز به، ولا نظامه نظام يصلح للحياة فى الوقت الحاضر، ولا حضارته كانت أصيلة، ولا كان له دور فى تاريخ البشرية[1]!!

ولا يخرج الاستشراق فى مجموعه عن كونه أحد الجهود «العلمية!» الكثيرة التى يقوم بها الغرب الصليبى لمحاربة الإسلام، ولكنه جهد متخصص، تقوم به فئة متخصصة، ويستهدف طائفة خاصة من الناس.

يقوم به من جانبهم دارسون متخصصون فى اللغة العربية وعلوم الاستشراق، ويستهدفون به «المثقفين» من المسلمين الذين يرجى منهم بعد أن يلتقطوا «الصنعة» أن يكونوا هم الأبواق التى تنشر سموم الاستشراق على نطاق واسع! ذلك أن المستشرقين - وإن درسوا اللغة العربية ليطلعوا على التراث الإسلامى ليقوموا بالطعن فيه وتشويهه - لا يستطيعون أن يكتبوا بالعربية - وإن زعموا أنهم يحسنون فهمها،

---

(١) هناك بحث منشور بعنوان «المستشرقون والإسلام» فيه تفصيل لهذه القضية، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة سنة ١٤٢٠هـ.

وهو زعم تكتنفه الشكوك فى نماذج ليست بالقليلة - وعندئذ تظل أبحاثهم محدودة التأثير ، لأن القارئين باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية[1] من العرب قليلون مهما كثروا . أما إذا تبنى «المثقفون» العرب أفكارهم ، وصاروا نسخًا منهم - طبق الأصل أو فى القليل مشابهة للأصل - فهنا يكون التأثير أوسع مدى وأفعل . إذ يقرأ قراء العربية - بلغتهم الأصلية - كتبا ومقالات وبحوثا تطعن فى الإسلام بدعوى التجديد والتحديث والتقدم والتحرر وإعادة النظر فى «النصوص» وإعادة التفسير والتأويل ، فيتبلبل منهم من يتبلبل ، ويتجندل منهم من يتجندل . . ويتم - بفضل هذا الجهد «العلمى» - تحقيق جانب من الهدف الصليبى الكبير ، الذى أعلن عنه «زويمر»[2] فى أحد المؤتمرات التنصيرية (عام ١٩٣٥م) إذ قال - بعد أن يئس من تنصير المسلمين ديانةً - «إن مهمتنا ليست هى تنصير المسلمين! ولكن مهمتنا هى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، وفى ذلك نجحنا نجاحا باهرا!»[3] .

ولكنا إذا عدنا بأعمال المستشرقين إلى أصولها القديمة - كما ينبغى أن نفعل - فسنجد أن بضاعتهم هى ذات البضاعة التى استخدمت أول مرة لصد أوربا عن الإسلام حين كلفت الكنيسة كتابها أن يشوهوا صورة المسلمين لينفروا الأوربيين من الإسلام ، فآتت أكلها يومئذ بنجاح ، ثم لما ضعف المسلمون وتخلفوا ، وطمع فيهم الغرب الصليبى ، عاد إلى استخدام البضاعة ذاتها ولكن لفتنة المسلمين عن الإسلام فى هذه المرة ، لا لإبعاد الأوربيين عن الإسلام!

ويجمل بنا أن نذكر أن حصيلة التشويه والتحريف التى أمرت بها الكنيسة أول مرة كانت على نوعين : نوع «شعبى» يقصد به عامة الناس ، ونوع عليه مسحة زائفة من «البحث العلمى» يقصد به المثقفون من الناس ، وأن النوعين معًا قد استخدما فى الجولة الثانية ، فاستخدم النوع الشعبى على يد المنصرين ليفتنوا به من استطاعوا من العوام ، وهو أقرب إلى «التهريج» منه إلى الكلام المعقول ، واستخدم النوع الثانى

---

(١) تلك هى اللغات الأساسية فى أبحاث المستشرقين ، وإن كان إلى جانبها كتابات بلغات أخرى كالإيطالية والأسبانية والروسية وغيرها .

(٢) منصر شهير عاش فى المنطقة أوائل القرن العشرين وكان له نشاط ملحوظ فى التنصير .

(٣) اقرأ عن هذا المؤتمر فى كتاب الاستاذ محمد محمود الصواف : «المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام» طبع دار الاعتصام بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص ٢١٨ .

على يد المستشرقين لإفساد عقول «المثقفين»، وكلا النوعين جزء من الحملة الشاملة على الإسلام.

* * *

وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وبداية العشرين كان العالم الإسلامى كله - ما عدا تركيا ذاتها وأجزاء من الجزيرة العربية - قد وقع فى قبضة الاستعمار الصليبى. وكان التخطيط على أشده لمحاولة القضاء على «الرجل المريض» كما كانت أوربا تسمى الدولة العثمانية فى نهاية عهدها، وتقسيم تركته بين الدولتين الصليبيتين «العظميين!» فى ذلك الحين: بريطانيا وفرنسا.

وأخيرا، تم المطلوب، بعد محاولات بلغت - فيما يقول أحد الكتاب الأوربيين - مائة محاولة! وبعد إعداد ضخم شاركت فيه الصليبية والصهيونية معًا فى التخطيط والتنفيذ.. فقد صدرت تعليمات خفية لفريق من يهود المغرب أن يتمسلموا (أى يتظاهروا بالإسلام) وينتقلوا إلى البلقان، فتمركزوا فى سلانيك، وأنشئوا حزب الاتحاد والترقى وضموا إليه فريقا من المسلمين المخدوعين، ونشروا دعوة القومية الطورانية (وهى قومية الأتراك القدامى قبل أن يدخلوا فى الإسلام، وشعارها الذئب الأغبر) ونادوا بتتريك الدولة، وكان هذا عملا مقصودا مخططا لاستفزاز العرب، وإثارتهم ضد الدولة العثمانية تحت راية القومية العربية، واستُفزّ العرب بالفعل، فتلقفتهم المخابرات البريطانية وأرسلت إليهم لورنس لاحتوائهم وتوجيههم للثورة ضد دولة الخلافة، وقام لورنس بمهمته بفضل الغفلة التى كان العرب واقعين فيها، فقامت «الثورة العربية الكبرى» بقيادة لورنس فى الحقيقة، وقيادة الشريف حسين فى ظاهر الأمر، وتشكل «الجيش العربى» بقيادة لورد أللنبى، وكان من أول «أمجاد» الثورة تدمير الخط الحديدى الذى أنشأه عبد الحميد ما بين إسطنبول والمدينة المنورة، ومحاصرة ألوف من الجنود الأتراك وتذبيحهم، لا تركوهم يقاتلون فى ميدان المعركة فى تركيا ولا تركوهم أحياء، وقال أللنبى فى مذكراته: «لولا معاونة الجيش العربى ما استطعنا أن نتغلب على تركيا!». وحين دخل أللنبى القدس سنة ١٩١٧ قال قولته الشهيرة: الآن انتهت الحرب الصليبية!

وما كانت قد انتهت، ولا تنتهى إلا أن يشاء الله . . ولكن القولة تنم عن الروح الخبيثة وراء التخطيط كله . . روح صليبية خالصة، عارية من كل ستار يغطيها!

* * *

وتمت بذلك العملية الأولى من عمليات التفتيت للأمة الإسلامية التى كانت موحدة من قبل تحت راية الإسلام . .

كانت الأمة وحدة منذ مولدها على يدى الرسول - ﷺ - إلى تلك اللحظة التى بدأ فيها التفتيت . لم تكن وحدة سياسية، فقد تفتتت تلك الوحدة منذ كانت للإسلام دولتان فى آن واحد، عباسية فى الشرق وأموية فى المغرب والأندلس، ثم زادت تفتتا بعد ذلك، ولكن ذلك لم يؤثر قط فى الوحدة الشعورية المنبثقة من العقيدة، والمتبلورة حولها، فظلت «الرابطة الإسلامية» هى الرباط، الذى يجمع الشامى والمغربى - كما جاء فى الأمثال الشعبية - ويجمع التركى والعربى والهندى والماليزى والإندونيسى كلهم تحت راية الإسلام، وظلت الخلافة الإسلامية هى الرمز الذى يلتف حوله المسلمون ويمنحونه ولاءهم الشعورى، سواء كانوا خاضعين لسلطانه السياسى أو غير خاضعين له . .

ولكن بدخول يهود الدونما من ناحية، والكيد الصليبى الذى تقوده بريطانيا فى ذلك الوقت من ناحية أخرى بدأ أول تفتيت حقيقى فى بنية الأمة (إذا صرفنا النظر عن الانشقاق الذى حدث بين الشيعة والسنة منذ الزمن الأول، وظل على حاله طوال القرون) فقد كان التفتيت فى هذه المرة داخل الأمة السنية ذاتها ولأول مرة فى التاريخ . . وكانت دعوى «القومية» هى المعول الذى استخدم فى التفتيت . . القومية الطورانية يحملها يهود الدونما، والقومية العربية يحملها العرب المخدوعون.

ولم تقف عملية التفتيت عند هذه النقطة، وما كان متوقعا لها أن تقف هناك، فحتى هذا الشرخ الذى حدث فى الأمة وقسمها إلى ترك وعرب، لم يكن ليؤتى ثماره المرجوة إذا بقى كل من القسمين مسلما متمسكا بالإسلام، فهو عرضة أن يلتحم بالقسم الآخر مرة أخرى، أو أن يقف - بإسلامه - سدًا فى وجه مخططات الأعداء . فلزم إبعاد القسمين معًا عن الإسلام.

وما كانت قد انتهت، ولا تنتهى إلا أن يشاء الله . . ولكن القولة تنم عن الروح الخبيثة وراء التخطيط كله . . روح صليبية خالصة، عارية من كل ستار يغطيها!

* * *

وتمت بذلك العملية الأولى من عمليات التفتيت للأمة الإسلامية التى كانت موحدة من قبل تحت راية الإسلام . .

كانت الأمة وحدة منذ مولدها على يدى الرسول - ﷺ - إلى تلك اللحظة التى بدأ فيها التفتيت . لم تكن وحدة سياسية، فقد تفتتت تلك الوحدة منذ كانت للإسلام دولتان فى آن واحد، عباسية فى الشرق وأموية فى المغرب والأندلس، ثم زادت تفتتا بعد ذلك، ولكن ذلك لم يؤثر قط فى الوحدة الشعورية المنبثقة من العقيدة، والمتبلورة حولها، فظلت «الرابطة الإسلامية» هى الرباط، الذى يجمع الشامى والمغربى - كما جاء فى الأمثال الشعبية - ويجمع التركى والعربى والهندى والماليزى والإندونيسى كلهم تحت راية الإسلام، وظلت الخلافة الإسلامية هى الرمز الذى يلتف حوله المسلمون ويمنحونه ولاءهم الشعورى، سواء كانوا خاضعين لسلطانه السياسى أو غير خاضعين له . .

ولكن بدخول يهود الدونمة من ناحية، والكيد الصليبى الذى تقوده بريطانيا فى ذلك الوقت من ناحية أخرى بدأ أول تفتيت حقيقى فى بنية الأمة (إذا صرفنا النظر عن الانشقاق الذى حدث بين الشيعة والسنة منذ الزمن الأول، وظل على حاله طوال القرون) فقد كان التفتيت فى هذه المرة داخل الأمة السنية ذاتها ولأول مرة فى التاريخ . . وكانت دعوى «القومية» هى المعول الذى استخدم فى التفتيت . . القومية الطورانية يحملها يهود الدونمة، والقومية العربية يحملها العرب المخدوعون .

ولم تقف عملية التفتيت عند هذه النقطة، وما كان متوقعا لها أن تقف هناك، فحتى هذا الشرخ الذى حدث فى الأمة وقسمها إلى ترك وعرب، لم يكن ليؤتى ثماره المرجوة إذا بقى كل من القسمين مسلما متمسكا بالإسلام، فهو عرضة أن يلتحم بالقسم الآخر مرة أخرى، أو أن يقف - بإسلامه - سدًا فى وجه مخططات الأعداء . فلزم إبعاد القسمين معًا عن الإسلام .

على يد المستشرقين لإفساد عقول «المثقفين»، وكلا النوعين جزء من الحملة الشاملة على الإسلام.

* * *

وفى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وبداية العشرين كان العالم الإسلامى كله - ما عدا تركيا ذاتها وأجزاء من الجزيرة العربية - قد وقع فى قبضة الاستعمار الصليبى. وكان التخطيط على أشده لمحاولة القضاء على «الرجل المريض» كما كانت أوربا تسمى الدولة العثمانية فى نهاية عهدها، وتقسيم تركته بين الدولتين الصليبيتين «العظميين!» فى ذلك الحين: بريطانيا وفرنسا.

وأخيرا، تم المطلوب، بعد محاولات بلغت - فيما يقول أحد الكتاب الأوربيين - مائة محاولة! وبعد إعداد ضخم شاركت فيه الصليبية والصهيونية معًا فى التخطيط والتنفيذ.. فقد صدرت تعليمات خفية لفريق من يهود المغرب أن يتمسلموا (أى يتظاهروا بالإسلام) وينتقلوا إلى البلقان، فتمركزوا فى سلانيك، وأنشئوا حزب الاتحاد والترقى وضموا إليه فريقا من المسلمين المخدوعين، ونشروا دعوة القومية الطورانية (وهى قومية الأتراك القدامى قبل أن يدخلوا فى الإسلام، وشعارها الذئب الأغبر) ونادوا بتتريك الدولة، وكان هذا عملا مقصودا مخططا لاستفزاز العرب، وإثارتهم ضد الدولة العثمانية تحت راية القومية العربية، واستُفِزّ العرب بالفعل، فتلقفتهم المخابرات البريطانية وأرسلت إليهم لورنس لاحتوائهم وتوجيههم للثورة ضد دولة الخلافة، وقام لورنس بمهمته بفضل الغفلة التى كان العرب واقعين فيها، فقامت «الثورة العربية الكبرى» بقيادة لورنس فى الحقيقة، وقيادة الشريف حسين فى ظاهر الأمر، وتشكل «الجيش العربى» بقيادة لورد أللنبى، وكان من أول «أمجاد» الثورة تدمير الخط الحديدى الذى أنشأه عبد الحميد ما بين إسطنبول والمدينة المنورة، ومحاصرة ألوف من الجنود الأتراك وتذبيحهم، لا تركوهم يقاتلون فى ميدان المعركة فى تركيا ولا تركوهم أحياء، وقال أللنبى فى مذكراته: «لولا معاونة الجيش العربى ما استطعنا أن نتغلب على تركيا!». وحين دخل أللنبى القدس سنة ١٩١٧ قال قولته الشهيرة: الآن انتهت الحرب الصليبية!

وما كانت قد انتهت، ولا تنتهى إلا أن يشاء الله . . ولكن القولة تنم عن الروح الخبيثة وراء التخطيط كله . . روح صليبية خالصة، عارية من كل ستار يغطيها!

* * *

وتمت بذلك العملية الأولى من عمليات التفتيت للأمة الإسلامية التى كانت موحدة من قبل تحت راية الإسلام . .

كانت الأمة وحدة منذ مولدها على يدى الرسول - ﷺ - إلى تلك اللحظة التى بدأ فيها التفتيت. لم تكن وحدة سياسية، فقد تفتتت تلك الوحدة منذ كانت للإسلام دولتان فى آن واحد، عباسية فى الشرق وأموية فى المغرب والأندلس، ثم زادت تفتتا بعد ذلك، ولكن ذلك لم يؤثر قط فى الوحدة الشعورية المنبثقة من العقيدة، والمتبلورة حولها، فظلت «الرابطة الإسلامية» هى الرباط، الذى يجمع الشامى والمغربى - كما جاء فى الأمثال الشعبية - ويجمع التركى والعربى والهندى والماليزى والإندونيسى كلهم تحت راية الإسلام، وظلت الخلافة الإسلامية هى الرمز الذى يلتف حوله المسلمون ويمنحونه ولاءهم الشعورى، سواء كانوا خاضعين لسلطانه السياسى أو غير خاضعين له . .

ولكن بدخول يهود الدونما من ناحية، والكيد الصليبى الذى تقوده بريطانيا فى ذلك الوقت من ناحية أخرى بدأ أول تفتيت حقيقى فى بنية الأمة (إذا صرفنا النظر عن الانشقاق الذى حدث بين الشيعة والسنة منذ الزمن الأول، وظل على حاله طوال القرون) فقد كان التفتيت فى هذه المرة داخل الأمة السنية ذاتها ولأول مرة فى التاريخ . . وكانت دعوى «القومية» هى المعول الذى استخدم فى التفتيت . . القومية الطورانية يحملها يهود الدونما، والقومية العربية يحملها العرب المخدوعون.

ولم تقف عملية التفتيت عند هذه النقطة، وما كان متوقعا لها أن تقف هناك، فحتى هذا الشرخ الذى حدث فى الأمة وقسمها إلى ترك وعرب، لم يكن ليؤتى ثماره المرجوة إذا بقى كل من القسمين مسلما متمسكا بالإسلام، فهو عرضة أن يلتحم بالقسم الآخر مرة أخرى، أو أن يقف - بإسلامه - سداً فى وجه مخططات الأعداء. فلزم إبعاد القسمين معًا عن الإسلام.

أما الترك فقد وجد من يبعدهم - أو يظن أنه يبعدهم - عن الإسلام، وهو أتاتورك، الذى اتخذ أساليب جهنمية لمحاربة الإسلام فى تركيا، فألغى الخلافة، وألغى الحرف العربى، وألغى الحجاب، وألغى الأذان باللغة العربية، وألزم الرجال بلبس القبعات فى محاولة منه لمنع الصلاة، وجعل العطلة يوم الأحد ليفوت على الناس صلاة الجمعة، ونقل العاصمة من إسطنبول، المدينة التى تسجل بمساجدها حقبة من أعظم حقب التاريخ الإسلامى، إلى مدينة كان يفخر بأنها المدينة التى لا يوجد فيها مساجد! وذلك كله غير السجن والتعذيب والتشريد والتقتيل الذى نال ألوفا من علماء الدين والمتدينين، والارهاب البشع الذى حكم به البلاد.

وتروى الوثائق التى كشفت قريبا أنه قبل موته أرسل إلى السفير البريطانى فى تركيا يقول له إنه يشعر باقتراب موته، ويريد منه أن يخلفه على حكم الأتراك!!!

وأما العرب فقد كان المشوار معهم أطول، وهم عصب الإسلام الحى، وحَمَلَتُه إلى البشرية، ومنهم الرسول الأعظم - ﷺ - وبلغتهم نزل الكتاب الذى اكتمل به الدين، وبلغتهم كذلك كتب القسم الأعظم من التراث الإسلامى..

ولكن على الخط البطىء يتم المطلوب.. بطىء ولكنه أكيد المفعول كما يقول المثل الانجليزى: «Slow but Sure».

بدأ العمل بتفتيت العالم العربى سياسيا وجغرافيا إلى دويلات ضعيفة هزيلة، لا تملك قوة سياسية فهى كلها خاضعة للاستعمار الصليبى، ولا قوة حربية فسلاحها وذخيرتها من صنع أعدائها، والأعداء لا يعطون منه إلا ما يجعل الجيوش تصلح للزينة والاستعراض ولا تصلح للقتال، ولا قوة اقتصادية ومعظمها متخلف اقتصاديا ويحرص الاستعمار الصليبى على استمرار تخلفه ويغلق أمامه كل باب يمكن أن يمنحه قوة أو استقلالا أو يرفع عنه ذل التبعية للغرب، ثم إن هذه الدويلات - على ضعفها وهزالها - متعادية متنابزة، يتمنى بعضها زوال بعض، ويشتد العداء بينها كلما اقترب بعضها من بعض، فبين كل دولتين متجاورتين مشكلة حدود متروكة عمدا لتصبح سببا دائما لتعكير العلاقات بين البلدين، فضلا عن بث النعرات «الوطنية» بين أبناء «القومية» الواحدة، لتكون سببا دائما للتباعد والتفتيت بدلا من التقارب والالتحام!

وكان هذا كله تمهيدا لإنشاء إسرائيل فى أرض مخلخلة لا تقوى على مقاومتها، لأنها لا تملك قوة، ولا قلوبها تلتقى عى أمر يجمعها. . وإسرائيل هى الدولة الدخيلة التى أشار إليها لورد بترمان فى تقريره الذى رفعه عام ١٩٠٧م إلى الدول الاستعمارية التى كانت قد بدأت تقلق من بوادر اليقظة فى المنطقة، فقال: «لابد من إنشاء دولة دخيلة تكون صديقة لنا وعدوة لأهل المنطقة، وتكون بمثابة الشوكة، تخز العملاق كلما أراد أن ينهض!»[١].

ومع ذلك فإن هذا التخطيط الماكر كله لم يكن فى نظر أصحابه كافيا للهدف الصليبى الصهيونى الذى يجرى الإعداد لتحقيقه. . فقد بقيت «قلعة» خطرة، يمكن أن تفسد هذا التخطيط كله، وهى الشباب، إذا تربى تربية جادة، وتبنى أهدافا جادة. . فجرى تمييعه بكل الوسائل التى كانت متاحة فى ذلك الحين، فسلطت عليه السينما والإذاعة، والشواطئ العارية، والأدب المنحل. . وبالذات قضية «تحرير المرأة» لإخراجها من خدرها، ونزع حجابها، وإطلاقها فتنة لنفسها وللشباب من حولها، فيطمئن المخططون تماما من جهة هذا الشباب، أنه لن يتيقظ لمخططاتهم، لأنه مشغول بشهواته وتفاهاته، أو مشغول بلقمة العيش فى أحسن الأحوال، فلا يتحرك لوقف هذه المخططات، ولا يقوى على وقفها ـ حتى إن أراد ـ وهو مسلوب اللب، مستنفد الطاقة، ضائع حائر بين شتى التيارات، وشتى اللافتات، وشتى «الأيديولوچيات» وكلها تجذبه بعيدا عن الإسلام!

* * *

الإسلام هو العدو. . والإسلام هو الخطر الماثل الذى لابد من القضاء عليه!

وإن عملية التفتيت لا ينبغى أن تقف عند التفتيت السياسى والجغرافى. . لابد من التفتيت حتى العظم! التفتيت من الداخل. . تفتيت الشخصية الإسلامية ذاتها بإذابة العنصر الفعال الذى يجمِّع الشخصية فى كيان واحد متماسك، ثم يمنح هذا الكيان ـ بعد تجميعه ـ صلابة وقوة تجعله صعب الكسر.

لقد كان لويس التاسع الذى هزم فى الحروب الصليبية الأولى، وسجن فى مدينة

---

(١) يراجع تقرير لورد بترمان، من منشورات الجامعة العربية بالقاهرة.

المنصورة حتى افتداه قومه الفرنسيون فخرج من السجن وعاد إلى بلاده . . كان هو صاحب التخطيط الجديد للحروب الصليبية .

لقد قال لقومه : إذا أردتم التغلب على المسلمين فلا تعتمدوا على السلاح وحده ، فقد رأيتم نتيجة الاعتماد على السلاح . . قاتلوهم فى عقيدتهم إن أردتم التغلب عليهم !

ووعى قومه الصليبيون الدرس ، وحين عادوا لم يعودوا بالسلاح وحده ، إنما عادوا ومعهم هذا السلاح الجبار ، سلاح «الغزو الفكرى» الذى ينفذ إلى الأعماق . . ويفتت الأعماق .

المطلوب هو محو مقومات الشخصية المسلمة حتى تفقد تماسكها .

يقول ڤون جرونيباوم المستشرق النمساوى المعاصر فى كتاب «الإسلام Islam» إن اعتزاز المسلم بدينه هو العقبة الكبرى أمام عملية التغريب !

التغريب إذن هو المطلوب . . واعتزاز المسلم بإيمانه هو العقبة التى تقف فى الطريق . .

فلابد إذن من إزالة العقبة حتى يتحقق المطلوب . .

بدئ بإلغاء الشريعة . . وقد كانت الشريعة الربانية خلال التاريخ موضع اعتزاز المسلم ، يتمسك بها ، ويحس أن كيانه مرتبط بها ، ويحس أنها تمنحه تفردا يتميز به بين البشر . .

وكان المسلم يعتز بعباداته وبخاصة الصلاة . . فسلط عليه ما يشغله عن صلاته وصيامه وزكاته وحجه ، وقيل له إن المتمسك بها هو الرجعى المتخلف ، الضيق الأفق ، الذى لا يجارى العصر ، والذى لم يتعاط الثقافة الجديدة التى تأبى الخضوع للماضى ، وتشق لنفسها طريقها الخاص !

وكان المسلم يعتز بأخلاقياته وتقاليده . . فقيل له إنها تقاليد «بالية» وأخلاقيات عفّى عليها الدهر . هذه أخلاقيات المجتمع الزراعى المتأخر ، ونحن الآن فى المجتمع الصناعى المتقدم المتحرر . . الحجاب من ظلمات الماضى . والغيرة على العرض من

موروثات البدائيين، وقوامة الرجل أثر من عهد الاستبداد، وحرية «الفرد» في أن يفعل ما يشاء وأنف «المجتمع» راغم هي علامة العصرانية والحداثة والتقدم والرقي.

وابتدع «الفولكلور» لتستبدل بتقاليد الإسلام تقاليد ما قبل الإسلام! زيادة في التشتيت والتفتيت!

وأثير الاهتمام بالآثار.. في مصر من أيام حملة نابليون وفي غيرها من البلاد بعد ذلك. ويقول أحد المستشرقين في كتاب «الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته: The Near East: Its Society and Culture»: «إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات»![1].

التفتيت والتشتيت.. أفعل الطرق لإذابة الشخصية الإسلامية وإزالة مقوماتها.

* * *

ولا ننسى إثارة الأقليات..

لقد كانت إثارة الأقليات من أفعل الوسائل بيد الاستعمار لإثارة القلاقل داخل الدولة العثمانية. روسيا الأرثوذوكسية تثير الأقليات الأرثوذوكسية في أرمينيا، والبلقان (الصرب والبلغار واليونان..) وفرنسا تثير الأقليات الكاثولوكية في بلاد الشام (سوريا ولبنان) وبريطانيا تفتح أبوابها لكل ثائر على دولة الخلافة بصرف النظر عن دينه ومذهبه، ولما أراد هرتزل أن يرشو السلطان عبد الحميد ليوافق على منح اليهود وطنا قوميا في فلسطين، كان من بين المغريات التي عرضها (غير الرشوة المالية من ملايين الجنيهات الذهبية الإسترلينية) التدخل لدى روسيا وفرنسا وبريطانيا للكف عن إثارة الأقليات!! فلما رفض السلطان، أزالوه!!

وبعد أن تم توزيع تركة الرجل المريض بين بريطانيا وفرنسا، دأبتا على تكبير شأن الأقليات، واتخاذها أداة لمنع المسلمين من التمسك بدينهم وإلا اعتبروا متعصبين!! وكان من أعجب الدعاوى المثارة أنه لا يمكن تطبيق الشريعة لوجود أقليات غير

(١) من منشورات مشروع الألف كتاب بالقاهرة.

مسلمة داخل المجتمع المسلم!! كأن هذه الأقليات لم تكن موجودة خلال ثلاثة عشر قرنا من تطبيق الشريعة قبل ذلك دون أن يحدث وجودها أى مشكلة على الإطلاق، وكأن من حق أية أقلية فى الدنيا أن تمنع الأكثرية من ممارسة دينها!

بل لا يقف الأمر عند منع تطبيق الشريعة بحجة وجود أقليات غير مسلمة فى المجتمع الإسلامى، فيصل الأمر إلى أن تقول أولبرايت، وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة، التى تجمع فى شخصها الحقد الصهيونى والصليبى معا: يجب إزالة الطابع الإسلامى من سراييفو، لتصبح مناسبة لمجتمع يتكون من المسلمين والصرب والكروات!! تعنى أنه لابد من محو التاريخ حتى لا يبقى فى الذاكرة أنه كان هناك فى يوم من الأيام تاريخ كان فيه إسلام!!

* * *

ولكن الزمن دار دورته . . وبرزت الصحوة الإسلامية بقدر من الله!

وجن جنون الصليبية الصهيونية فقامت تضرب الصحوة بمزيد من الوسائل، بما فيها القمع بالسلاح!

وتزعم الصليبية الصهيونية أنها لا تحارب الإسلام، وإنما تحارب التطرف . . تحارب الإرهاب!

ويستغل الإعلام الغربى - الصليبى الصهيونى المتحفز - أعمالا يقوم بها بعض الشباب هنا وهناك فيتخذونها سنداً لحملة التشويه والتنفير التى يقوم بها ضد الإسلام.

وقد مر بنا كيف نشأت حركة التشويه الإعلامى الأولى، وماذا كانت دوافعها. ولا تختلف حملة التشويه الحالية عن سابقتها فى الهدف ولا فى الوسيلة.

أما أعمال العنف التى يشتكى منها الغرب - بصرف النظر عن مشروعيتها أو عدم مشروعيتها - فيجب أن يعلم الغرب أن الصليبية الصهيونية هى المسئول الأول عنها، بسبب حربها السافرة والخفية ضد الإسلام، والضغط المستمر، والتضييق المتزايد على الإسلام والمسلمين، وخاصة فى قضية فلسطين، وأن هذا الضغط هو الذى يولد الانفجار.

(٥)

صــراع الحضـــارات

تداول الأيام سنة من سنن الله :

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ [سورة آل عمران : ١٤٠] .

وهى تجرى دائمًا بقدر من الله ومشيئة :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (٢٦) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ [سورة آل عمران : ٢٦ ، ٢٧] .

وكونها تجرى بقدر من الله ومشيئة لا يتعارض مع وجود الأسباب الظاهرة التى تؤدى إلى النتائج ، ولكنها لا تؤدى إلى نتائجها من ذات نفسها ، بل بقدر من الله فى كل مرة :

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [سورة القمر : ٤٩] .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ [سورة الطلاق : ٣] .

ومن فضل الله على الإنسان أن ثبت السنن التى تجرى بها الأمور فى الكون المادى وفى حياة البشر ، ولكن تظل مشيئته سبحانه طليقة يفعل ما يشاء . .

* * *

سنة التداول يصاحبها سنة الصراع بين القوى الموجودة فى الأرض ، وتغليب

إحداها على غيرها بمقدار ما تحمل من مقومات الغلبة . . وهنا تختلف النظرة وتختلف الموازين!

يرى الماديون أن الأسباب المادية هى التى تحكم الصراع وتقرر الغلبة، فالذى يملك من القوى المادية أكثر، سواء العسكرية أو التكنولوجية أو الاقتصادية أو البشرية هو الذى تكون له الغلبة فى الصراع . . ويرى أصحاب العقيدة أن هناك معايير أخرى تدخل فى الحساب، وليست القوة المادية وحدها هى التى تقرر الغلبة فى جميع الحالات . . وأنه أولا وأخيرا قدر الله :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ(1) وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٣].

لقد أيد الله الفئة القليلة المؤمنة على ثلاثة أمثالها من الكفار، بقدر منه، ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال : ٤٢ ، ٤٤] ولكنه جعل السبب الظاهر المصاحب لقدر الله، والذى يجرى قدر الله من خلاله، هو الايمان مقابل الكفر، وهو قوة روحية وليست مادية، ولكنه أثقل فى الوزن من القوى المادية المجردة من الإيمان.

وفى مرة أخرى - أو فى درس آخر من دروس التربية الربانية لهذه الأمة - كانت القوة المادية فى صف المسلمين، ولكنهم غفلوا لحظة عن بعض حقائق الإيمان، فظنوا أن القوة الظاهرة فى جانبهم ستكفل لهم النصر على أعدائهم من تلقاء ذاتها، وذلك يوم حنين، حين كان تعدادهم اثنى عشر ألفا فقالوا لن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة! فأصابتهم الهزيمة - بقدر من الله - حتى عادوا فتذكروا أن التسليم لله ورد الأمر إليه والتوكل عليه، جزء من عدة القتال للفئة المؤمنة، مع اتخاذ الأسباب ولكن دون تعلق بالأسباب :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٥ ، ٢٦].

---

(١) كانوا ثلاثة أمثالهم فى الحقيقة.

أما التعلق بالأسباب وحدها - دون رد الأمر لله - فهو معلق بمشيئة الله، إن شاء أنجحه فتنة لصاحبه واستدراجا له، وإن شاء أبطله ليكون آية وعبرة.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ.. ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤].

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [سورة النازعات: ٢٤-٢٦].

* * *

فى عالمنا الحاضر تحاول أمريكا أن تفرض حضارتها وسلطانها على الأرض كلها، ويكتب كاتبهم[1] يقول إن صراع الحضارات سينتهى بفناء كل الحضارات وبقاء الحضارة الأمريكية لتكون هى النموذج الفذ الذى تحتذيه الأمم كلها إن أرادت أن تستمر على قيد الحياة! وإلا فالويل لمن أراد أن يشذ، ويتخذ لنفسه سبيلا غير سبيل أمريكا العظمى!

وَهْمٌ وقع فيه كثيرون من قبل!

وهم مضاد لمشيئة مسبقة من الله!

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [سورة هود: ١١٨، ١١٩]

والله يقول مخاطبا الطغاة على مدار التاريخ:

﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٤-٤٦].

* * *

---

(١) هنتنجتون.

هل هناك سنة لزوال الدول؟

يؤكد هذا ابن خلدون، ويتبعه فى ذلك توينبى: أن الأمم كالأفراد، تولد ثم تشب، ثم تبلغ أشدها، ثم تهرم فتموت. .

وقد يكون الأمر فى ظاهره كذلك. . ولكن إذا دققنا النظر نجد أن فناء الأمم حين يحدث تكون له أسبابه فى تصرفات الأمم ذاتها، وليس كموت الأفراد الذى هو قدر مسبق من أقدار الله يوم خلق الإنسان، لا يعتمد فى حدوثه على عمل معين من جانب الإنسان.

﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ... ﴾ [سورة الواقعة: ٦٠].

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١٥].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥].

أما الأمم فلها قدر آخر. . إن حالها لا يتغير إلا إذا تغيرت نفوس الناس فيها، بالخير وبالشر سواء: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الأنفال: ٥٣].

﴿ . . إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد: ١١].

والأغلب فى حياة الأمم التى قدر الله لها التمكين فى الأرض فترة من الزمن ثم زالت، أن تمر بمراحل معينة من مولدها إلى زوالها.

فحسب السنن الربانية لابد لها لكى تمكّن فى الأرض بعد مولدها أن تكون لديها إرادة البقاء، وإرادة التمكين، وأن تتمثل هذه الإرادة وتلك فى جهد عملى، تسعى به الأمة إلى حيازة أسباب القوة حسبما هو واقع فى عصرها، سواء قوة السلاح والحرب، أو قوة السياسة فى داخل كيانها، أو القوة العلمية أو القوة الاقتصادية. . ولابد من عزيمة قوية وقدرة على بذل الجهد بلا ملل حتى تتحقق الأهداف.

ثم يبدأ الصراع بينها وبين من حولها حين تصل درجة معينة من النمو. إما برغبة منها فى مزيد من التوسع أو بخوف من جيرانها أن تتجه إليهم بقوتها فيبادرونها

بالصراع من جانبهم، بأىٍّ من أدوات الصراع: الحرب أو السياسة أو كلا الأمرين معا..

وفى فترة شباب الأمة وفتوتها يكون هذا الصراع حافزا لمزيد من التشبث بالأهداف، ومزيد من بذل الجهد، ومزيد من الرغبة فى الانتصار على الأعداء. وهذه - فى تاريخ الأمم - هى أنشط المراحل وأغزرها إنتاجا فى كل اتجاه..

ثم تجىء فترة تتحقق للأمة فيها السيطرة والتمكن، ولكن على حذر من الأعداء أن يفكروا فى العدوان عليها، فتستمر فى بذل الجهد، وفى السعى إلى امتلاك وسائل القوة، ولكن على تمكن، واطمئنان داخلى إلى أن لديها من القوة ما تستطيع به أن تردع أى طامع فى العدوان..

وهنا - بعد فترة من الزمن - يبدأ خط الانحدار!

تمضى فترة تتقرر فيها الغلبة بوضوح للأمة على من حولها، فتطمئن إلى قوتها اطمئنانا زائدا عن القدر اللازم، ولا تعود تعطى اهتماما للقوى الخارجية المناوئة أو المنافسة، ويكون لدى الأمة من أسباب الغنى ما يحملها على الترف والتراخى.. فيبدأ الاضمحلال..

فإذا قامت إلى جوارها أمة فتية، تحمل من مقومات الصراع ما فقدته تلك فى طمأنينتها أو فى ترفها وتراخيها، فسرعان ما تتغلب القوة الجديدة، وتتجه الأولى إلى الزوال، أو البقاء على هامش التاريخ!

* * *

إذا كانت هذه سنة الله فى مداولة الأيام بين الأمم والجماعات، فهى تجرى من خلال أعمال تقوم بها تلك الأمم سواء فى الصعود أو الهبوط، نابعة من أشياء فى النفس، تتغير فيغير الله الأحوال بمقدار ما تغير فى داخل النفوس، وما تغير تبعا لذلك من أعمال فى واقع العيان..

ولقد مرت الأمة الإسلامية بتلك السنة، التى لا تتبدل ولا تتحول، فذهبت دولة بنى أمية حين بدأ يدب إليها الترف، وتغفل عن تنامى قوة أعدائها، وذهبت الدولة

العباسية، ثم دولة المماليك ثم الدولة العثمانية على نسق متقارب فى كل مرة، وحدث الشىء ذاته مع دولة الأندلس فى الغرب . .

ولكن السؤال الذى نريد أن نبرزه هنا هو : هل تسرى سنة الفناء على «الأمة الإسلامية» بصرف النظر عن الدولة الحاكمة . . ؟

نقول باطمئنان إن هذه الأمة هى أطول الأمم عمرا فى التاريخ الحديث، وإنها بإذن الله لا تفنى حتى يرث الله الأرض وما عليها، بناء على وعد دائم من الله سبحانه وتعالى، أن يمكّن لها فى الأرض كلما حازت شروط التمكين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [سورة النور : ٥٥].

ووعد من رسوله ـ ﷺ ـ: «يبعث الله على رأس كل قرن من يجدد لهذه الأمة أمر دينها»[(١)]

وهذا مفرق الطريق بينها وبين الأمم التى بادت فى التاريخ . .

هذه الأمة لها كتاب سماوى، محفوظ بحفظ الله، لا يناله التغيير ولا التحريف، هو دستور الحياة بالنسبة لها (وبالنسبة للبشر كافة) والأمة تضعف أو تقوى بمقدار ما تقترب أو تبتعد من منبع الحياة والقوة والتمكين، ولكنها بوعد الله ووعد رسوله ـ ﷺ ـ لا تبتعد البعد الذى يفصلها عن منبعها كل الفصل، لأن الله يبعث لها من يعيدها أو يدعوها للعودة إليه .

وقد مر بهذه الأمة من الأهوال والكوارث ما كان كفيلا بالقضاء على أى أمة ليس لها أصل محفوظ، وجذور ضاربة فى الأعماق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٤، ٢٥].

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم فى المستدرك .

تلك الكلمة الطيبة هى «لا إله إلا الله» بكل ما تحمل من نور، يخرج الله به الناس من الظلمات. وبكل مقتضياتها فى دنيا الواقع، التى هى منهج حياة كامل، يشمل كل جوانب النفس، وكل مجالات الحياة.

وقد انبثقت من هذه الكلمة الطيبة حضارة أضاءت وجه الأرض فى يوم من الأيام، لا بين معتنقيها فحسب، بل كذلك فى الذين حاربوها بكل قوتهم، ولكنهم لم يملكوا أنفسهم من التأثر بها والاستفادة منها..

ثم ابتعدت الأمة عن المنبع فخبا نور الحضارة التى أضاءت وجه الأرض ذات يوم، فملأ مكانها ـ حسب سنة التداول ـ حضارة جاهلية، تقدمت فى بعض جوانب الحياة تقدما هائلا، وانتكست فى الجوانب الأخرى انتكاسا لا مثيل له فى التاريخ!

وتلك الحضارة هى التى تريد اليوم أن تملك الأرض، وتتزعم العالم، وتبيد غيرها من الحضارات!

كلا! إنها لا تملك من أسلحة الصراع الحقيقية إلا القوة المادية.. وتلك وحدها ـ بغير قيم روحية وأخلاقية مصاحبة ـ لا تضمن لصاحبها الاستمرار!

بل إنها، بتوهمها أنها ـ بقوتها المادية وحدها ـ تستطيع أن تملك العالم وتتزعمه وتبيد غيرها من الحضارات لتكشف عن نقطة الضعف الكبرى فى كيانها، التى تؤهلها لا للزعامة.. بل للانحدار!

والإسلام هو الحضارة التى يمكن أن يكتب لها البقاء، بالمقومات الربانية التى أودعها الله فيه، إذا قدر لأمته أن تعود إليه، وتنهل من منبعه من جديد..

والصحوة مبشر، يبشر بهذه العودة، وإن استغرق الأمر قدرا من الزمن، لا يعتبر شيئا يذكر من عمر الأمم، وإن استغرق أعمار الأفراد.

والغرب فى دخيلة نفسه يخشى هذا الأمر.. ويحسب له كل حساب. يخشى الصحوة، وما يمكن أن يترتب عليها من نتائج تؤثر فى زعامة الغرب وسيطرته، وتفرده بالسلطان.

﴿ الَّذين آتيْناهُمُ الْكتاب يعْرِفُونهُ كما يعْرِفُون أبْناءهُمْ وإنَّ فرِيقًا مِّنْهُمْ ليكْتُمُون الْحقَّ وهُمْ يعْلمُون ﴾ [سورة البقرة: ١٤٦].

يعلمون حقيقه هذاالدين . .

ويعلمون أنه يملك من أسلحة الصراع ما لا يملكون هم فى وقتهم الحاضر، وإن ملكوا كل القوة المادية التى يمكن أن يحلم بها إنسان . .

ونحن نتوقع - على الرغم من رؤى هنتنجتون - أن الغلبة فى صراع الحضارات القادم ستكون للإسلام!

ولو تعقل الغرب لما أفزعه الإسلام، ولا جند طاقته كلها للقضاء عليه! فهو المنقذ الذى يمكن أن ينقذ الغرب ذاته من التردى فى هاوية الظلمات!

ولكن البشر لا يحكمون عقولهم، حين تستولى عليهم الأهواء!

﴿ واللَّهُ غالِبٌ علىٰ أمْرِهِ ولٰكِنَّ أكْثر النَّاسِ لا يعْلمُون ﴾ [سورة يوسف: ٢١].


النادي الشبابي

ثالثا: فى الاقتصاد

١ ـ اقتصاديات العالم الإسلامى.

٢ ـ أطلس اقتصادى للعالم الإسلامى.

(١)

اقتصاديات العالم الإسلامى

حديثى هنا ليس فى قضايا الاقتصاد المتخصصة. فهذه يبحثها المختصون، الذين يجمعون بين العلم الشرعى، وبين الدراسة المتعمقة لعلم الاقتصاد، ليخرجوا لنا تصورا صحيحا لقضايا الاقتصاد الإسلامى سواء من الجانب النظرى، أو من الجانب العملى فى عالمنا المعاصر.

إنما أتحدث عن قضية أراها من وجهة نظرى مهمة وجديرة بالدراسة.

إن العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط هو أغنى بقعة على سطح الأرض بإمكاناته المختلفة من بشر، ونبات وحيوان ومعادن، ومياه وسهول وجبال ووديان..

والعالم الإسلامى فى واقع الأمر هو أفقر بقعة على سطح الأرض على الرغم من وجود هذه الإمكانات، وهو - بصفة عامة - من أكثر مواقع العالم تخلفا فى جميع الميادين.

ولا شك أن لهذا الأمر الخطير أسبابه المتعددة، النابعة - كما أشرنا فى مكان آخر من قبل - إلى التخلف العقدى، الذى نشأ منه التخلف العلمى والتخلف الحربى والتخلف السياسى، والتخلف الاقتصادى والتخلف الفكرى والتخلف الأخلاقى.. وجميع أنواع التخلف التى يشكو منها العالم الإسلامى.

ولابد من علاج هذا التخلف العقدى إذا كان يراد حقا للعالم الإسلامى أن يتقدم، وأن يكون له وزن يذكر فى الصراع الضارى الذى يجرى اليوم على سطح الأرض..

ولكن علاج التخلف العقدى - على كل أهميته - لن يغنى بطبيعة الحال عن علاج نوعى لكل لون من ألوان التخلف، بما يناسبه من أنواع العلاج.

والجانب الاقتصادى هو أحد هذه الجوانب التى تحتاج - بعد إصلاح الخلل العقدى - إلى علاج نوعى، يزيل التخلف، أو فى القليل يقلل من حدته وضراوته، ويسمح بالانتقال من الجمود إلى الحركة، ومن التوقف إلى المسير.

والدراسة التى أرجو أن يتوفر عليها باحثون متخصصون تنقسم إلى قسمين رئيسيين. الأول هو دراسة الإمكانات الاقتصادية لكل قطر على حدة، على حسب ما يحوى من الطاقات: البشرية والمادية، لا على أساس الحاضر المتسم بالعجز والتخلف، إنما على أساس قيام نهضة فيه، تقوم بتعبئة شاملة للطاقات البشرية والمادية. بعبارة أخرى: دراسة الإمكانات الاقتصادية لكل قطر لو أننا استطعنا أن نعلم شعبه وندربه ونمكنه من استغلال موارده الطبيعية بأقصى طاقتها، وبيان نوع الجهد المطلوب للقيام بهذا العمل؛ أى نوع التعليم المطلوب، والتخصصات المطلوبة، والنسبة التقريبية لكل واحد من هذه التخصصات فى سياسة التعليم الشاملة، ثم نوع الاستثمارات المطلوبة فى المجالات المختلفة، التى تستطيع فى النهاية أن تستغل الموارد الطبيعية بأقصى طاقتها، والزمن التقريبى الذى يمكن أن يستغرقه هذا العمل، والعقبات القائمة أمام تنفيذ هذا الهدف الكبير، بما فيها - أو فى مقدمتها - العجز الداخلى والتسلط الخارجى الذى يحرص على إبقاء العالم الإسلامى مستهلكا لا منتجا، تابعا مقهورا لا مستقلا قادرا.

أما القسم الثانى من الدراسة فيتعلق بالإمكانات الاقتصادية للعالم الإسلامى مجتمعا ومترابطا، أى على أساس أن كل قطر على حدة قد قام بتنمية اقتصادياته، من جَانبيها البشرى والمادى، ثم اجتمع العالم الإسلامى فى وحدة اقتصادية قائمة على التبادل الحر، والتنمية المشتركة، التى تعين كل قطر على استكمال إمكاناته دون تحكم ولا تسلط ولا قهر، وعلى افتراض أن العالم الإسلامى ظل على ما هو عليه الآن من الانقسام إلى كيانات سياسية مستقلة، ولكن تقوم بينها وحدة اقتصادية تعمل لصالح الجميع.

* * *

إن هذه الدراسة نظرية بحتة، بل افتراضية . . تقوم على افتراض أوضاع ليست قائمة فى الوقت الحاضر، وقد لا توجد بسهولة فى المستقبل القريب، نظرا للعاملين اللذين أشرنا إليهما آنفا، وهما العجز الداخلى والتسلط الخارجى. ولكنى أراها من جانب آخر على درجة كبيرة من الأهمية، لا للجيل الحاضر وحده، بل للأجيال القادمة من المسلمين.

إننا لو استطعنا أن ننفذ ما افترضناه فى هذه الدراسة، أو بعضه على الأقل - وهو من الوجهة النظرية غير مستحيل، لأن الدراسة ستقدم لنا تصورا واقعيا قابلا للتطبيق بالفعل من الناحية العملية - فإن العالم الإسلامى سيكون - مرة أخرى - أغنى بقعة فى الأرض، وسيصبح كذلك أكبر قوة اقتصادية فى الأرض، أو على الأقل واحدا من البقاع الغنية، وواحدا من القوى الاقتصادية الكبيرة.

وإبراز هذا المعنى أمر مهم جدا فى تربية الأجيال الجديدة من هذه الأمة.

إن هذه الأجيال - فى الوضع الحالى للأمور - تتربى على أساس الأمر الواقع، أى العجز الداخلى والتسلط الخارجى، وتتربى على أساس أن هذا أمر لا مناص منه، لأن إصلاحه أكبر من طاقة سكان هذا الجزء من الأرض، الذى يشار إليه أحيانا باسم «العالم الثالث» أى أنه قدر محتوم لا خلاص منه، ولا حيلة للناس إزاءه إلا الخضوع له، والتلاؤم مع مقتضياته، مع انصراف كل فرد إلى ذاته، والبحث فى أفضل الطرق للاستفادة الفردية الممكنة فى ظل هذه الظروف القاهرة.

ولكن حين تتربى هذه الأجيال على أساس واقع آخر قابل للتحقيق، يستطيع كل قطر فيه أن يغيّر أحواله إلى الأفضل، ثم يستطيع فيه العالم الإسلامى المجتمع المترابط - حتى مع افتراض بقاء الصورة السياسية على ما هى عليه - أن يكون شيئا آخر غير ما هو عليه اليوم: أن يكون سيدا بدلا من أن يكون تابعا، وأن يكون ذا مقدرة بدلا من أن يكون عاجزا، وأن يكون لاعبا ماهرا فى الساحة بدلا من أن يكون قابعا فى مقاعد المتفرجين، قانعا بالتفرج على الآخرين . .

حين تتربى هذه الأجيال على أساس إمكان التغيير، وإمكان إيجاد واقع آخر مختلف، فسوف تتغير نظرتها إلى نفسها أولا، ونظرتها إلى الواقع من حولها كذلك، وسوف تتطلع إلى تحقيق هذا الواقع أو جزء منه على أقل تقدير، فتبدأ

الحركة الصاعدة، التى يتحقق فيها الخير، ولو استغرق الإعداد لها عدة أجيال، فعمر الأمم لا يقاس بالسنوات والأيام كعمر الأفراد، إنما يقاس بمقدار ما يقع فيه من أطوار، وما يحدث فيه من تحولات . .

ولا شك أن أعداءنا سيكرهون أن نفكر على هذا النحو، فضلا على أن نحاول تربية الأجيال القادمة على هذه التصورات. ولا ننسى الجهد الذى بذل فى تخريب جمعيات توظيف الأموال الإسلامية، التى قامت فى مصر فى وقت من الأوقات وحققت نجاحات كثيرة، واتهامها بشتى التهم، وتشويه سمعتها، وتجميد أموالها ومنعها من معاودة نشاطها بأى شكل من الأشكال، لأن نجاح أى مشروع اقتصادى يرفع راية الإسلام يعتبر خطرا على «مصالح» الدول الغربية!!

ولا ننسى أن طائفة من المسلمين اشترت مليون فدان فى الصحراء الغربية المصرية من أملاك الدولة، بهدف استصلاحها وزرعها قمحا، مع التعهد بعدم استخدام قطرة واحدة من ماء النيل، وإنما استخدام المياه الجوفية من باطن الأرض، وبعد أن تم إعداد الأرض سعت أمريكا إلى منع تنفيذ المشروع - ومنع بالفعل - لأن اكتفاء أى بلد اكتفاء ذاتيا بالقمح يعتبر عملا عدائيا (!!) موجها للقمح الأمريكى الذى تستخدمه أمريكا فى إذلال الشعوب!!

نعم! سيكره الغرب أن نفكر على النحو الذى اقترحناه فى الدراسة، وسيتدخل لمنع تنفيذه بما يملك من القوة السياسية والقوة الاقتصادية، والقوة الحربية إذا لزم الأمر . .

وهنا يلزمنا أن نبين للأجيال هذه الحقيقة: أن العالم الإسلامى يملك إمكانات هائلة تجعله يصبح أغنى بقعة فى الأرض، أو على الأقل من أغنى بقاع الأرض، ولكن عجز أهله - الناشئ من التخلف العقدى بادئ ذى بدء - وتسلط الغرب من ناحية أخرى الذى يسعى إلى منع أية فرصة للتنمية الحقيقية للعالم الإسلامى، يجعلانه - كما هو فى واقعه الراهن - أفقر بقاع الأرض، وأشدها تخلفا عن ركب الحياة الظافر . .

هذا البيان - حين نقدمه للأجيال بالوقائع والأدلة لا بالشحن العاطفى - سيحدث ولا شك تغييرا فى النفوس، يترتب عليه حدوث التغيير من عند الله.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الرعد: ١١].

ولسنا من السذاجة بحيث نعتقد أن الأمور ستكون سهلة! وأنها مجرد كتابات تكتب فى قراطيس وتنشر على الناس!

نعرف جيدا أن كل قوى الشر ستتجمع لمنع إحداث هذا التغيير فى نفوس المسلمين! ذلك التغيير الذى يعيد للأمة إحساسها بكيانها، وبإمكاناتها، وبحقيقة القوى الشريرة التى تمنعها من بلوغ أهدافها، تحت ستار من اللافتات المختلفة التى تحاول التمويه على حقيقة المعركة، وأنها معركة صليبية صهيونية ضد الإسلام!

ولكن المستقبل - كما نقول دائما - سيكون للإسلام بإذن الله!

وأحد العوامل التى تسهم فى تشكيل هذا المستقبل، وتقريب حدوثه فى واقع الأرض، هو هذه الحرب ذاتها المشبوبة ضد الإسلام، الحرب الخفية والظاهرة، التى لا تترك مجالا من المجالات: السياسية أو الاقتصادية أو العلمية أو الإعلامية إلا استخدمته لمحاولة كبت الصحوة الإسلامية، ومنعها من أخذ طريقها إلى التمكن فى الأرض.

ورد الفعل المتوقع لهذه الحرب الصليبية الصهيونية فى النهاية هو الانفجار! ويعجب الإنسان من حماقة القائمين بهذه الحرب، إذ يدفعون الأمور بأيديهم إلى الوضع الذى يتخيلون أنهم يعملون على تحاشيه!

(٢)

أطلس اقتصادى للعالم الإسلامى

مما ييسر الأهداف التى أشرنا إليها فى الفصل السابق أن يكون بين يدى طلاب العلم أطلس اقتصادى للعالم الإسلامى يتبين فيه الطالب بنظرة سريعة الأحوال الاقتصادية القائمة فى بلدان العالم الإسلامى المختلفة، والإمكانات الاقتصادية لكل بلد من البلاد.

والحقيقة أن الأطالس المتخصصة للعالم الإسلامى، أى التى تركز على العالم الإسلامى، وتبرزه على أنه وحدة متشابكة رباطها الإسلام، تكاد تكون منعدمة فيما يقدم لطلاب العلم من كتب ومناهج دراسية، وكان ينبغى أن تكون هناك أطالس تبرز هذا المعنى - إلى جانب الأطالس العامة التى تتناول العالم كله - فترسم خريطة للوجود الإسلامى موزعا على بلاد العالم المختلفة، سواء كان وضعهم أنهم هم الأغلبية الساحقة، أو أنهم أقلية فى بلد غير مسلم، وأن تتحرى الإحصاءات الدقيقة التى تبين نسبة المسلمين فى أى بقعة من الأرض سواء كانت النسبة مائة فى المائة أو حتى واحدا فى المئة . . فإن عرض هذه المعلومات على الطالب فى أطلس ملون يسهل استخلاص المعلومات منه له أثر كبير فى وجدان الطالب، إذ يتعود أن ينظر إلى العالم الإسلامى باعتباره وحدة متميزة، يربطها الإسلام، بدلا من النظرة الحالية التى يخرج بها الطالب من المناهج التى تعطى له، والتى لا يبرز فيها هذا الرباط إلا نادرا، والتى تجزّئ الوجود الإسلامى فى حسه حسب الوحدات السياسية القائمة اليوم فى العالم الإسلامى، حيث كل دولة لها اسم جغرافى، ولها حدود مرسومة، ولها كيان قائم بذاته لا ارتباط له بغيره من الكيانات.

وقد قامت محاولات - تعتبر هزيلة - فى وقت من الأوقات لإبراز ما أطلق عليه

اسم «العالم العربى» فى بعض الأطالس المتداولة، ولا حرج بطبيعة الحال من إبراز الكتلة العربية فى صورة تميزها بسمة خاصة هى «العروبة»، ولكن الأولى بالنسبة للمسلم أن تكون الكتلة الإسلامية هى الحاضرة فى ذهنه ووجدانه على الدوام، لتذكره بوحدة هذه الأمة، وبقيام هذه الوحدة على رابطة الإسلام، رابطة العقيدة، التى تسعى الصليبية الصهيونية إلى تذويبها وإضعافها، وإبعاد صورتها عن أذهان المسلمين ووجدانهم، تحت لافتات مختلفة، آخرها «العولمة» والزعم بأن العالم كله قد أصبح كالقرية الصغيرة، لا مجال فيه للتميز بلغة أو جنس أو دين.. بينما يقول الغرب للأمم من جانب آخر: لابد أن تأخذوا حضارتنا وثقافتنا وتقاليدنا وتتعلموا لغتنا وتعيشوا فى بلادكم على نسق معيشتنا، فيفرضون لأنفسهم تميزا ينكرونه على الآخرين!

ما الفرق إذن بين دعاوى العولمة ودعاوى الاستعمار والتغريب التى كانت من قبل؟!

بالنسبة لنا لا فرق! الغالب يفرض على المغلوب التبعية والخضوع والانسحاق تحت وطأته!

وفى جميع الأحوال توجه الحرب إلى الإسلام!

وقد سبق أن أشرنا إلى كلمة جرونيباوم: إن استعلاء المسلم بدينه هو العقبة الكبرى أمام التغريب!

واليوم يقول دعاة العولمة: إن العقبة الوحيدة أمام العولمة هى الإسلام!!

أما نحن فنقول: مرحبا بمساكنة أهل «القرية الواحدة!» لو كانوا فعلا أهل قرية واحدة يتعاملون مع السكان جميعا بروح إنسانية، ولا يكيلون بكيلين، ولا يزنون بميزانين، ولا يتعاملون بأسلوبين. فالله سبحانه وتعالى يقول لنا فى كتابه المنزل: ﴿ **لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [سورة الممتحنة: ٨]. ولكن ما القول فى مذابح الصرب للمسلمين فى البوسنة والهرسك ثم فى كوسوفو المسلمة، ومذابح اليهود للمسلمين فى فلسطين، ومذابح عبّاد البقر للمسلمين فى الهند وكشمير،

ومذابح الفلبينيين للمسلمين فى الفلبين، ومذابح البورماويين للمسلمين فى بورما وغيرهم وغيرهم وغيرهم، وسكوت أهل «القرية الواحدة!» عن تلك المذابح المروعة إن لم يكن معاونة مجرميها فى السر والعلن للقضاء على المسلمين؟!

أيظل اسمها «القرية الواحدة» على الرغم من ذلك؟! أم الأولى أن تسمى «القرية الظالمة» التى ينصبّ ظلمها على المسلمين خاصة كما قال رب العالمين:

﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٠].

* * *

ونترك القرية الظالمة فى ظلمها وطغيانها، ونعود إلى الحديث عما كنا فيه..

ينبغى أن تكون هناك أطالس تبرز العالم الإسلامى كيانا خاصا متميزا رباطه هو الإسلام..

ثم ينبغى - فيما نحن بصدده فى الجانب الاقتصادى - أن تكون هناك أطالس خاصة تبرز المعالم الاقتصادية للعالم الإسلامى فى وحداته المختلفة، بحيث يستطيع الدارس بنظرة سريعة أن يلم بالصورة العامة لاقتصاديات العالم الإسلامى، الحاضرة والممكنة فى المستقبل، من خلال البيانات المدرجة على الخرائط، أو فى الشروح المصاحبة لها. فتكون هناك خريطة تبين الطاقة البشرية للعالم الإسلامى، أى عدد السكان المسلمين فى كل بلد، ونسبتهم إلى العدد الكلى للسكان. وخريطة تبين الموارد المائية من أنهار وبحار وخزانات وقنوات، يشرح فيها طول كل نهر وفروعه وسعته المائية والخزانات المقامة عليه، ومدى صلاحيته للملاحة، والمساحات الزراعية التى يرويها، وخريطة تبين الثروة النباتية، وخريطة تبين الثروة الحيوانية، وخريطة تبين الثروة المعدنية الكامنة فى جوف الأرض سواء كانت بترولا أو فحما أو حديدا أو ذهبا أو فضة أو نحاسا.. إلخ، وخريطة تبين المناخ، وكثافة الأمطار أو انعدامها، واتجاه الرياح، ودرجات الحرارة المعتادة فى كل قطر فى فصول السنة المختلفة، وخريطة تبين المساحات المزروعة فى كل بلد، وما ينتج من الزراعة من محاصيل، وخريطة تبين الصناعات القائمة، ومقدار إنتاجها ونوعيته.. ثم

خرائط تبين ما يتوقع فى المستقبل فى هذه الجوانب كلها على فرض إمكان استثمار طاقاتها على الوجه الصحيح .

مثل هذه الأطالس تحتاج فى إخراجها إلى جهد علمى ضخم، تشترك فيه مجموعات متعددة من العلماء المتخصصين فى شتى الاتجاهات، ولكنها حين تنجز تكون ذات نفع كبير للدارسين، وأول منافعها، وأكبر منافعها، أن تتربى أجيال من الدارسين فى العالم الإسلامى على اتساعه، لديهم فكرة واضحة عن عالمهم الإسلامى، وعن إخوانهم فى الدين، أين يعيشون، وكيف يعيشون، وكيف ينبغى أن يكون حالهم حين تجمعهم مرة أخرى رابطة الأمة الواحدة، أمة الإسلام!


النادي الشبابي

رابعا: فى الأدب

١- حول مصطلح «الأدب الإسلامى».

٢- طبيعة الالتزام فى الأدب الإسلامى.

٣- الوظيفة التربوية للفن الإسلامى.

(١)

حول مصطلح «الأدب الإسلامى»

كنت - قبل سنوات عديدة - قد أصدرت كتابا بعنوان «منهج الفن الإسلامى»، شرحت فيه ما أعنيه بإسلامية الفن - والأدب بصفة خاصة - وكيف يكون الإنتاج الأدبى إسلاميا، وكيف يفترق الأدب الإسلامى عن غيره من الآداب، ولم أكن أتوقع - بطبيعة الحال - أن يجد الكتاب قبولا عند الذين تعودوا أن يأخذوا مناهج تفكيرهم من الغرب، ويتتبعوا الغرب فى انحرافاته النفسية والفكرية، ظانين أنها هى طريق التقدم وعنوان الرقى، وأن كل ما يخالفها هو التأخر والانغلاق! ولكنى فى الحقيقة لم أكن أتوقع أن يدور الجدل حول مفهوم المصطلح ذاته، سواء وافقه الآخرون أو خالفوه، لأنى كنت أظن أنى وضحته بما فيه الكفاية فى ذلك الكتاب!

ثم قامت جماعة من المشتغلين بالأدب من منطلق إسلامى بتشكيل رابطة أطلقوا عليها «رابطة الأدب الإسلامى» جعلوا من أهدافها تعريف الناس بمفهوم الأدب الإسلامى، وبيان ضرورة انطلاق الأديب المسلم من مفاهيم الإسلام وتصوراته حين يتجه إلى الإنتاج الأدبى، ثم ترسيخ هذا المفهوم برعاية الإنتاج الإسلامى ونشره بين المهتمين بالأدب من القراء.

وظننت مرة أخرى أن قيام هذه الرابطة، وقيامها بما ندبت نفسها له، سيجعل الأمر واضحا تماما بالنسبة لمصطلح الأدب الإسلامى، سواء وافق الآخرون أو لم يوافقوا على المنهج ذاته..

ولكنى فوجئت بأن الجدل حول مفهوم المصطلح قد زادت حدته، وأصبح «قضية» يختصم فيها النقاد، لا بالنسبة للمحتوى، وللمنهج، ولكن حول التسمية ذاتها وهل تجوز أم لا تجوز!

وفى ظنى أن السبب الأول فى قيام هذا الجدل هو غربة الإسلام فى واقعنا المعاصر، تلك الغربة التى أخبر عنها رسول الله - ﷺ - قبل أربعة عشر قرنا حين قال: «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»[1].

لقد استنكر كثير من الناس - بادئ ذى بدء - أن نخرج بالدين عن نطاق الاعتقاد والشعائر التعبدية المتعلقة به، إلى نطاق الأدب أو الاقتصاد أو العلم، فنقول: «أدب إسلامى» أو «اقتصاد إسلامى» أو «علم إسلامى». . ورأوا أن هذا خلط «غير علمى» من جهة، ومن جهة أخرى هو حشر للدين فى غير مجاله المحدود الذى لا ينبغى فى نظرهم أن يتعداه، وهو أن يكون «علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا صلة لها بواقع الحياة»!

هذا المفهوم الغربى للدين - الذى اعتنقه العلمانيون عندنا - لا يقبل أن «يزج!» بالدين فى أى مجال من مجالات الحياة الواقعية بدءا بالسياسة - تحديدًا! - وانتهاء بالأدب والفن، ومرورا بسائر مناحى النشاط البشرى!

والجدل فى حقيقته ليس حول مفهوم «الأدب الإسلامى» كما قد يبدو فى ظاهر الأمر، إنما هو فى الحقيقة جدل حول مفهوم الدين: ما هو؟ وما حدوده؟ وما مهمته فى حياة الإنسان؟!

* * *

لأوربا موقفها الخاص من الدين، الذى أشرنا إلى أسبابه من قبل فى فصل «موقف أوربا من الدين: أسبابه ونتائجه، وانعكاساته على واقعنا المعاصر». . وهو موقف ناشئ من ظروف أوربا التاريخية، لا من الدين فى ذاته، وإن ظنت أوربا فى صراعها ضد طغيان الكنيسة أن الدين هو سبب المصائب كلها، وأن العلاج الوحيد هو نبذ الدين، أو فى القليل تحجيمه حتى يصبح علاقة خاصة فى وجدان من أراد، لا يحكم شيئا من أمور الحياة العامة بدءًا بالسياسة - تحديدًا! - وانتهاء بالأدب والفن، ومرورا بسائر مناحى النشاط البشرى!

وأوربا حرة تفعل فى دينها ما تشاء! ولكن العجب ممن يحملون أسماء إسلامية

---

(1) أخرجه مسلم.

أن يقلدوا أوربا فى انحرافاتها فى شأن الدين خاصة، لمجرد أن أوربا تملك اليوم القوة والسيطرة وهم لا يملكون!

إنه لا تلازم على الإطلاق بين امتلاك القوة وبين سلامة المنهج الذى يتبعه المالكون للقوة! فليس هذا من سنن الله فى حياة البشر، بل إن العكس كثيرا ما يحدث ـ لحكمة يريدها الله ـ فيصل المنحرفون إلى القوة، بل يزدادون قوة كلما زادوا انحرافا، دون أن تكون قوتهم دليلا على سلامة منهجهم!

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤].

وقد يبدو هذا غريبا لأول وهلة فى عيون الذين لا يقرءون السنن الربانية، ولا يدركون حكمتها؛ فكيف يكون نسيانهم للهدى الربانى، وإعراضهم عن الأخذ بمقتضياته سببا فى «النجاح» والتمكين فى الأرض؟!

ولكنهم لو قرءوا السنن الربانية وأدركوا حكمتها ما تعجبوا!

إن هذا التمكين للعصاة والفساق والمجرمين هو تمكين الاستدراج:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٢٥].

إن الدلالة الوحيدة المؤكدة للتمكين فى الأرض ليست سلامة المنهج، فهذه قد تكون وقد لا تكون، إنما هى وجود «إرادة» عند قوم معينين، وبذل الجهد لتحقيق هذه الإرادة، واتخاذ الأسباب المؤدية إليها، حسب سنة من سنن الله:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ [سورة هود: ١٥].

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ[1] مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٠].

---

(١) أى المؤمنين والكفار.

هذا فى الحياة الدنيا . . أما فى الآخرة فيختلف الأمر بين هؤلاء وهؤلاء:

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [سورة هود: ١٥، ١٦].

بل قد يختلف الأمر فى الحياة الدنيا ذاتها قبل الآخرة:

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وخلاصة القول: أن القوة والتمكين فى الأرض فترة من الفترات - ولو امتدت عدة قرون - ليست فى ذاتها دليلا على سلامة المنهج، أو سلامة القيم، أو سلامة المفاهيم. وتلك بديهية يدركها كل من يتدبر التاريخ. فالطغاة المجرمون الذين مكنوا فى الأرض أكثر عددا فى تاريخ البشرية من الأتقياء الصالحين الذين كان لهم فى الأرض سلطان، فهل يجعلنا ذلك نقول إن الطغيان هو المنهج الصالح، وإن الظلم هو معيار الرشاد؟! أم نقول إن الله قد يمكن للفجار فى الحياة الدنيا وهو غاضب على فجورهم وظلمهم، ليجزيهم الجزاء الأوفى فى الآخرة؟

إنما يتبين الحكمةَ من سير الأمورعلى هذا النحو فى الحياة الدنيا من يقرأ السنن الربانية فى شمولها وتكاملها، ومن يؤمن بأن الآخرة - لا الدنيا - هى دار القرار، وهى التى يحق فيها الحق، وتجزى فيها كل نفس بما كسبت، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٧) ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [سورة الزلزلة: ٧، ٨] فى خلود لا ينقطع ولا يبيد.

أما الذين انطمست بصائرهم، ولم يؤمنوا إلا بالحياة الدنيا، فلن تكون الحياة فى حسهم إلا عبثا لا غاية له ولا مدلول، وصراعا لا ضابط له ولا ميزان!

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ [سورة ص: ٢٧].

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

* * *

تختلف الرؤية تماما فى حس المسلم، سواء بالنسبة لمفهوم «الدين» أو مفهوم «الحياة» أو مفهوم «الإنسان» ودوره فى الحياة، وغاية وجوده فى الأرض.. ومن ثم تختلف رؤيته كذلك لمفهوم الأدب، وكيف ينبغى أن يكون.

الدين فى حس المسلم ليس محصورا فى تلك العلاقة الوجدانية - الباطنية - بين الإنسان وربه، وإن كانت تلك العلاقة هى الأساس الذى لن يكون للدين وجود حقيقى إن لم توجد.

إنما الخلاف بين رؤية المسلم وبين المفهوم الغربى هو فى ذلك الانحصار الذى انتهى إليه الدين فى أوربا نتيجة ظروفها الخاصة، التى هى ظروف خاصة بكل معانيها، وليست حقيقة «بشرية» عامة كما تتوهم أوربا، وكما تريد أن تفرض وهمها على البشرية كلها فى الوقت الحاضر!

الدين فى حس المسلم هو كما أراده الله:

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١٦٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الدين هو الحياة، بكل مجالاتها، بكل دقائقها، بكل مناشطها، بكل اتجاهاتها، لا يخرج منها شىء عن نطاق الدين! إنه ليس فقط تلك اللحظة الروحية التى يناجى فيها الإنسان ربه - وإن كانت هذه اللحظة هى الأساس - ولكنها - وحدها - لا تشكل «الدين» كما أمر به الله، ولا تؤدى الهدف الذى جاء الدين من أجله:

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [سورة الحديد: ٢٥].

هو إذن منهج حياة كامل منزل من عند الله، مهمته تقويم حياة الناس فى

الأرض، وإقامتها بالقسط، حيثما كان هناك «ناس» وحيثما كان لهم نشاط يمارسونه فى الأرض [1].

والناس فى الأرض يمارسون مناشط شتى: سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وأخلاقية، وفكرية. . . والدين الربانى معهم فى كل منشط ينشطونه، يقوّم خطاهم، ويهديهم إلى سبيل الرشاد.

ورضيت أوربا أم كرهت، وآمنت أم كفرت، فهذا هو «الدين» كما أراده الله، وقال عنه: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [سورة آل عمران: ١٩]، وعلمه لرسوله - ﷺ - وأمره أن يعلمه للناس، فقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

* * *

الأدب واحد من ألوان النشاط التى يمارسها الإنسان فى الأرض. . ومن ثم فهو داخل فى هذا العموم الذى يشمله الدين المنزل من عند الله، الذى لا يند عنه شىء، ولا يخرج عن نطاقه شىء، والذى يشمل ﴿ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾، ويجعلها كلها ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . .

ولكن البشرية فى جاهلياتها جميعا - بما فى ذلك الجاهلية المعاصرة - نظرت إلى الأديب نظرة خاصة وجعلته «فوق القانون»! لا يسأل عما يفعل! ولا يتقيد بما يتقيد به الآخرون!

وحجتهم أنه «مبدع». . أنه «خالق!». . ومن ثم لا ينطبق عليه ما ينطبق على البشر العاديين!

وحقا إن التعبير الجميل المؤثر، والقدرة على تصوير المعانى بطريقة مؤثرة، والقدرة على الغوص فى أعماق الأشياء واستخراج مكنوناتها، موهبة لا توهب لكل إنسان، وإن الأديب - بهذا المعنى - شخص متميز عن الآخرين. . ولكن، إذا كانت هذه موهبة فمن الواهب؟!

---

(١) اقرأ إن شئت كتاب «لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة».

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [سورة النحل : ٥٣] .

فهل من اللائق للإنسان المنعَم عليه ، أن يتمرد على المنعِم الوهاب؟! وأن يكون تمرده نابعًا من ذات النعمة التى وهبها إياه؟!

وحين ينسى ربه ، ويتبجح كما تبجح قارون ، ويقول : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ [سورة القصص : ٧٨] ، ويرفض الانصياع لأمر الله ، فهل يكون ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ كما ينبغى أن يكون ، أم يكون قد ارتد ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾؟

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [سورة التين : ٤ـ٦] .

وهذا فارق رئيسى بين الإنسان المؤمن والإنسان الجاهلى فى التعامل مع فضل الله . .

❊ ❊ ❊

لعلنا إذن نخطو خطوة نحو تحديد المصطلح إذا قسمنا الأدب ـ بوصفه أحد ألوان النشاط الذى يقوم به الإنسان فى الأرض ـ إلى قسمين رئيسيين : أدب إسلامى ، وأدب جاهلى .

ولكن يجب قبل ذلك أن نحرر مصطلح «الجاهلية» من مفهومه التاريخى الذى يقصد به حال الأمة العربية ـ أو حال البشرية كلها ـ قبل بعثة الرسول ـ ﷺ ـ بمعنى أنها حالة تاريخية انتهت إلى غير رجعة! فنقول إن الجاهلية حالة يمكن أن توجد فى أى لحظة حين يرفض الناس الإذعان للمنهج الربانى ، ويضعون لأنفسهم مناهج من عند أنفسهم يخالفون فيها المنهج الربانى .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

«فأما بعد ما بعث الله الرسول ـ ﷺ ـ فالجاهلية المطلقة قد تكون فى مصر دون مصر ، كما هى فى دار الكفار ، وقد تكون فى شخص دون شخص كالرجل قبل أن يسلمَ ، فإنه يكون فى جاهلية وإن كان فى دار الإسلام .

فأما فى زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد - ﷺ - فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة .

والجاهلية المقيدة قد تقوم فى بعض ديار المسلمين ، وفى كثير من المسلمين»[(١)] .

ومعنى ذلك أن الجاهلية الشاملة المطلقة التى تعم وجه الأرض كله قد انتهت بمبعث رسول الله - ﷺ - وقيام طائفة من أمته ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة ، ولكنها - أى الجاهلية المطلقة - يمكن أن توجد - بعد مبعثه عليه الصلاة والسلام - كما هو الحال فى جاهلية القرن العشرين ، فى أجزاء من الأرض ، وفى أشخاص من الناس (وهم الذين لا يؤمنون بالإسلام) ، كما أن الجاهلية المقيدة (أى التى لا تخرج من الملة) قد تقوم فى ديار المسلمين ، وفى كثير من المسلمين .

فإذا أدركنا ذلك ، فالجاهلية - بشقيها : المطلقة والمقيدة - ليست فترة تاريخية انتهت بغير رجعة ، إنما هى حالة توجد فى أى زمان أو مكان يرفض فيه الناس الإذعان لحكم الله ، أفرادا أو جماعات . . .

ومن ثم يكون الأدب الإسلامى هو الأدب الذى ينتجه المسلمون الملتزمون بما جاء من عند الله ، والأدب الجاهلى هو الأدب الذى لا يلتزم بما جاء من عند الله سواء كان صاحبه معاصرا أو غير معاصر ، مسلما أو غير مسلم . فأما المسلم فجاهليته مقيدة ، كما قال رسول الله - ﷺ - لواحد من أجلة الصحابة ، رضوان الله عليهم : «إنك امرؤ فيك جاهلية»[(٢)] . وأما غير المسلم فجاهليته مطلقة . .

وهنا لابد من بيان يحدد كلا النوعين . .

فأما الأدب الإسلامى ، أى الإنتاج الذى يصدر عن مسلم ملتزم بما جاء من عند الله ، فلابد - بداهة - أن يكون مستوفيا للشروط الفنية التى تجعله يدخل فى باب الأدب ، وإلا فإنه لا يكون أدبا ، ولو كان ملتزما التزاما كاملا بما جاء من عند الله . ويخرج بذلك من دائرة الأدب الحديث المباشر عن الإسلام - سواء كان وعظا أو

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) قيلت لأبى ذر - رضى الله عنه - حين قال لأحد المسلمين . يا ابن السوداء : فقال له رسول الله - ﷺ - : «عيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية!» . .

دراسة أو بيانا أو شرحا - لأنه لا تتوافر فيه الشروط الفنية، وإن كان ملتزما، وإن كان مفيدا، وإن كان ضروريا للدعوة . . فالحديث المباشر له مجال، والفن له مجال آخر . . ولا تعارض بين هذا وذاك، ولكنْ هناك اختلاف فى الأسلوب واختلاف فى طريقة الخطاب . .

وأما الأدب الجاهلى فهو الأدب الذى تتعارض مفاهيمه أو تصوراته أو خيالاته أو تعبيراته مع مقررات الدين ومفاهيمه، وإن احتوى على كل الشروط الفنية، ولو بلغ القمة فى جمال التعبير، أو براعة التصوير، أو عمق التفكير!

ولنضرب بعض الأمثلة التى توضح ما نقصد إليه . .

فبشار بن برد هو فى عداد المسلمين (بصرف النظر عما فى عقيدته من زيغ) ولكنه حين يقول:

لا ييئسنك من مخدرة ... قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة ... والصعب يسهل بعد ما جمحا

فهذا شعر جاهلى، لأنه يخالف أخلاقيات الإسلام وتصوراته ومفاهيمه، فضلا عما فيه من دعوة صريحة أو مضمرة إلى الفساد.

وكذلك كل خمرياته وتشبيباته وشطحاته . .

وحين يقول مهيار الديلمى:

لا تخالى نسبا يخفضنى ... أنا من يرضيك عند النسب

قومى استولوا على الدهر فتى ... ومشوا فوق رءوس الحقب

عمموا بالشمس هاماتهمو ... وبنوا أبياتهم فى الشهب

وأبى كسرى على إيوانه ... أين فى الناس أب مثل أبى؟!

فهذا شعر جاهلى لأنه فخر بالآباء والأجداد، مما نهى عنه رسول الله - ﷺ - وإن كان لا يخرج صاحبه من الإسلام.

وحين يقول الشاعر الجاهلى المعاصر إيليا أبو ماضى:

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت!

ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت!

وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أو أبيت!

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ لست أدرى!

فهذا شعر جاهلى لأنه ـ رغم جمال التعبير والأخيلة فيه ـ مصادم مصادمة صريحة للتصور الإسلامى فى القضايا التى يثيرها من أول القصيدة إلى آخرها . .

* * *

وقد يبدو للوهلة الأولى أن إسلامية الأدب ستضيق مجالاته إلى المدى الذى يوشك أن يحيله وعظا أو شبيها بالوعظ!

وهذا غير صحيح! وإن كانت قلة الإنتاج الذى قدمه الإسلاميون حتى الآن مستوفيا للشروط الفنية قد تشجع بروز هذا الوهم فى أذهان الكارهين أو المتربصين الذين يتمنون فى دخيلة أنفسهم ألا تنجح الدعوة الإسلامية فى أى مجال من المجالات التى ترتادها، سواء فى الأدب أو السياسة أو الاقتصاد . .

فأما قلة الإنتاج فهى أمر عارض فى طريقه إلى الزوال، وإن كان ينبغى أن نقرر أن النماذج الجيدة التى خرجت حتى الآن كافية لإثبات الظاهرة التى نحن بصددها، وشاهدة لها بالأصالة، وبما يتوقع لها من ازدهار فى المستقبل.

وأما دعوى التضييق ففيها حق وباطل . .

فلا شك أن الالتزام بمفاهيم الإسلام وتصوراته وأخلاقياته سيمنع كثيرا مما يشيع فى الأدب اليوم من الفحش والتبذل والإلحاد والتهجم على المولى سبحانه وأنبيائه ورسله وكتبه وتعاليمه للبشرية . .

وسيرى الهابطون والهابطات أن هذا سيحرمهم من «متع» كثيرة يحصلون عليها من الفن الهابط الذى ينتجونه أو «يستمتعون» بقراءته أو سماعه أو مشاهدته . . فأى متعة تلك؟

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [سورة محمد : ١٢] .

إنه متاع نعم ، ولكنه متاع البهيمة لا متاع الإنسان ، فضلا عن العواقب الأليمة فى دار القرار . وللنفوس المترفعة عن الدنس متاع من نوع آخر . . أعلى وأشف .

وإن الميادين التى يمكن أن يرتادها الأديب المسلم الملتزم لهى عديدة عديدة ، بمقدار ما فى حياة الإنسان من المجالات !

ليس هناك مجال واحد هو فى حد ذاته ممنوع على الأديب المسلم . . إنما هى الطريقة التى يتناول بها ما يتناوله من الموضوعات . .

أرأيت إلى قصة يوسف وامرأة العزيز فى كتاب الله؟ عم تتحدث؟ أليست تتحدث عن هبوط امرأة تراود فتاها عن نفسه ، وتدعوه دعوة جاهرة إلى ارتكاب الفاحشة معها؟

فكيف تناولها القرآن؟ !

هل تناولها لتلذيذ القارئ أو السامع بلحظة الهبوط كما تفعل «الفنون» الهابطة التى تملأ الساحة اليوم على اتساع الأرض؟

وما اللقطة الأخيرة فيها ، التى تترك الأثر الباقى فى النفس؟ أهى لحظة الهبوط أم لحظة الارتفاع والعودة إلى المستوى النظيف الشفيف اللائق بالإنسان؟

وهل ينقص القصة شىء من «الواقعية»؟ أم إنها ذات واقعية حية ترسم الملامح الداخلية بدقة دون أن تقع فى الإسفاف؟

وهل ينقصها الإمتاع الفنى ، وهى تعرض المشاهد حية شاخصة يتملاها الخيال ويمتلئ بها الوجدان؟

ذلك طريق الفن الإسلامى لمن أراد ! ![1]

* * *

---

(١) اقرأ إن شئت عن ذلك فى كتاب «منهج الفن الإسلامى» .

لن تضيّق إسلامية الأدب مجالات التعبير، وإنما سترفعها إلى المستوى اللائق بالإنسان.. الإنسان الذى أحل الله له الطيبات وحرم عليه الخبائث، ونصّبه فى الأرض ليقوم بعمارتها، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويؤمن بالله، ويجاهد لتكون كلمة الله هى العليا.. وفى كل ذلك مجالات للتعبير..

إن رسم صورة لعذابات البشرية - من خلال شخوص حية ومشاعر ووجدانات ومواقف شاخصة - لهو فن إسلامى رفيع، لمن يحسن أن يتناوله بالشروط الفنية المطلوبة.

وإن رسم صورة للصراع بين الحق والباطل - من خلال شخوص حية ومشاعر ووجدانات ومواقف شاخصة - لهو فن إسلامى رفيع، لمن يحسن أن يتناوله بالشروط الفنية المطلوبة[1].

وإن رسم صورة للعواطف البشرية النظيفة، ودفعها إلى البناء والخير والنماء - من خلال شخوص حية ومشاعر ووجدانات ومواقف شاخصة - لهو فن إسلامى رفيع، لمن يحسن أن يتناوله بالشروط الفنية المطلوبة.

وإن رسم صورة للهبوط الدنس الذى يملأ وجه الأرض اليوم نتيجة عبادة الشيطان والبعد عن طريق الله - من خلال شخوص حية ومشاعر ووجدانات ومواقف شاخصة، وعلى الطريقة القرآنية - لهو فن إسلامى رفيع، لمن يحسن أن يتناوله بالشروط الفنية المطلوبة..

وإن.. وإن.. وإن.. عشرات من الصور ومئات، كلها مجال للتعبير، حين ينفعل بها وجدان الأديب المسلم، فيخرجها فى صورة فنية، لا فى صورة وعظ، ولا فى صورة خطاب مباشر، إنما من خلال معاناة نفوس حية، تعيش فى الخيال كما يعيش الناس فى واقع الحياة..

* * *

وأخيرا سنجد نوعا من الأدب لا نستطيع أن نسميه أدبا إسلاميا لأن أصحابه

---

(١) من النماذج التى تستحق الدراسة مجموعة القصص التى تحمل عنوان «رحلة فى أحراش الليل» لحميدة قطب.

ليسوا مسلمين، ولكنه يلتقى مع الأدب الإسلامى فى بعض مفاهيمه، أو بعض تصوراته، أو بعض أخلاقياته، أو بعض توجهاته. فأين نضع مثل هذا الأدب فى التصنيف الذى اقترحناه؟

حين سمع الرسول - ﷺ - شعر أمية بن أبى الصلت قال: كاد قلبه يسلم.

نعم، كاد يسلم، ولكنه لم يسلم، وبقى فى جاهليته.

وقال عليه الصلاة والسلام: أصدق بيت قيل فى الجاهلية:

ألا كل شىء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

فأين نصنف مثل هذا الأدب وهو - فى آداب الجاهليين القدامى والمعاصرين[1] - ليس بالقليل؟

إذا اقتدينا برسول الله - ﷺ - فسنقول عنه: إنه أدب يلتقى فى بعض جوانبه بالأدب الإسلامى.. ونقف به هناك!

والدراسات المطلوبة فى هذا الباب هى دراسات تتوسع فى عرض نماذج الأدب الإسلامى - فى القديم والحديث - وتبين خصائصه، وتضع له من موازين النقد ما يزيده وضوحا، ويزيده تأصيلا، حتى تذهب عنه الغربة التى تلازمه اليوم، بسبب الغربة التى يعيشها الإسلام!

كما أن من مهامها بيان أن الأدب الإسلامى أدب عالمى على الرغم من تميزه بسمات معينة، شأنه شأن الإسلام ذاته، وشأن الدعوة الإسلامية، لأنه يتحدث عن «الإنسان» من حيث هو إنسان، ويتوجه بخطابه إلى الإنسان من حيث هو إنسان، لا من حيث هو من سكان هذا المكان أو ذاك المكان!

---

(١) راجع مفهوم الجاهلية الذى أشرنا إليه فيما سبق من هذا الفصل.

(٢)
طبيعة الالتزام فى الأدب الإسلامى

ما طبيعة الالتزام فى الأدب الإسلامى؟ هل هو التزام أخلاقى؟ أم عقدى، أم فكرى؟ أم كلها جميعا؟

مر بنا نظرة الغرب «الليبرالى» التى تقول إن الأديب حر تماما فيما يفعل، لا يتقيد بقيد على الإطلاق، على أساس أنه «خالق مبدع» لا يتقيد بما يتقيد به الآخرون، الذين ليسوا بخالقين، وليسوا بمبدعين!

والحق أن المجتمع الغربى كله قد صار إلى درجة من الانحلال لا يتقيد فيها بشىء، وليس الأديب وحده هو الذى تحلل من القيود. ولكن الحق كذلك أن الأدباء كانوا قد سبقوا إلى التمرد على القيود كلها، والمقدسات كلها، والثوابت كلها، حتى فى الوقت الذى كانت فيه الجماهير تتمسك بشىء من هذه وتلك، وكانت الجماهير - فى مبدإ أمرها - تقف ضد هؤلاء المتمردين الذين لا يبالون بقيد من القيود، بل يتعمدون التحطيم والتدمير، ويجعلون ذلك رسالة ينذرون أنفسهم لها، ولو غضبت منهم الجماهير..

ثم.. رويدا رويدا بدأت الجماهير تتبلد على تمرد المتمردين، فلا تقف منهم موقف المعارضة أو التنديد، ثم خطت بعد ذلك خطوة أخرى - منطقية مع الأحداث - فتمردت بدورها على الثوابت والمقدسات والقيود، وتسابقت فى التفلت والانحلال إلى الدرجة التى يعيشها الغرب فى وقته الراهن.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن كل الأدباء تملصوا من كل قيد، أو أن كل الجماهير قد فعلت ذلك. فهذا لم يحدث فى أى جاهلية من جاهليات التاريخ،

وكان يوجد دائمًا فى كل جاهلية أفراد يتمسكون بنظافة الأخلاق والترفع عن الدنايا ويتعلقون بالقيم الرفيعة. وقد قال الرسول - ﷺ - عن أهل الجاهلية العربية: «خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» فدل ذلك على وجود خيار فى الجاهلية وإن كان الفقه ينقصهم، كما قال عليه الصلاة والسلام إنه دعى إلى حلف فى الجاهلية فى بيت ابن جدعان لو دعى إليه فى الإسلام لأجاب، وهو حلف الفضول..

وفى الغرب مازال من الأدباء من يؤمن بالقيم، وينافح عنها، ويكتب ما يكتب من أجل الدفاع عن القيم التى يؤمن بها، وأدبهم هو من ذلك النوع الذى قلنا إنه يلتقى مع الأدب الإسلامى فى بعض جوانبه، ولكنهم - بالنسبة للتيار العام السائد هناك - يعتبرون قلة، وقلة - فى وضعها الحالى - لا تستطيع أن تحول التيار..

والقول نفسه يصدق على الجماهير، فليس كلها فاسدا فاسقا منحلا، وفى أشد البلاد انحلالا مازالت هناك أسر محافظة لا تمارس ما يمارسه المجموع من انحرافات، ولكنها - بالنسبة للتيار العام - قلة لا تستطيع أن تحول التيار..

* * *

المبدأ الذى نريد مناقشته هو: حق الأديب فى تجاوز الحدود والقيود بدعوى أنه مبدع وخالق! هل هو فعلا حق؟! وهل يستند إلى شىء من الحق؟!

فى المجتمع الغربى «الليبرالى» فشت النزعة الفردية، الداعية إلى حرية الفرد، ردَّ فعل لاستبداد النظم التى كانت تسحق الفرد وتحرمه من الحقوق، سواء الحقوق السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية، لصالح الطبقة المستبدة ذات السلطان، التى تجمع رجال الدين والملوك والأباطرة وأمراء الاقطاع، الذين كانوا يستمتعون بجميع المزايا، بينما الشعب المحروم من كل الحقوق والضمانات هو الذى تقع عليه كل التكاليف.

وفى الثورة الفرنسية انفجر المرجل المكظوم، وطالبت الطبقة المحرومة بالحرية، وبالحقوق السياسية والاجتماعية التى كانت محرومة منها.

ولكن يلفت النظر بلا شك دخول اليهود فى الثورة لحسابهم الخاص؛ وإن كانت

الجماهير الثائرة قد حصلت على بعض المزايا التى كانت تتطلع إليها فإن المكسب الأكبر كان لليهود، الذين شاركوا فى الثورة بمحافلهم الماسونية التى كانوا قد نشروها فى أنحاء فرنسا، وبخطبائهم الذين ألهبوا حماسة الجماهير.

ويلفت نظرنا بصفة خاصة بعض شعارات الثورة، فشعار الحرية والإخاء والمساواة كما لا يخفى هو شعار الماسونية، وقد كان من انتصاراتها الواضحة أن جعلت شعارها الخاص هو الشعار الرسمى للثورة، كأنهم يقولون هذه ثورتنا، ونحن أصحابها، ونوجهها حيث نشاء(١)!

ولكن الشعار الأكثر دلالة هو هذا الشعار: Laissez Faire: دعونا نفعل (ما نشاء) Laissez Passer: دعونا نمر (من حيث نشاء).

فمن المقصود بهذا الشعار؟ من الذى يطالَب له بأن يفعل ما يشاء، ويمر من حيث يشاء؟!

إن الحرية المطلوبة هى - ابتداء - حرية الرأسمالى (اليهودى) فى أن يفعل ما يشاء بأمواله لكى يحقق منها الربح الحرام، وأن يمر من حيث يشاء بلا حواجز لتحقيق ما يريد.

وهى ثانيا حرية الفرد العادى فى الانحلال الخلقى والإلحاد!!

وبطبيعة الحال لم يقل اليهود - وهم يرفعون هذا الشعار فوق رءوس الثائرين ويضعونه على ألسنتهم ليهتفوا به - إن هدفهم منه هو هذا الهدف الشرير، وإلا فما كانت الجماهير ستستجيب! ولكن الواقع الذى تم بعد اندلاع الثورة، وتفشِّى روحها فى بقية القارة الأوربية، هو الذى بين الهدف الحقيقى من رفع ذلك الشعار، وإطلاقه على ألسنة الجماهير!

كان اليهود - الذين احتضنوا الثورة الصناعية منذ مولدها وأداروها بالربا - يريدون

---

(١) يقول اليهود بالفعل فى كتاباتهم إنهم هم الذين صنعوا الثورة الفرنسية! وكونهم شاركوا فى إشعالها بجمعياتهم الماسونية فهذه حقيقة تاريخية معروفة. أما الشحنة المتفجرة التى صنعت الثورة فهى الحقد المكظوم الذى تجمع من أثر الظلم الواقع على الجماهير من طغيان الكنيسة ورجال الدين من ناحية، وطغيان الملوك والأباطرة ورجال الإقطاع من جهة أخرى، والذى كان قد تجاوز حد الاحتمال.

إزالة كل الحواجز التى تعرقل مشروعهم الربوى الجبار، الذى استطاعوا به تجميع الذهب فى أيديهم أولا، ثم استخدامه بعد ذلك فى السيطرة الاقتصادية والسياسية التى يمارسونها اليوم على نطاق واسع.

وكانوا يريدون كذلك نشر الفساد الخلقى والانحلال الدينى ـ ليسهل عليهم تحقيق الهدف التلمودى، وهو استحمار الأمميين وتسخيرهم لمصالحهم[1]!

ومن ثم كان شعار Laissez Passer, Laissez Faire ـ سواء بمعناه الظاهرى الذى التقطته الجماهير الثائرة دون أن تدرك أبعاده الحقيقية، أو بمعناه الباطنى الذى أراده اليهود ـ ذا فائدة عظمى بالنسبة للمخطط الأكبر الشرير!

* * *

كان معنى الشعار بالنسبة لمن سموا أنفسهم «المفكرين الأحرار Free Thinkers» هو العمل على تحطيم السلطان القاهر الذى يمنعهم من التعبير عن خلجات نفوسهم، سواء كان هو سلطان الدين متمثلا فى الكنيسة ورجالها، أو سلطان الملوك وأمراء الإقطاع، أى السلطان السياسى والاجتماعى. ومن ثم كانت حرية الكلمة هدفا مقدسا يسعى إليه هؤلاء، ويتحملون فى سبيله ما يتحملون من الأذى والاضطهاد.

وحين ينظر الإنسان إلى مقدار الظلم الذى كان واقعا على الناس فى أوربا فى قرونها الوسطى المظلمة، يجد أن الثورة كانت هى الحل الوحيد لإزالة ذلك الظلم وتحرير الناس من طاغوته..

ولكن حين ينظر الإنسان من جهة أخرى إلى مدى التدمير الذى أحدثته الثورة، يجد أنها قد تجاوزت حدودها، ولم تكتف بتدمير الفاسد من الأوضاع، بل تعدته إلى تدمير الأسس كلها التى تقوم عليها الحياة، ولا تقوم بدونها حياة، وهى الدين والأخلاق، والتقاليد المستمدة من الدين..

* * *

---

(١) يقول التلمود: الأمميون (أى كل الأمم من غير اليهود) هم الحمير الذين خلقهم الله ليركبهم شعب الله المختار!

فى عملية الصراع ضد الظلم حمل المفكرون لواء المعركة، وجندوا أنفسهم للرسالة التى تبنوها، وطالبوا بحقهم فى أن يفعلوا ما يشاءون (Laissez Faire) وأن ينطلقوا حيث يشاءون (Laissez Passer) دون نظر إلى الأعراف القائمة أو مراعاة لأية قداسة قائمة . .

وحين تكون الأعراف فاسدة بالفعل، والقداسات مزيفة وظالمة، فمن حق المصلحين - بل من واجبهم - أن يهاجموا الفساد ويعملوا على إزالته غير عابئين باعتراض المعترضين أو احتجاج المحتجين . .

ولكن حين يتجاوزون ذلك إلى تدمير الأسس الضرورية للحياة، فمن يعطيهم هذا الحق؟!

أما هم فقد أعطوا لأنفسهم الحق، وأحاطوا أنفسهم بهالة من القداسة الزائفة، تصد عنهم سهام المعترضين الذين يرون أنهم تجاوزوا الحدود.

وأما الأدباء بالذات فقد أضافوا إلى أنفسهم قداسة زائفة أخرى، على اعتبار أنهم مبدعون، وأنهم خالقون، فيجب أن توفر لهم حقوق وضمانات فوق ما يتوفر لبقية الخلق . . ولو عاثوا فسادا فى الأرض!!

* * *

ما موقف الأديب المسلم من هذه القضية؟

موقفه نابع من إسلامه!

إنه مسلم أولا، ثم هو أديب بعد ذلك . .

فماذا يقتضيه إسلامه؟

يقتضيه أن يكون عمله كله لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وإذا كانت حياته كلها لله، فبعضها - وهو نشاطه الأدبى - داخل بالضرورة فى هذا العموم.

فكيف تكون حياته كلها لله؟ هل يستطيع أن يسبح الليل والنهار كما تفعل الملائكة: ﴿ يُسبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٠]؟

كلا! ما يستطيعون، ولا كلفهم الله ذلك وقد علم أنهم لا يطيقونه. إنما يكلف الله كل مخلوق ما يدخل فى طوقه: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ [سورة الطلاق: ٧]، ويعلّم البشر حين يدعونه ـ سبحانه ـ أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٦].

فكيف تكون حياة الإنسان المسلم لله؟

تكون بطريقين: التوجه بالعمل لله، والالتزام فى العمل بما جاء من عند الله.

وعندئذ تكون حياته كلها عبادة، وتكون كلها لله، سواء كانت إشراقة روح، أو خاطرة فكر، أو نشاط جسد؛ والصلاة التى فرضها الله على المسلم تجسد هذا المعنى تجسيداً رائعـا، فالجانب الجسدى فيها هو القيام والقعود، والركوع والسجود، والجانب العقلى هو التدبر فى الآيات المقروءة، والجانب الروحى هو الخشوع والإخبات.. وهكذا يكون الإنسان كله حاضرا فى الصلاة، ويكون كل نشاطه لله..

والإنتاج الأدبى عبادة من نوع آخر! يشترك فيها العقل بالتفكر والتدبر، والجسد بالنطق أو الكتابة، والروح بالتوجه بالعمل إلى الله..

هل ثم مجال فى هذا الأدب للفحش والإسفاف والجنوح والإلحاد والفساد والإفساد؟!

كلا بالطبع!

ولكن فلنتظر إلى الأمر من جانب آخر.. هل يمكن للإنسان ـ مهما سمت روحه، وشف وجدانه ـ أن يصبح كالملائكة الأطهار، لا يعصى ربه قط، ولا يخطئ قط، ولا يحيدعن الصراط قط؟!

كلا! وكل بنى آدم خطاء!

ويعلم الله ذلك من خلقه: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [سورة النساء: ٢٨]، ولا

يقهرهم على ما ليس فى طبائعهم، إنما يسعهم برحمته، حين يعودون إليه فيستغفرون، ولا يصرون:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤].

نعم.. ولكن ما نصيب الإنتاج الأدبى من هذه القضية؟

هل ينتج الأديب المسلم ما يعصى به الله سبحانه وتعالى، ثم ينشره على الناس، ثم يقول: يارب اغفر لى؟!

إن القول كالفعل، يمكن أن يقع فيه من الإنسان المسلم الخطأ والخطيئة.. ولكن النشر على الناس له حكم آخر! إن النشر معناه الإصرار.. وإلا فلماذا ينشر الإنسان إنتاجه؟!

والإصرار لا يغفره الله.. فقد اشترط سبحانه فى وعده بالمغفرة ألا يصر صاحب الخطيئة على ما أخطأ به: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾!

وتلك هى حدود الالتزام فى الأدب الإسلامى: ألا ينشر ما يعصى به الله، أو يخالف به عن منهج الله، أو يدعو فيه إلى شىء مما يكرهه الله.. وكل شىء بعد ذلك مجال واسع للإبداع الفنى، يستطيع الأديب المسلم أن يبدع فيه بقدر ما وهبه الله من قدرة على التعبير..

(٣)

الوظيفة التربوية للفن الإسلامى

هل يمكن أن يوجد فن حقيقى ليس له تأثير فى النفوس؟!

قد يقال إن الفنان حين يعبر عن تجربته الشعورية فى أى صورة من صور التعبير لا يكون قصده التأثير فى الآخرين، وإنما يكون قصده التعبير فحسب. ذلك أن التجربة الشعورية - أيًّا كانت أو فرحًا أو غضبًا أو تطلعًا أو سياحة تأملية فى الكون والحياة - هى شحنة حية ذات ثقل معين، وذات ضغط كالبخار الحبيس يبحث عن مخرج، ولا يرتاح صاحب التجربة حتى ينفس عن تلك الطاقة الحبيسة فى صورة من صور التعبير التى يجدها أقرب إلى نفسه، وأكثر استجابة لطبيعة تكوينه واتجاه موهبته.

ولكن إذا سلمنا جدلا بأن الفنان فى لحظة التعبير يكون فى خلوة كاملة مع تجربته، لا يستشعر وجود أحد حوله، ولا يطوف بباله إلا نفسه والتجربة التى هو منفعل بها، فإن نشر التجربة فى أية صورة من صور النشر لا يمكن أن ينطبق عليه ما ينطبق على عملية التعبير. فهو حين ينشر تجربته على الآخرين يريد على أقل تقدير أن يشرك الآخرين معه فى تجربته، وأن يرصد الأثر الذى تتركه فى نفوسهم الصورة التعبيرية التى أخرج التجربة من خلالها.

فالتأثير هنا لا يمكن أن يكون غير مقصود!

ولا نستطيع فى الحقيقة أن نحصر التأثير المقصود فى مجرد إحداث تلك المشاركة الوجدانية بين الفنان وجمهوره. فالفنان فى الغالب يرغب فى شىء أكبر من ذلك. يرغب فى أن ينفعل جمهوره بالموضوع الذى يعرضه له، ويقف منه مثل موقفه، وينحاز إلى صفه! أى أنه بوعى منه أو برغبة مستسرة فى نفسه، يريد «توجيه» ذلك

الجمهور وجهة معينة : سياسية كانت أو اجتماعية أو فكرية أو شعورية أو جمالية . . إلخ . . إلخ .

وهنا يلتقى التأثير الفنى والتوجيه التربوى، فينفذان إلى النفس من منفذ واحد، أو من منفذين متجاورين! إن الفن الصادق لابد أن يؤدى وظيفة تربوية، وعى الفنان ذلك وقصده، أم كان ذلك متضمنا فى عمله بغير وعى منه. وسواء كان التوجيه التربوى المتضمن ساميا مرتفعا أم هابطا متنكسا فهو فى الحالين موجود، ولا يمكن فصله عن العمل الفنى مادام صاحبه لا يحتفظ به لخاصة نفسه، وإنما يسعى لنشره على الناس. والذين يقولون «الفن للفن» أى لمجرد الاستمتاع، فإنما هى صيحة جاهلية عبثية غير ذات معنى، تصدر عن قوم ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وفرغوا من الأهداف الجادة إلى العبث واللهو والضياع .

إنما يمتاز الفن الإسلامى عن غيره بأن الوظيفة التربوية فيه موجهة إلى القيم الفاضلة والتصورات الصحيحة، لا إلى قيم هابطة ولا تصورات منحرفة. وهنا يتخيل كثير من الناس بغير مبرر ظاهر أن الفن الإسلامى لابد إذًا أن يتحول إلى مجموعة من المواعظ والتوجيهات الأخلاقية والدينية. وهو وهم ـ كما قلنا ـ لا مبرر له .

إن الفن الجاهلى يقوم بوظيفته التربوية المنكوسة ـ وهى الدعوة إلى التصورات الفاسدة، والاعتقادات الفاسدة، والأخلاق الفاسدة ـ بغير وعظ مباشر ولا دعوة صريحة إلى تلك التصورات والاعتقادات والأخلاقيات ـ فيما عدا الفن الشيوعى الذى سنعود إلى الكلام عنه ـ وإنما يتم ذلك من خلال مواقف إنسانية معينة، وانفعالات نفسية معينة، وتجارب شعورية معينة، يعيشها صاحبها أو ينفعل خياله بها، فيخرجها فى صورة فنية، ويعطى «العدوى» المطلوبة عن طريق التأثير الخفى الذى يحدث عند القارئ أو المشاهد حين يرى التجربة معروضة فى صورة فنية مؤثرة. وكلما بعدت الصورة الفنية عن التوجيه المباشر، واختفى شخص الفنان عن أعين القارئ أو المشاهد، وبرزت بدلا منه الملامح النفسية والشعورية والعقلية لإنسان حى متحرك، كان التأثير أعمق والتأثر أشد .

والأمر كذلك مع الفن الإسلامى مع اختلاف الأهداف التربوية فيه. إنه يدعو إلى التصور الصحيح عن الكون والحياة والإنسان، ويدعو إلى الصورة السوية

«للإنسان» فى فكره ومشاعره وسلوكه وعلاقاته السياسية والاجتماعية، المادية والمعنوية، ويدعو إلى تجنب الهبوط عن الصورة السوية والانحراف عن التصور الصحيح . . ولكن دون لجوء إلى الوعظ والتوجيه المباشر. فللوعظ مكانه الذى يؤدى مهمته فيه، والتوجيه المباشر له مجاله الذى يجب أن يشغله، والفن لون آخر من ألوان التعبير والتأثير، ينفذ إلى النفس من نافذة الوجدان والمشاعر أكثر مما ينفذ إليها من نافذة الفكر المجرد، ويؤدى أثره المطلوب بحركة خفية فى النفس، تتم عن طريق المقارنة غير الواعية بين القارئ أو المشاهد وبين الإنسان الحى المتحرك الذى يرسم الفنان صورته من خلال «المواقف» الشعورية المختلفة، و«التصرفات» التى يلجأ إليها فى مواجهة الظروف المتباينة.

وهنا تأتى الإشارة إلى الفن الشيوعى الذى لا نريد للفن الإسلامى أن يكون مثله! إنه خطبة وعظية أو توجيه مباشر إلى التصور الماركسى - أى التفسير المادى للتاريخ والصراع الطبقى - ودعوة جهرية إلى اعتناق الفكر الشيوعى لتغيير الواقع وإقامة الصورة البديلة للمجتمع، يمكن أن يجدها الإنسان بعباراتها ومفاهيمها فى أى نشرة دعائية تدعو إلى الشيوعية! وما هكذا يكون الفن.

إن الفنانين الروس الكبار الذين تحدثوا عن الظلم الاجتماعى قبل الثورة الشيوعية - تولستوى وديستويفسكى وتشيكوف وغيرهم - كانوا فنانين حقا، وكانوا كبارا، لأنهم وصفوا المعاناة البشرية التى كان يعيشها مجتمعهم فى صورة حية مؤثرة من خلال «مواقف» و«مشاعر» و«شخصيات» حية، لا من خلال أفكار ومقررات وقواعد وخطب دعائية. . أما فنانو المرحلة الشيوعية فغالبيتهم لم يكونوا فنانين، إنما كانوا دعاة. . يدعون إلى الشيوعية دعوة جهرية مباشرة لا علاقة لها بالفن الصحيح. ولا نريد للأدب الإسلامى أن يقع فى ذات المزلق فيتحول إلى خطب وعظية تدعو إلى مكارم الأخلاق. .

وقد يكون مما يؤسف له أن قسطا غير ضئيل من التوجه الإسلامى فى عالم الأدب، شعره ونثره وروايته ومسرحيته، قد أخذ هذا اللون الوعظى، واتخذ طريق التوجيه المباشر. ولكنى أظن أن هذه الفترة - إن كان لها ما يبررها فى مبدإ الطريق - قد آذنت بالانقضاء، وأننا على أبواب إنتاج فنى حقيقى، يحمل المعانى المطلوبة فى صورة تعبيرية فنية - لا وعظية ولا مباشرة - تحدث التأثير المطلوب من خلال المشاعر

والمواقف والشخوص الحية، لا من خلال الأفكار والمقررات والقواعد الذهنية التجريدية، التى مكانها الأبحاث العلمية لا الإنتاج الفنى.

* * *

ما الوظيفة التربوية للفن الإسلامى؟

إذا قلنا إن الإسلام كانت وظيفته إزالة الجاهلية، من التصورات والعقائد والمشاعر والأفكار والسلوك، وإنشاء البديل الإسلامى منها جميعا، فنستطيع أن نقول الشىء ذاته عن وظيفة الفن الإسلامى، فالفن لون من النشاط الإنسانى، ونشاط المسلم كله محكوم بذات المنهج، مجند لذات الغاية، تحقيقا لقوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [الانعام: ١٦٢، ١٦٣].

وتلك هى العبادة بمعناها الواسع الشامل التى قال الله عنها:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فما الموقف «الجاهلى» الذى تعرضه الفنون الجاهلية فى تلك القضايا كلها؟ وكيف يكون البديل الإسلامى الذى يسعى الفنان المسلم إلى إنشائه وترسيخه؟

حين تعرض الفنونُ الجاهلية «الإنسانَ» مرة على أنه إله متجبر، لا يُسأل عما يفعل، كل أعماله مبررة بمجرد صدورها عنه، فكل موقف من مواقفه صحيح، وكل تصرف من تصرفاته جائز، مادامت قد صدرت عنه..

وتعرضه مرة على أنه حيوان - داروينى - متطور، لا يُسأل عما يفعل، لأنه ليس له «معيار إنسانى» يرجع إليه ليقيس إليه أعماله، ولا توصف أعماله بأنها خير أو شر، مباحة أو غير مباحة، رفيعة أو هابطة... لأن الحيوان - متطورا كان أم غير متطور - ليس له معيار إلا ما يصدر عنه بالفعل..

وتعرضه مرة على أنه كَمٌّ سالب، لا يُسأل عما يفعل، لأنه لا إرادة له فى تصرفات نفسه، لأنها محكومة بقوة قاهرة من الخارج، وحتميات مادية وتاريخية لا قبل له بها، ولا سلطان له عليها..

«للإنسان» فى فكره ومشاعره وسلوكه وعلاقاته السياسية والاجتماعية، المادية والمعنوية، ويدعو إلى تجنب الهبوط عن الصورة السوية والانحراف عن التصور الصحيح . . ولكن دون لجوء إلى الوعظ والتوجيه المباشر . فللوعظ مكانه الذى يؤدى مهمته فيه، والتوجيه المباشر له مجاله الذى يجب أن يشغله، والفن لون آخر من ألوان التعبير والتأثير، ينفذ إلى النفس من نافذة الوجدان والمشاعر أكثر مما ينفذ إليها من نافذة الفكر المجرد، ويؤدى أثره المطلوب بحركة خفية فى النفس، تتم عن طريق المقارنة غير الواعية بين القارئ أو المشاهد وبين الإنسان الحى المتحرك الذى يرسم الفنان صورته من خلال «المواقف» الشعورية المختلفة، و«التصرفات» التى يلجأ إليها فى مواجهة الظروف المتباينة.

وهنا تأتى الإشارة إلى الفن الشيوعى الذى لا نريد للفن الإسلامى أن يكون مثله! إنه خطبة وعظية أو توجيه مباشر إلى التصور الماركسى - أى التفسير المادى للتاريخ والصراع الطبقى - ودعوة جهرية إلى اعتناق الفكر الشيوعى لتغيير الواقع وإقامة الصورة البديلة للمجتمع، يمكن أن يجدها الإنسان بعباراتها ومفاهيمها فى أى نشرة دعائية تدعو إلى الشيوعية! وما هكذا يكون الفن.

إن الفنانين الروس الكبار الذين تحدثوا عن الظلم الاجتماعى قبل الثورة الشيوعية - تولستوى وديستويفسكى وتشيكوف وغيرهم - كانوا فنانين حقا، وكانوا كبارا، لأنهم وصفوا المعاناة البشرية التى كان يعيشها مجتمعهم فى صورة حية مؤثرة من خلال «مواقف» و«مشاعر» و«شخصيات» حية، لا من خلال أفكار ومقررات وقواعد وخطب دعائية . . أما فنانو المرحلة الشيوعية فغالبيتهم لم يكونوا فنانين، إنما كانوا دعاة . . يدعون إلى الشيوعية دعوة جهرية مباشرة لا علاقة لها بالفن الصحيح . ولا نريد للأدب الإسلامى أن يقع فى ذات المزلق فيتحول إلى خطب وعظية تدعو إلى مكارم الأخلاق . .

وقد يكون مما يؤسف له أن قسطا غير ضئيل من التوجه الإسلامى فى عالم الأدب، شعره ونثره وروايته ومسرحيته، قد أخذ هذا اللون الوعظى، واتخذ طريق التوجيه المباشر . ولكنى أظن أن هذه الفترة - إن كان لها ما يبررها فى مبدإ الطريق - قد آذنت بالانقضاء، وأننا على أبواب إنتاج فنى حقيقى، يحمل المعانى المطلوبة فى صورة تعبيرية فنية - لا وعظية ولا مباشرة - تحدث التأثير المطلوب من خلال المشاعر

حين تعرض الفنونُ الجاهلية الإنسانَ على نحو من هذه الأنحاء - وكثيرا ما تفعل - فهو عرض منحرف لا يقره التصور الإسلامى، لأنه يخالف الواقع الذى يعيشه الإنسان فى وضعه السوى. فلا هو فى حقيقته إله، ولا هو حيوان، ولا هو كَمٌّ سالب. إنما هو «إنسان»! إنسان خلقه الله فى صورة متفردة ميّزه فيها عن الحيوان، ومنحه قدرا من الإيجابية يختار به منهج حياته، وجعله مسئولا عن ذلك الاختيار، محاسبا عليه فى الدنيا والآخرة.

ووظيفة الفن الإسلامى إذن أن يعرض ذلك التصور الصحيح للإنسان، من خلال المواقف والمشاعر والتصرفات والشخوص الحية المتحركة.

وليس المطلوب من الفن الإسلامى أن يرسم مثاليات غير قابلة للوجود فى عالم الواقع، مهما يكن الجمال الذاتى لهذه المثاليات.. فإن شعور القارئ أو المشاهد بأن ما يقرؤه أو ما يشاهده لا يمكن أن يوجد فى عالم الواقع، يبطل مفعوله! والإنسان فى واقعه المعاش لا يرتفع دائمًا فى كل تصرفاته إلى درجة المثال. بل النقص والخطأ والنسيان من طبيعة الإنسان: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [سورة طه: ١١٥].

ولكن الفن الإسلامى فى هذا المجال يجب أن يبرأ من انحرافين يقع فيهما الفن الجاهلى.

الانحراف الأول أن يرسم لحظات الهبوط والنقص والعجز منفصلة عن المعيار الذى يجب أن تقاس إليه لكى تبدو فى ظله لحظات هبوط ونقص وعجز، كان الواجب أن يتحاشاها الإنسان ويجاهدها لكى لا يقع فيها، ولا تبدو مبررة ولا مستساغة لأن تبريرها وإساغتها يرجع بنا إلى الإنسان المتأله الذى لا يُسأل عما يفعل، أو إلى الإنسان الحيوان!

والانحراف الثانى أن يرسم لحظات الهبوط والنقص والعجز على أنها هى الواقع الدائم الطبيعى بالنسبة للإنسان بحجة الواقعية. أو أسوأ من ذلك أن يرسمها على أنها لحظات «بطولة» تتجه إليها الأنظار بالإكبار والإعجاب! لأن رسمها بهذه الصورة أو تلك يسقط المعيار الخلقى الذى لا ينفصل ألبتة عن أعمال الإنسان، ويسقط بالتالى «إنسانية» الإنسان!

إن الإنسان يخطىء ويهبط ويعجز كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ولقد عهدنا إلىٰ آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ ولكن الإنسان السوى ـ وهو حقيقة واقعة وليس مثالا متخيلا ـ يقوم من كبوته، فينفض ثيابه، ويعود إلى مجاهدة نفسه ليستقيم على الطريق : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون﴾ [آل عمران : ١٣٥].

فإن لم يفعل ذلك فهو ليس حالة سوية، إنما هو إنسان منحرف يرسمه الفن الإسلامى ـ بواقعية ـ ولكن على أنه إنسان منحرف، لا على أن من حقه أن يفعل ما يشاء بغير حساب!

كذلك فإن الإنسان يخطئ ويهبط ويعجز، ولكن هذا ليس هو الواقع الدائم بالنسبة للإنسان السوى. فإن له إلى جانب لحظات ضعفه وعجزه وهبوطه لحظات قوة وارتفاع وإشراق. و«الواقعية» تقتضى إثبات هذا «الواقع الكبير» بالنسبة للإنسان، وعدم الاكتفاء بالواقع الأدنى الذى يمكن أن يهبط إليه فى لحظات ضعفه وعجزه. فإذا وجد إنسان لا يفيق من الهبوط، ولا يرتفع ولا يشرق، ولا يتطلع إلى الآفاق العليا ـ وهو موجود بكثرة فى واقع البشر ـ فإن الفن الإسلامى يسجل وجوده بواقعية كاملة، ولكن يعطى معه الإيحاء اللازم بأنه إنسان هابط متنكب للطريق، منتكس الفطرة، حائد عن الوضع السوى للإنسان. وبغير هذا الايحاء نكون قد أعطينا صورة الإنسان الحيوان، الذى تعنى بإبرازه كثير من الفنون الجاهلية المعاصرة!

وليس من الضرورى بطبيعة الحال ـ بل ليس من المستحسن ـ أن يجىء الإيحاء فى صورة جملة تقريرية أو عبارة وعظية أو خطبة حماسية، فلكل ذلك مجالات أخرى غير مجال الفن. إنما يجىء إيحاءً من بعيد، واستنباطا يستنبطه القارئ أو المشاهد من خلال قسمات النفوس وتصرفات الشخوص وتحركات الأحداث. .

* * *

وحين ترسم بعض الفنون الجاهلية عبثية الحياة، وحيرة الكائن البشرى وضياعه، كما تصورها هذه الأبيات لشاعر ـ جاهلى ـ معاصر (إيليا أبو ماضى):

جـــئت لا أعــلم من أيـــن ولكـــنى أتيت!

ولقد أبصـــرت قـــدّامى طريقا فمشيت!

وســـأمضى فى طريقى، شــئت هذا أم أبيت!

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟ .. لست أدرى!

فهذا موقف منحرف لا يقره التصور الإسلامى من وجوه عدة. فالإنسان السوى الفطرة، المتفتح البصيرة، المهتدى بهدى الإيمان، يعلم إجابات هذه الأسئلة وكثير غيرها مما يلح على الفطره ويتطلب الجواب:

من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ وكيف!

من أين جئت؟ وإلى أين أذهب بعد الموت؟ وما غاية الوجود البشرى؟ وما المنهج الصحيح للحياة؟

من أين؟ من عند الله. . بقدره وقدرته ومشيئته.

إلى أين؟ إلى الله. . إلى البعث والنشور، والحساب والجزاء.

ما غاية الوجود البشرى؟ عبادة الله بالمعنى الواسع الشامل:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦].

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [سورة الانعام: ١٦٢، ١٦٣].

ما المنهج الصحيح للحياة؟ هو المنهج الربانى المتمثل فى الوحى المنزل من عند الله: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

هذا من جهة. .

ومن جهة أخرى فإن الإنسان لا يجد أمامه طريقا واحدا فى حقيقة الأمر:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [سورة الشمس: ٧ـ ١٠].

إنما هما - دائمًا - طريقان - ألهم الإنسان القدرة على التمييز بينهما، وأوتى القدرة على اختيار أحدهما. وإنما السائمة وحدها هى التى ينطبق عليها ذلك الوصف الذى أضفاه الشاعر الجاهلى المعاصر على الإنسان! هى التى تجىء دون أن تعلم من أين، وتمضى فى الطريق الواحد الذى ترسمه لها الغريزة، وليس لها إرادة فى المسير فى ذلك الطريق، ولا تدرى كيف جاءت ولا كيف أبصرت طريقها!

فأى هوان للإنسان حين يرسمه الفن الجاهلى فى هذه الصورة؟

ونبادر فنقول إن الصورة صادقة أشد الصدق فى وصف الضياع والحيرة اللذين تقع فيهما الجاهلية المعاصرة - إن لم نقل كل جاهلية فى التاريخ - وصادقة أشد الصدق - مع جمال التصوير وبراعته - فى وصف كثير من البشر الضالين فى الأرض، الذين قال الله عنهم:

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

ولكن العيب الرئيسى للأبيات - من وجهة نظر الفن الإسلامى - أنها توحى بأن هذا هو «الإنسان»! هذا قدره، وهذا موقفه، وهذه أزمته، وهذه مأساة حياته.

والقضية فى «واقعها» أن هذه هى أزمة «الإنسان الجاهلى» ومأساة حياته، وليست أزمة الإنسان كله، ولا مأساة حياته. فالبشر الأسوياء لهم معاناة أخرى وأزمات من نوع آخر.. فهم - مع علمهم بإجابات تلك الأسئلة التى تحير الجاهلية وتوحى إليها بعبثية الحياة وعدم جدواها - ذوو اهتمامات أخرى، هى أزمتهم وهى معاناتهم، وهى جهاد الواقع الجاهلى المنحرف، ومحاولة إقامة الواقع السوى المهتدى بنور الله. وهم فى جهادهم هذا يبذلون الجهد ويشقون، ويتألمون، ويتعذبون، وقد يفقدون حياتهم، ولكنهم لا يشعرون بالضياع أبدا، ولا بعبثية الحياة أبدا، ويجدون ما يعوضهم عن جهدهم كله:

﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ ﴾ [سورة النساء: ١٠٤].

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء : ٧٤].

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١٢٠].

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة المؤمنون : ١١٥].

إنما تبدو الحياة عبثا وضياعا حين تقتطع الحياة الدنيا وحدها وتفصل عن الآخرة، فتتقطع الخيوط المترابطة، وتنفصل الأجزاء المتراكبة، فتصبح بلا معنى ولا غاية، لا لأنها كذلك فى الحقيقة. ولكن لأن البصائر قد عميت عن الرؤية والنفوس قد ضلت عن الطريق.

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الملك : ٢٢].

والفن الإسلامى - فى هذا المجال - لن يغفل الواقع البشرى الضال الذى يملأ الأرض، ولن يزور له صورة غير صورته الواقعية، ولكنه لن يقول إن هذا هو «الإنسان»، ولا إن هذا قدره وتلك مأساته. إنما يقول إن هذه هى مأساة الإنسان حين يضل.. حين يستحب الضلالة على الهدى فلا يرى أهداف الحياة واضحة، ولا يستشعر الطمأنينة، ولا يجد القرار. أما الإنسان السوى فهو الذى يقول الله عنه:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد : ٢٨].

ولا شك - عندى - أننا مع الفن الإسلامى سنفتقد «الحس المأساوى» الذى تصوره

المأساة الإغريقية، التى تصور قدر الله على أنه هو السبب فى مأساة الإنسان، لا على أساس أن الله قد قدر على الإنسان الكدح والمعاناة فى الحياة الدنيا: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [سورة البلد: ٤]، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [سورة الانشقاق: ٦]، وأن الله قد ادخر للإنسان جزاءه فى الجنة إن كان كدحه ومعاناته فى سبيل الله وإقامة الحق وجهاد الباطل، كما هى الأمور فى التصور الإسلامى، ولكن على أساس أن الإنسان فى صراع دائم مع الآلهة! هو يريد أن يرفع رأسه، ويثبت وجوده، والآلهة لا تريد له ذلك، وتعاقبه على محاولته تلك، وتسعى إلى تحطيمه. . فتقع المأساة (راجع على سبيل المثال أسطورة پروميثيوس سارق النار المقدسة).

ونحن نرى أن فقدان هذا الحس المأساوى الإغريقى هو فى جانب الربح لا فى جانب الخسارة! فعلى الرغم من كل العمق فى رسم القسمات الإنسانية فى الأدب الإغريقى من خلال المواقف والتصرفات والمشاعر، وفى الآداب التى تأثرت به ونسجت على منواله، فإن التوجيه السام الذى تشتمل عليه مفسد للفطرة ومضلل عن هدف الحياة الحقيقى وعن حقائق الوجود.

والفن الإسلامى مفروض فيه - حين يستوى ويبلغ أشده - أن يعطينا مذاقا مختلفا للقضية، ويوضح حقائق الوجود الكبرى ويعرض معاناة الإنسان المؤمن فى جو آخر غير الجو الإغريقى. . خذ على سبيل المثال مقتل عثمان رضى الله عنه ومقتل الإمام على كرم الله وجهه، ومقتل الحسين رضى الله عنه، ومقتل مئات من الدّعاة والمصلحين على أيدى الطغاة، وعذابات الألوف من البشر الذين عذبوا وهم يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . كل قصة منها «مأساة». وقد وقعت بقدر من الله. . ولكن شتان شتان، بين آلهة تعبث وتغار من الإنسان إذا اتجه إلى الرفعة فتحطمه، وبين الإله الرحيم الكريم الذى قدّر أن يتخذ من البشر «شهداء» ويمحص المؤمنين ويمحق الكافرين، ثم يدخل المؤمنين الجنة جزاء ما جاهدوا وصبروا فى سبيل الله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٠-١٤٢].

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

كذلك فإن «الصراع» هو موضوع من الموضوعات الكبرى التى يعرض لها الفن . . فكيف تعرضه الفنون الجاهلية؟

مرة تعرضه صراعا بين الإنسان «والآلهة»، كذلك الذى مر بنا خبره فى المأساة اليونانية، حيث يحاول الإنسان إثبات ذاته بالتمرد على الآلهة ومحاولة الفكاك من «القدر» المحيط به . .

ومرة تعرضه صراعا بين الإنسان و«الطبيعة»، وهى الإله البديل، الذى لجأت إليه أوربا حين كفرت بإله الكنسية وابتدعت بدلا منه إلها آخر لا كنيسة له ولا رجال دين! وليس له كذلك التزامات على عباده، فهو يتركهم يفعلون ما يحلو لهم ثم يقولون نحن نجارى الطبيعة!! ومع ذلك فإن أوربا الجاهلية نقلت الصراع الإغريقى القديم، الذى كان قائما بين الإنسان والآلهة، فجعلته صراعا بين الإنسان والطبيعة، وإن كانت فى هذه المرة قد جعلت الإنسان «يقهر الطبيعة» ويخضعها لمشيئته!!

ومرة ـ حين ألَّهت الإنسان ـ جعلته صراعا بين البشر بعضهم وبعض، أو بين الإنسان ونفسه! وهو فى جميع أوضاعه امتداد لذلك الصراع الكريه الذى أوجدته الأساطير الإغريقية بين الإنسان والآلهة.

فأما التصور الإسلامى فله موقف من كل هؤلاء.

فالصراع بين الإنسان وبين الله وقدره ومشيئته وأوامره ونواهيه موجود، ولكنه من نصيب الكفار: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾ [سورة غافر: ٥٦].

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [سورة إبرهيم: ٣٠].

﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ٢١] .

أما النفس المؤمنة فهى فى سلام مع قدر الله، ومع أوامره ونواهيه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٨] .

أما الصراع مع الطبيعة فلا مكان له، لا على أنها إله (نستغفر الله) ولا على أنها كائنات مخلوقة. فإن الله قد سخر الكون كله للإنسان ابتداء ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [سورة الجاثية: ١٣] .

فلا مجال إذًا للصراع بين الإنسان وبين ما سخره الله له من المخلوقات. إنما هو سعى دائب لتحقيق ذلك التسخير بالجهد المبذول والكدح المستمر، ذلك لأن الإنسان لا يسخر الكون على الطريقة الربانية يقول للشىء كن فيكون، وإنما بجهد يبذله بعقله وجسمه فيتحقق التسخير.

وأما الصراع بين البشر بعضهم وبعض، والصراع فى داخل النفس الإنسانية الواحدة، فأمر وارد، وموضوع من موضوعات الفن الإسلامى يخوضه كما تخوضه الفنون الأخرى على نطاق واسع . . ولكنْ ثمت فروق.

فالفنون غير الإسلامية تحصر الصراع بين البشر بعضهم وبعض فيما يسمى «صراع البقاء» أو «حب الغلبة»، يستوى فى ذلك صراع فرد وفرد، أو جماعة وجماعة، أو طبقة وطبقة، أو دولة ودولة . . ولا شك أن معظم الصراع الواقع فى الأرض خلال التاريخ كله هو من هذا النوع، ولكن هناك صراعا من لون آخر قلما تحتفل به الفنون غير الإسلامية، بينما هو مركز الاهتمام عند الفن الإسلامى، ذلك هو صراع الحق والباطل، الذى قال الله عنه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٥١] .

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج: ٤٠، ٤١] .

فهذا الصراع أبعد أثرا فى حياة البشر من كل صراع آخر مهما بدا هذا الأخير ضخما ومؤثرا، ولو شمل الأرض كلها كما شملتها الحربان الأخيرتان! انه فى النهاية صراع جاهلى! يستوى الغالب فيه والمغلوب! لا يغير شيئا جوهريا فى حياة البشر، إنما يستبدل ظلما بظلم، وطغيانا بطغيان. وليس كذلك صراع الحق والباطل، فإنه حين ينتصر الحق تتغير حياة الناس من أعماقها، كما وصف ربعى بن عامر رضى الله عنه الأمر لرستم قائد الفرس، حين سأله رستم: ما الذى جاء بكم إلى بلادنا؟! فقال رضى الله عنه: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.. وقد كان! وعرف الناس بالفعل ألوانا من العدل لم يكونوا يحلمون بها، وقيما لم يكونوا يتخيلون أنها تتحقق فى واقع الأرض. وخذ مثالا لذلك أن المسلمين فتحوا سمرقند وكانت خاضعة للفرس، وصالحهم سعيد بن عثمان، فنقضوا العهد وقتلوا حاكمهم الذى كان مواليا للمسلمين، فخرج إليهم قتيبة بن مسلم فحاربهم واقتحم عليهم المدينة فى زمن عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه. فشكوا إلى الخليفة رضى الله عنه أن قتيبة غدر بهم، ودخل المدينة بعسكره، مع أن العهد مع سعيد بن عثمان كان يقتضى أن يبقى العسكر خارج المدينة! فأمر عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه بتعيين قاض يقضى فى الشكوى! فأمر القاضى - بعد التحقيق - أن يعود الأمر إلى ما كان عليه، فيخرج المسلمون خارج أسوار المدينة، ثم ينبذوا إلى أهل سمرقند عهدهم على سواء، فإما اصطلحوا بعد ذلك صلحا جديدا وإما دارت الحرب!! فقال عقلاؤهم: لا بل نرضى بالأمر الواقع، وتنازلوا عن شكواهم!

أى عدل وأى آفاق؟!

هل سمع الناس فى التاريخ أن بلدا مفتوحة تشكو فاتحها إلى حاكم الدولة الفاتحة، فيأمر بتعيين قاض ينظر فى الأمر، فيقضى بإخراج العسكر الفاتحين من المدينة؟!

ولكنها ثمرة من ثمرات ذلك الصراع الفذ، حين ينتصر الحق على الباطل، وينتصر الإسلام على الجاهلية!

وحين يتناول الفن الإسلامى قضية الصراع بين البشر فلن يغفل ما يقع بين البشر بعضهم وبعض من صراعات جاهلية، همها متاع الأرض وحده، سواء وقع هذا الصراع من قوم جاهليين بعضهم مع بعض، أو من مسلمين وقعوا فى انحرافات جاهلية، وما أكثر ما يقع ذلك، ولكنه لن يقف عند تلك الصراعات كما تفعل الفنون الأخرى، بل سيكون تركيزه الأكبر على ذلك الصراع العظيم الذى يغير واقع البشر، ويرفعهم إلى المستوى اللائق بالإنسان.

أما الصراع النفسى فى داخل النفس المفردة فهو موضوع صالح للتناول فى الفن الإسلامى كما قلنا، ولكن لا فى الحدود الضيقة المظلمة التى رسمها فرويد فى «التحليل النفسى» حيث رد الصراعات كلها إلى العقد النفسية اللاشعورية، ثم رد هذه إلى مشاعر الجنس، وإلى الكبت الواقع عليها من الدين والأخلاق والمجتمع!

كلا! إنما يقع الصراع فى داخل النفس بين النفس اللوامة، والنفس الأمارة بالسوء، ويقع واعيا فى بؤرة الشعور، وتقرر نتيجته مصير الإنسان. فإن تغلبت النفس اللوامة فأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال فيهم ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [سورة فصلت: ٣٠].

وإن تغلبت النفس الأمارة بالسوء فهى الشقوة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

وهكذا يتناول الفن الإسلامى الصراع النفسى ليبرز القيم العليا لا ليغتالها فى الظلمات!

* * *

وحين ترسم الفنون الجاهلية الحياة البشرية كأن الإنسان هو مالك الملك ومدبر الأمر، هو الذى يتصرف وحده، وهو الذى يضع خطوط حياته وحده، وأن ما أصابه من خير أو شر فمن نفسه، وما أصابه من ظفر أو خيبة فمن نفسه، وأن محيط

التأثير والتأثر هو المحيط البشرى وحده، أى أن البشر هم الذين يؤثر بعضهم فى بعض، فينجح من ينجح ويخيب من يخيب من محصلة تفاعل البشر بعضهم مع بعض..

حين ترسم الفنون الجاهلية الأمر على هذه الصورة - وكثيرا ما تصنع - فهى تغفل أول ما تغفل حقيقة قدر الله، وفاعلية هذا القدر فى تشكيل الأحداث التى تجرى فى الكون كله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [سورة آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وتغفل فى الوقت ذاته أن قدر الله يجرى من خلال سنن معينة ومنضبطة لا تتحول ولا تتبدل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر: ٤٣].

وتغفل أخيرا تلك المعادلة الدقيقة التى غفل عنها الغرب فى جاهليته، ولم يفطن إليها إلا المسلمون فى إسلامهم: أنّ من قدر الله أن يكون للإنسان فاعلية! فلا تناقض بين فاعلية قدر الله وفاعلية الإنسان! وأن السنن الربانية هى التى تحكم تلك المعادلة الدقيقة. فقدر الله هو الذى يجرى فى الحياة البشرية، ولكنه يجرى من خلال أعمال الإنسان، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١].

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [سورة الروم: ٤١].

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٧].

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠].

لذلك فإن تصوير الحياة على أنها من وضع الإنسان وحده انحراف عن الحقيقة الواقعة، كما أن إغفال أعمال الإنسان وفاعليته فى أحداث الحياة خطأ يخالف الواقع، وإسقاط لمسئولية الإنسان عن أعماله.

والحق الذى يبرزه الفن الإسلامى هو الحق الذى تقرره العقيدة الإسلامية: أن قدر الله هو الذى يجرى فى الكون كله، وأن فاعلية الإنسان فى الكون هى من قدر الله!

* * *

وأخيرا فإن الفنان المسلم فنان ملتزم. ولكن ما أبعد الشقة بين الالتزام فى المفهوم الإسلامى والالتزام كما أفرزته الفنون الجاهلية التى التزمت بالتفسير المادى للتاريخ والصراع الطبقى، وحصرت العدل الاجتماعى فى العدل الاقتصادى وحده، ثم حصرت العدل الاقتصادى فى وجه واحد وصورة واحدة، هى إلغاء الملكية الفردية وإبادة الطبقات المستغلة من أجل تحرير الطبقة الكادحة..

إنه فن هزيل.. إن كان يصلح أن يكون فنًا على الإطلاق. فمن ناحية تحول الالتزام فى ذلك الفن إلى مذهبية صارخة، ومن ناحية أخرى تحول فنهم الملتزم إلى خطب مذهبية دعائية وعظية، وتقارير مذهبية جافة، وضُيِّقَ مجال الفن تضييقا بشعا حين «حُرِّمَ» تناول أى موضوع لا يتصل بالعدل الاجتماعى فى حدوده الضيقة المنصوص عليها فى المذهب، واعتبر ذلك عبثًا لا ينبغى للفنان الجاد صاحب الرسالة!

وفى الفن الإسلامي التزام، وفيه تحريم وإباحة سواء فى «الشكل» أو فى «المضمون» ولكن شتان شتان. كل مجالات الكون والحياة والإنسان مجالات صالحة للتناول الفنى فى التصور الإسلامى. فالطبيعة بكل كائناتها مجال للفن الإسلامى. وألوان الحياة المختلفة مجال للفن الإسلامى، والإنسان بجميع أحواله وجميع ألوان نشاطه مجال للفن الإسلامى.. ليس الموضوع فى ذاته هو الذى يحدد المنع والإباحة، إنما هى طريقة التناول، أو قل هو «المنهج» الذى تستخدمه طريقة التناول. لقد جاء فى القرآن حديث عن الكفر والإيمان. عن الأخلاق الفاضلة والأخلاق السيئة، عن الفطرة السوية والفطرة المنتكسة. عن السلوك المستقيم والسلوك المعوج. عن الذين مكّن الله لهم فى الأرض والذين دمّر عليهم.. وشمل الحديث كل حالات الإنسان فى إقباله وإدباره. فى عزيمته

وضعفه. فى رفعته وهبوطه. . ومن ثم فكل هذه الحالات موضوع صالح للتناول فى الفن الإسلامى، ولكن بشرط إعطاء «المعيار» وإعطاء «القيمة».

إن قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام مذكورة فى كتاب الله. ولكنها تذكر على أنها لحظة هبوط مسف. وتذكر لحظة الهبوط فى إشارات عابرة سريعة تصور المشهد تصويرا دقيقا حيا ولكنها لا تتلبث عند التفصيلات المثيرة، إذ ليس المقصود منها «الإثارة» كما تعمد الفنون الجاهلية. ثم إن النهاية التى تنتهى عندها القصة هى لحظة الإفاقة وطلب المغفرة وليس الإصرار على الهبوط والإغراق فيه. . وهذا هو «المنهج» الذى يحكم التناول.

وحين يصف الفن الإسلامى أحوال البشر المختلفة فسيعطينا صورة «واقعية» لا صورة مزورة، ولكنه سيشعرنا دائما بالحكم الأخلاقى على أعمال الإنسان- بغير وعظ ولا حديث مباشر- لأن القيمة الأخلاقية ملازمة لأعمال الإنسان لا تنفصل عنه فى أية لحظة، مذ كان الإنسان ذا طريقين اثنين، وذا قدرة على التمييز بين الطريقين، وذا قدرة على اختيار أحد الطريقين. . ومذ كان فى كل موقف يختار فى واقع الأمر بين الطريقين.

وبهذه المناسبة نقول إن حياة الإنسان فى الأرض لا تخلو قط من الضغوط، سواء الضغوط القاهرة من طبيعة تكوينه كحاجته إلى الطعام والشراب. . إلخ، أو الضغوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أو التيارات الفكرية والأنماط السلوكية السائدة فى البيئة.

ولكن موقف الإنسان من هذه الضغوط ليس صورة واحدة، ولا هى بالنسبة إليه أمر حتمى لا قبل له به. إنما يكون سلوك الإنسان- بصفة عامة- على ثلاثة أنماط: فصاحب العقيدة الحية الراسخة المتمكنة يقف مستعليا على الضغوط، لا بمعنى أنها لا تؤثر فيه، ولكن بمعنى أنه مستعد أن يبذل نفسه فداء لعقيدته. وتلك هى القمة العليا التى يصعد الإنسان إليها بتوفيق الله له (سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله).

وصاحب العقيدة «العادية» إن صح التعبير هو إنسان يقف بإزاء الضغوط،

يغالبها وتغالبه، فينتصر مرة وينهزم مرة، ولكنه لا يستخذى لها طالما العقيدة باقية فى قلبه.

وأما الإنسان بلا عقيدة، فهو غالبا ما يكون مستخذيا للضغوط فتتحكم فيه من داخل نفسه وخارجها، فيكون هو «أسفل سافلين» والضغوط فوقه متمكنة منه.

ومهمة الفن الإسلامى أن يعطينا هذه النماذج المختلفة من خلال شخوص حية متحركة ومن خلال المعيار الذى يقاس إليه السلوك.. وهذا هو «الالتزام» الذى يلتزم به الفنان المسلم.

أما الكون بجماله ودقته وروعته، فمجال واسع للفن الإسلامى، فى حدود ما أباح الله من وسائل التعبير.

فى كتاب الله جاء عن الأنعام: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [سورة النحل: ٦].

وعن الخيل والبغال والحمير ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [سورة النحل: ٨].

وعن الحدائق وما تحوى من جمال: ﴿ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ [سورة النمل: ٦٠].

وعن الزروع المختلفة الثمار: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ٩٩].

وكل هذه توجيهات إلى «الجمال» فى خلق الله، بصرف النظر عن «المنفعة» التى يأتى ذكرها فى آيات أخرى. فالله خلق الكون جميلا وخلق فى الإنسان حاسة تعجب بالجمال، وجعل ذلك آية من آياته.. فإذا تملى الإنسان الجمال، وعبر عنه فى تعبير جميل، فهو قائم بلون من «العبادة» التى وجهه إليها كتاب الله. والفنون الجاهلية كثيرا ما تتجه إلى جمال «الطبيعة» وروعة الكون.. ولكنها لا تذكر الله

الذى خلق هذا الكون، إنما تتجه إلى الطبيعة كأنها إله . . وهذا هو «المحظور» فى الفن الإسلامى . . عبادة الجمال، لا الأعجاب بالجمال!

ولا عبرة من جهة أخرى بالحظر الذى يفرضه «الالتز[illegible]ى المذهب الشيوعى فى مجال الجمال الكونى، بدعوى أن المعدات الخاوية لا تبحث عن الجمال، وأن الذى يحدثها عن الجمال يلهيها عن قضيتها الأولى: قضية الصراع الطبقى وإبادة الطبقات المستغلة . . فمن قال إن الإسلام يترك المعدات الخاوية بلا طعام؟! وأين إذن توجيه الإسلام المؤمنين للجهاد لإزالة الظلم الواقع على البشر؟:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩].

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥].

وهكذا يتناول الفن الإسلامى كل شىء، ويلتزم فى الوقت ذاته بأوامر الله ونواهيه، فلا يحل ما حرم الله، سواء فى «الشكل» أو فى «المضمون». ويكون بذلك أجمل الفنون، فى ترفع عن الأقذار، وفى استقامة على الطريق، ويؤدى مهمته التربوية دون لجوء إلى الوعظ المباشر، أو الخطب الحماسية، أو التقعيد والتجريد . .


النادي الشبابي

الفهـرس

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٠٦٦
الترقيم الدولى 3 - 0917 - 09 - 977



الناري الشباي
مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



- □ دراسات فى النفس الإنسانية
- □ التطور والثبات فى حياة البشرية
- □ منهج التربية الإسلامية
- □ منهج الفن الإسلامى
- □ جاهلية القرن العشرين
- □ الإنسان بين المادية والإسلام
- □ دراسات قرآنية
- □ هل نحن مسلمون؟
- □ شبهات حول الإسلام
- □ فى النفس والمجتمع
- □ حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية
- □ قبسات من الرسول
- □ معركة التقاليد
- □ مذاهب فكرية معاصرة
- □ مفاهيم ينبغى أن تصحح
- □ لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
- □ دروس من محنة البوسنة والهرسك
- □ العلمانيون والإسلام
- □ هلم نخرج من ظلمات التيه
- □ واقعنا المعاصر
- □ قضية التنوير فى العالم الإسلامى
- □ كيف ندعو الناس؟
- □ المسلمون والعولمة
- □ ركائز الإيمان
- □ لا يأتون بمثله
- □ من قضايا الفكر الإسلامى المعاصر

دار الشروق
www.shorouk.com

6 221102 012324